الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية "دراسة سياقية"
لقصة موسى عليه السلام

2024

رسالة دكتوراه

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

Ahmad ALYOUSEF

المشرف

Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ

الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية "دراسة سياقية" لقصة موسى عليه السلام

Ahmad ALYOUSEF

المشرف

Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ

بحث أُعدّ لنيل درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الأساسية بمعهد الدراسات العليا بجامعة كارابوك في تركيا

كارابوك

كانون الأول/2024

المحتويات

المحتويات 1
صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية) 4
صفحة الحكم على الرسالة 5
DOĞRULUK BEYANI 6
تعهد المصداقية 7
مقدمة 8
الملخص 10
ÖZET 12
ABSTRACT 14
ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ 16
بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية) 17
ARCHIVE RECORD INFORMATION 18
الاختصارات 19
موضوع البحث 20
أهداف البحث وأهميته 20
منهج البحث 21
مشكلة البحث 21
حدود البحث ونطاقه والمشكلات التي واجهت الباحث 22
الدراسات السابقة 24
المقدمة 25
1.1أسباب اختيار الموضوع 26
1.2الهدف من البحث 27
1.3أهمية البحث 28
4.1الدراسات السابقة 28
5.1منهج السير في البحث 32
التمهيد: التعريف بمصطلحات البحث 36

1.1 القصص القرآني 36
1.1.1 القصص: لغة واصطلاحا..36
2.1.1 مدلول القصص القرآني 37
3.1.1 علاقة القصص بالقرآن كإعجاز بلاغي بياني..40
4.1.1 تنوع القصص القرآني وعلاقته بالسّور إجمالًا وتفصيلًا 41
5.1.1 الدافع والغرض من القصّة القرآنية 45
2.1 المبحث الثاني: التنجيم 48
1.2.1 التنجيم لغة واصطلاحًا..48
2.2.1 آراء العلماء في قضية التنجيم والتنزيل 49
3.2.1 الحكمة من نزول القرآن منجّمًا 51
1.3 المبحث الثالث: السياق 55
4.1 السياق لغة واصطلاحًا 55
الفصل الأول: تنجيم قصة موسى –عليه السلام– في البيان القرآني 57
1.1 المبحث الأول: السور التي وردت فيها القصة حسب ترتيب المصحف 62
2.1 المبحث الثاني: العِبر المستخلصة من الأغراض البيانية في قصة موسى عليه السلام..192
3.1 المبحث الثالث: السمات البيانية الخاصة بالأسلوب والصورة 215
الفصل الثاني: ملامح بارزة وموازنات في قصة موسى عليه السلام.. 224
1.2 المبحث الأول: موازناتٌ دلاليّة متعلقة بالمتشابهات 224
2.2 المبحث الثاني: موازنات دلالية متعلقة بالحذف والذكر 240
3.2 المبحث الثالث: ملامح إحصائية ودلالية متعلقة بالإجمال والتفصيل..253
4.2المبحث الرابع: الخصائص البلاغية المتعلقة بالمسكوت عنه في قصة سيدنا موسى عليه السلام 287
1.4.2 المطلب الأول: المسكوت عنه في القرآن وأغراضه البيانية..287
2.4.2 المطلب الثاني: علاقة المسكوت عنه بالخطاب القرآني 292
3.4.2 المطلب الثالث: المسكوت عنه من وجهة نظر البلاغيين 293
4.4.2المطلب الرابع: مواضع المسكوت عنه في قصة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن الكريم 295
خلاصة المسكوت عنه في قصّة سيدنا موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم.. 319
الخاتمة والنتائج.. 325
التوصيات 333

قائمة الجداول 334
قائمة الأشكال.. 335
المصادر والمراجع.. 336
الملحقات 345
السيرة الذاتية.. 347

صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية)

Ahmad ALYOUSEF tarafından hazırlanan “MUSA (A.S.) KISSASI BAĞLAMINDA KUR'ÂN KISSALARININ PARÇA PARÇA OLARAK İNDİRİLMESİNDEKİ BEYÂNÎ SIRLAR” başlıklı bu tezin Doktora Tezi olarak uygun olduğunu onaylarım.

Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ ....
Tez Danışmanı, Temel İslam Bilimleri

Bu çalışma ،jürimiz tarafından Oy Birliği ile Temel İslam Bilimlerinde Doktora tezi olarak kabul edilmiştir. 06.03.2024

<u>**Ünvanı, Adı SOYADI (Kurumu)**</u>	<u>**İmzası**</u>
Başkan : Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ (KBÜ)	....
Üye : Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN (KBÜ)	....
Üye : Dr. Öğr. Üyesi Mustafa YILDIZ (KBÜ)	....
Üye : Doç. Dr. Aydın KUDAT (AYBÜ)	....
Üye : Dr. Öğr. Üyesi Muhammed Murtaza ÇAVUŞ (GAÜN)	....

KBÜ Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Yönetim Kurulu, bu tez ile, Doktora Tezi derecesini onamıştır.

Doç. Dr. Zeynep ÖZCAN ....
Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Müdürü

صفحة الحكم على الرسالة

أصادق على أن هذه الأطروحة التي أعدت من قبل الطالب أحمد اليوسف بعنوان "البيانية في تنجيم القصة القرآنية دراسة سياقية لقصة موسى عليه السلام" في برنامج الدراسات العليا، هي مناسبة كرسالة دكتوراه.

Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ ....

مشرف الرسالة، العلوم الإسلامية الاساسية

قبول

تم الحكم على رسالة الدكتوراه هذه بالقبول بإجماع لجنة المناقشة بتاريخ.

2024/03/06

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
رئيس اللجنة	: Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ (KBÜ)	....
عضواً	: Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN (KBÜ)	....
عضواً	: Dr. Öğr. Üyesi Mustafa YILDIZ (KBÜ)	....
عضواً	: Doç. Dr. Aydın KUDAT (AYBÜ)	....
عضواً	: Dr. Öğr. Üyesi Muhammed Murtaza ÇAVUŞ (GAÜN)	....

تم منح الطالب بهذه الأطروحة درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الأساسية من قبل مجلس إدارة معهد الدراسات العليا في جامعة كارابوك.

Doç. Dr. Zeynep ÖZCAN ....

مدير معهد الدراسات العليا

DOĞRULUK BEYANI

Doktora tezi olarak sunduğum bu çalışmayı bilimsel ahlak ve geleneklere aykırı herhangi bir yola tevessül etmeden yazdığımı, araştırmamı yaparken hangi tür alıntıların intihal kusuru sayılacağını bildiğimi, intihal kusuru sayılabilecek herhangi bir bölüme araştırmamda yer vermediğimi, yararlandığım eserlerin kaynakçada gösterilenlerden oluştuğunu ve bu eserlere metin içerisinde uygun şekilde atıf yapıldığını beyan ederim.

Enstitü tarafından belli bir zamana bağlı olmaksızın, tezimle ilgili yaptığım bu beyana aykırı bir durumun saptanması durumunda, ortaya çıkacak ahlaki ve hukuki tüm sonuçlara katlanmayı kabul ederim.

Adı Soyadı: Ahmad ALYOUSEF

İmza :

تعهد المصداقية

أقر بأنني التزمت بقوانين جامعة كارابوك، وأنظمتها، وتعليماتها، وقراراتها السارية المفعول المتعلقة بإعداد أبحاث الماجستير والدكتوراه أثناء كتابتي هذه الأطروحة التي بعنوان:

الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية " دراسة سياقية لقصة موسى عليه السلام"

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الأبحاث العلمية، كما أنني أعلن بأن أطروحتي هذه غير منقولة، أو مستلة من أطروحات، أو كتب، أو أبحاث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أية وسيلة إعلامية باستثناء ما تمت الاشارة اليه حيثما ورد.

اسم الطالب: أحمد اليوسف

التوقيع:

مقدمة

الحد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون هداية للناس جميعا، وبيانا لكل شيء، وهو الكتاب الذي احتوى على القصص العظيمة التي تحمل في طياتها العبر والمواعظ والحكم والدروس، وهي قصص حقيقية وليست خيالية، وهي قصص مرتبة وليست مبعثرة، وهي قصص بليغة وليست عادية، وهي قصص متنوعة وليست متشابهة، وهي قصص متكاملة وليست متناقضة.

ومن أجل الاستفادة من هذه القصص القرآنية، والوصول إلى ما فيها من أسرار ودقائق وفوائد، فإنه يتطلب منا دراستها وتحليلها وتفسيرها بمنهجية علمية وبلاغية، تراعي خصوصية النص القرآني وتميزه عن غيره من النصوص، وتأخذ بعين الاعتبار العوامل المؤثرة في فهمه وتقديره، منها: السياق، والنزول، والترتيب، والموازنة، والإعجاز، وغيرها من العناصر البيانية والبلاغية.

ومن بين القصص القرآنية التي تستحق الدراسة والبحث، قصة سيدنا موسى عليه السلام، التي تعد من أكثر القصص تكرارا وتنوّعا وتفصيلا في القرآن الكريم؛ حيث نجد اسم موسى عليه السلام ذكر 136 مرة موزعًا على 34 سورة من القرآن من سور للقرآن الكريم بوجوه وأساليب متنوعة، وتناولت مراحل مختلفة من حياته ودعوته ومجاهدته، وتضمنت مواقف وحوادث وعجائب ومعجزات، وتعرضت لشخصيات وأمم وأحداث وأزمنة متباينة، وتنوعت في أسلوبها ومقالها ورتبتها وموضوعها، مما يجعلها قصة غنية بالمعاني والدلالات والأسرار.

ولما كانت قصة موسى عليه السلام مرتبطة بالسياق الذي توجد فيه، والذي يؤثر في فهمها وتقديرها، ولما كانت هناك حاجة إلى دراسة هذا السياق وتحليله وتوضيحه، فقد اخترت موضوع رسالتي هذه: (الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية: دراسة سياقية لقصة موسى عليه السلام)، متناولا فيها الجوانب البيانية التي تتعلق بترتيب القصة القرآنية، والتي تظهر فيها أسرارها ودقائقها وإعجازها، مع التركيز على السياق كعامل مهم في تحديد معنى القصة وغرضها ودورها في السورة التي تنتمي إليها.

وقد توصلت إلى اختيار هذا الموضوع بعد مراجعة الدراسات السابقة في هذا المجال، والتي وجدت أنها قليلة ونادرة، وأنها لم تعط هذا الموضوع حقه من البحث والتحليل والتفسير، وأنها لم تركز على السياق والتنجيم بالقدر الكافي، وأنها لم تكشف عن الأسرار البيانية التي تتضح من خلال الترتيب والتنجيم، ولذلك رأيت أن هناك فرصة للمساهمة في هذا المجال، والإضافة إلى ما سبق من الأبحاث والدراسات.

وبهذه المناسبة:

أتقدم بخالص الشكر والعرفان والامتنان لأستاذي الفاضل والمشرف العلمي الدكتور: **صالح ديرشوي** الذي كان له الفضل الأكبر في إنجاز هذه الرسالة، والذي أرشدني وأشرف علي وأعانني بنصائحه القيمة وتوجيهاته السديدة وملاحظاته البناءة وتشجيعه المستمر، والذي أثبت لي معنى العلم والأخلاق والتفاني والإخلاص في العمل البحثي.

وأخيراً، أشكر كل من ساهم في إنجاز هذه الرسالة بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء كانوا من أسرتي، أو أصدقائي، أو زملائي، أو مؤسستي، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء وأن يبارك فيهم وينفع بهم.

الملخص

هذه دراسة في بلاغة القصة القرآنية المنجّمة، تهدف إلى استكشاف الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية لقصة موسى عليه السلام، وذلك من خلال دراسة سياقية تربط بين القصة والسورة التي ترد فيها، وبين القصة والمناسبة التي تنزلت بها، وبين القصة والمخاطب الذي تُوَجّهُ إليه، وبين القصة والهدف الذي تنويه، ويتميز هذا البحث بأهمية علمية؛ فهو يقدم مساهمة في فهم القرآن وتدبره وتأمله، ويسعى إلى تقديم نموذج متكامل في دراسة القصة القرآنية، ويفتح باب الاستقصاء عن الصلة بين القصة والسياقات المتنوعة التي تظهر فيها، سواء كانت سياقات سورية أو نزولية، منهج البحث يعتمد على: الاستقراء والجمع، والتأصيل، والتحليل، وتتمثل مشكلة البحث في هذا الموضوع في محاولة الإجابة على الأسئلة التالية: ما هو مفهوم تنجيم القصة القرآنية؟ وما هي أهميته؟ وما هي الأسرار البيانية التي تظهر في تنجيم قصة موسى عليه السلام؟ وما هي العلاقة بين تنجيم القصة والسياق الذي توجد فيه؟

يقتصر البحث على قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم دون غيرها من قصص القرآن، ويستند إلى المصادر العلمية الموثوقة، ويتجنب المصادر القديمة أو الأسطورية.

خطة الدراسة تسير نحو أهدافها بخطوات متسلسلة، المقدمة: تشمل سبب اختيار الموضوع وأهمية الدراسة وأهدافها. التمهيد: يعرّف القصص القرآنية والتنجيم وعلاقة القصص بالقرآن كإعجاز بلاغي بياني، ويوضح مفهوم السياق. الباب الأول: يتناول مواضع قصة سيدنا موسى في القرآن الكريم، مع تحليل بلاغي لتلك المواضع واستخراج الأغراض البيانية والأفكار الخاصة بالأسلوب والصورة. الباب الثاني: يركز على الموازنات من حيث التشابه اللفظي والحذف والذكر والإجمال والتفصيل والمسكوت عنه.

توصلت هذه الدراسة إلى نتائج حول التنجيم القصصي، من أهمها أنه وجه من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وله دور مهم في فهم القصة القرآنية وتحديد سياقها، كما أظهرت الدراسة أن قصة موسى عليه السلام هي من أكثر القصص ذكرًا في القرآن، وأنها تأتي بأشكال متعددة وأساليب متنوعة، وأخيرًا أكدت الدراسة على أهمية مراعاة السياق والمسكوت عنه في تدبّر القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: القصة القرآنية، تنجيم القرآن، السياق، قصة موسى، النّظم القرآني.

ÖZET

Bu, Kur'an'da geçen müneccem (Parça parça) kıssanın belagati hususunda Musa (a.s.)'ın kıssasının Kur'an'da parça parça olarak anlatılmasındaki beyânî sırlarını keşfetmeyi amaçlayan araştırmadır. Bu, adı geçen kıssa ile zikredildiği sure arasında, kıssa ile o surede peyder pey indirilmesi arasında, kıssa ile muhatapları arasında, kıssa ile arzuladığı hedef arasında bağlantılı bir bağlam çalışmasıdır.

Bu araştırma; Kur'an'ı anlamaya, düşünmeye ve üzerinde tefekküre sevk etmesi, Kur'an'daki kıssaların incelenmesinde bütüncül bir model sunmayı amaçlaması, hikâye ve ortaya çıktığı çeşitli bağlamlar arasındaki bağlantıyı araştırmaya sevk etmesi ve bu bağlamları surelerin iniş sebepleri arasında tahlil ettiği için, ilmî bir öneme sahiptir.

Araştırmanın metodu; tümevarım, birleştirme, temellendirme ve analize dayanmaktadır. Kur'anî kıssanın parça parça indirilmesinde anlaşılması gerekenin ve öneminin ne olduğu ile Musa'ın (a.s) kıssasının aralıklı olarak indirilmesinde ortaya çıkan beyânî sırların ne olduğu hususunu cevaplamaya çalışmak bu araştırmanın cevaplaması gereken sorunlarını oluşturmaktadır.

Araştırma Kur'an-ı Kerim'de geçen Musa (a.s)'ın hikâyesi ile sınırlı olup başka hikâyelere yer vermemektedir. Güvenilir ve ilmî olan kaynaklara dayanılmıştır.

Çalışma planı şu sıralı adımlarla hedeflerine ilerlemektedir: Giriş: konunun seçilme nedenini, çalışmanın önemini ve hedeflerini açıklamaktadır.

Önsöz: Kur'an kıssalarının ve tencimin tanımını, kıssaların Kur'an'la ilgisini, kısa ve veciz anlatımını ve siyakından anlaşılanı açıklamaktadır. Birinci Bölüm: Kur'an'da Musa (a.s) kıssasının konularını ele almakta ve bu kıssaların geçtiği her surede içeriğindeki konuların edebî/belâgî analizini içermektedir. İkinci Bölüm: Kur'an'da birden çok yerde zikredilen Hz. Musa kıssalarının arasındaki kelime benzerlikleri, icmâl ve tafsil bakımından bir yerde değinilip diğerinde anlatılmayan bölümleri arasında mukayese yapmayı içermektedir. Bu çalışma Kur'anın peyder pey indirilmesinin Kur'an-ı Kerim'deki belâgat ve mucize yönlerinden biri olarak, Kur'an kıssalarının anlaşılmasında ve ilişkilendirilmesinde önemli bir role sahip olduğu sonuçlarına ulaşılmasının yanı sıra, Hz. Musa'nın kıssasını Kur'an'da en çok zikredilen kıssalardan

biri olduğunu ve farklı biçimlerde ve çeşitli üsluplarda sunulduğunu da ortaya koymuştur. Son olarak çalışma, Kur'an'ı tefekkür ederken bağlamın, aktarılıp ta anlatılmayan bölümlerin dikkate alınmasının önemini vurgulamıştır.

Anahtar Kelimeler: Kur’an Hikayesi; Tencim; Bağlam; Musa’nın Hikayesi; Kur’an Sistemi.

ABSTRACT

This research addresses the rhetoric of the highly structured Quranic story, to explore the semantic secrets behind this marvelous structure of the Quranic story of Moses (PBUH). This has been conducted through a contextual study that relates between the story and the Surah in which the story is narrated, the story and the addressee, and between the story and the desired objective.

This research is characterized by academic significance since it contributes to comprehending, contemplating, and reflecting on the Holy Quran. It also seeks to provide an integrated model for the study of the Quranic story and opens the door to investigating the connection between the story and the various contexts in which it appears, whether they are Surah-related or revelation contexts.

The research methodology is based on induction, collection, description, consolidation, and analysis.

The research problem is represented in attempting to answer the following questions: What is the concept of the Quranic story structure? How important is it? What are the semantic secrets that feature in the structure of the story of Moses (PBUH)? And what is the relationship between the structure of the story and the context where it appears?

The research confines itself to the story of Moses (PBUH) in the Holy Quran rather than other stories of the Quran, and it refers to reliable and authentic scholarly sources, as well as refrains from old or mythical sources.

The research plan proceeded to achieve its objectives through a sequence of steps, where the introduction included the reason for choosing the subject, the research significance, and the research objectives. The preamble tackles the definition of the Quranic story, structured narration, the relationship of stories to the Quran as a rhetorical and explanatory miracle, and the definition of context. Then, the First Chapter addresses the settings of the story of the Prophet Moses (peace be upon him) in the Holy Quran, with the rhetorical analysis of those settings and extracting the rhetorical purposes and the ideas related to the style or image. The Second Chapter focuses on the comparisons

in terms of verbal similarity, deletion and mention, generalization, and detail, and the unspoken.

The research reached some findings on the narrative structure, notably, it is an aspect of the semantic miraculousness of the Holy Quran, and it has a key role in comprehending the Quranic story and identifying its context. Moreover, the research demonstrated that the story of Moses (PBUH) is the most narrated in terms of the number of narrations, in the Quran, and it is presented in multiple forms and various styles. Finally, the study asserted the need to take into account the context and the unspoken when contemplating the Holy Quran.

Keywords: Quranıc Story; Organızatıon; Context; Story Of Moses; Quranıc Structure.

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ

Tezin Adı	Musa (A.S.) Kıssası Bağlamında Kur'ân Kıssalarının Parça Parça Olarak İndirilmesindeki Beyânî Sırlar
Tezin Yazarı	Ahmad ALYOUSEF
Tezin Danışmanı	Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ
Tezin Derecesi	Doktora
Tezin Tarihi	06.03.2024
Tezin Alanı	Temel Islam Bilimleri
Tezin Yeri	KBÜ/LEE
Tezin Sayfa Sayısı	347
Anahtar Kelimeler	Kur'an kısası, Kur'an'ın yapılandırılması, Bağlam, Musa'nın kısası, Kur'an sistemi.

بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية)

عنوان الرسالة	الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية – دراسة سياقية لقصة موسى عليه السلام -
اسم الباحث	أحمد اليوسف
اسم المشرف	الأستاذ المساعد د. صالح ديرشوي
المرحلة الدراسية	دكتوراه
تاريخ الرسالة	06.03.2024
تخصص الرسالة	العلوم الإسلامية الأساسية
مكان الرسالة	جامعة كارابوك – معهد الدراسات العليا
عدد صفحات الرسالة	347
الكلمات المفتاحية	القصة القرآنية، تنجيم القرآن، السياق، قصة موسى، النظم القرآني

ARCHIVE RECORD INFORMATION

Name of the Thesis	The Semantic Secrets in the Interpretation of the Quranic Stories, A Contextual Study of the Story of Moses (PBUH)
Author of the Thesis	Ahmad ALYOUSEF
Advisor of the Thesis	Asisst. Prof. Dr. Salih DERŞEVİ
Status of the Thesis	Ph.D.
Date of the Thesis	06.03.2024
Field of the Thesis	Basic Islamic Sciences
Place of the Thesis	UNIKA/IGP
Total Page Number	347
Keywords	Quranic Story; Organization; Context; Story of Moses; Quranic Structure.

الاختصارات

دت: بدون تاريخ

د.م: بدون مكان نشر

د.ط: بدون طبعة

م: التقويم الميلادي

م.ح: المحقق

هـ: التقويم الهجري

ج: الجزء

ص: الصفحة

موضوع البحث

الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية، دراسة سياقية لقصة موسى عليه السلام.

أهداف البحث وأهميته

يهدف هذا البحث إلى استكشاف الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية لقصة موسى عليه السلام، وذلك من خلال دراسة سياقية تربط بين القصة والسورة التي ترد فيها، وبين القصة والمناسبة التي تنزلت بها، وبين القصة والمخاطب الذي توجه إليه، وبين القصة والهدف الذي تنويه. ويتوقع الباحث من خلال هذا البحث تحقيق النتائج التالية:

- إبراز الجمالية والعمق والتنوع والتأثير في القصة القرآنية لقصة موسى عليه السلام، وكشف عن الأسرار البيانية التي تحملها في طياتها.
- تحليل العلاقة بين تنجيم القصة والسياق الذي ترد فيه، وبيان كيفية توافق القصة مع السورة والمناسبة والمخاطب والهدف.
- إثراء الدراسات القرآنية والبلاغية والقصصية بمنهج جديد ومتميز في دراسة القصة القرآنية، وهو منهج التنجيم السياقي.
- تقديم مساهمة علمية وثقافية في فهم القرآن الكريم وتدبره وتأمله، والاستفادة من القصة القرآنية كوسيلة تربوية ودعوية وتاريخية وحضارية.
- ويتميز هذا البحث بأهمية علمية وميزة جديدة، وذلك لعدة أسباب، منها:

- قلة الدراسات المتخصصة في موضوع الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية، وخاصة قصة موسى عليه السلام، والتي تعد من أشهر وأهم وأغنى القصص القرآنية.
- تبني منهج التنجيم السياقي في دراسة القصة القرآنية، وهو منهج يربط بين الشكل والمضمون، وبين النص والسياق، وبين القصة والرسالة، ويعطي للقصة بعدًا أوسع وأعمق وأشمل.
- الاستفادة من المصادر والمراجع العلمية المعاصرة في تفسير وتحليل القصة القرآنية، وتجنب الاعتماد على المصادر القديمة أو الأسطورية التي قد تحتوي على معلومات غير موثوقة أو مخالفة للقرآن الكريم.
- السعي إلى تقديم نموذج متكامل ومتوازن ومتناغم في دراسة القصة القرآنية، يشمل جميع جوانبها وعناصرها وأساليبها ومعاييرها، ويحقق الهدف الذي تسعى إليه.

منهج البحث

يقوم منهج البحث على: الاستقراء والجمع والوصف والتأصيل والتحليل، وقد سرت في معالجة الدراسة على نهج يتّسم بالجمع والتحليل والموازنة، مع تتبع أقوال العلماء في قضية التنجيم والتنزيل والقصة.

مشكلة البحث

وتتمثل مشكلة البحث في هذا الموضوع في محاولة الإجابة على الأسئلة التالية: ما هو مفهوم تنجيم القصة القرآنية؟ وما هي أهميته ومبرراته ومناهجه ومصادره، ومقوماته، ومبادئه، وقواعده؟ وما هي الأسرار

البيانية التي تظهر في تنجيم قصة موسى عليه السلام؟ وما هي العلاقة بين تنجيم القصة والسياق الذي توجد فيه؟ وما هي الأثر البلاغي والتأثيري لتنجيم القصة على السامع والقارئ؟

حدود البحث ونطاقه والمشكلات التي واجهت الباحث

يهدف هذا البحث إلى استكشاف الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية لقصة موسى عليه السلام، وذلك من خلال دراسة سياقية تربط بين القصة والسورة التي ترد فيها، وبين القصة والمناسبة التي تنزلت بها، وبين القصة والمخاطب الذي توجه إليه، وبين القصة والهدف الذي تنويه. ولتحقيق هذا الهدف، فقد اقتصر البحث على الجوانب التالية:

- الموضوعية: تم اختيار قصة موسى عليه السلام كموضوع للبحث؛ لأنها تعد من أشهر وأهم وأغنى القصص القرآنية، ولأنها تحمل في طياتها العديد من الأسرار البيانية التي تستحق الدراسة والتحليل.
- الزمانية: تم الاعتماد على القرآن الكريم كمصدر أساسي للبحث، وعلى التفاسير والمصادر العلمية المعاصرة كمصادر ثانوية، ولم يتم الرجوع إلى المصادر القديمة أو الأسطورية التي قد تحتوي على معلومات غير موثوقة أو مخالفة للقرآن الكريم.
- المكانية: تم تحديد مجال البحث على القصص القرآنية التي تتناول قصة موسى عليه السلام، ولم يتم الخروج عنها إلى قصص أخرى قد تكون متشابهة أو متضادة أو متعلقة بشخصيات أخرى.
- وقد واجهتُ بعض المشكلات والصعوبات في إجراء هذا البحث، ومنها:
- قلة المراجع والدراسات النظرية والميدانية المتخصصة بموضوع البحث، والتي تتناول الأسرار البيانية في تنجيم القصة القرآنية بشكل عام، أو نزول القرآن منجمًا بشكل خاص.

- صعوبة الوصول إلى بعض المراجع والمصادر النادرة أو المحجوبة أو المحدودة الانتشار، والتي قد تحتوي على معلومات قيمة أو مفيدة للبحث.
- تعدد الآراء والمناهج والأساليب في تفسير وتحليل القصة القرآنية لقصة موسى عليه السلام، والتي قد تتضارب أو تتناقض أو تتكامل مع بعضها البعض، ومن ثم تحتاج إلى مقارنة وتقويم واختيار.
- تنوع وتشعب وتعقيد القصة القرآنية لقصة موسى عليه السلام، والتي تتناول جوانب مختلفة من حياته ودعوته ومواجهته لفرعون وقومه وبني إسرائيل، والتي تتطلب دراسة شاملة ومتعمقة ومتوازنة لكل عنصر من عناصرها.

الدراسات السابقة

كثرت الدراسات حول القصة القرآنية من جانب الباحثين والدارسين، ونكاد نلمس اتفاقًا ظاهرًا في تناولها حول مضمونها وجوهرها، وإن اختلفت بعض وجهات النظر فيما بينهم، ولعل أغلب الدراسات اكتفت بالجانب التاريخي وبالسرد القصصي مع التطرق لجانب لغوي يغلب عليه التفسير في دراساتهم، إلا أن هناك قضية مهمة لم تحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات البلاغية، وهي قضية تنجيم القرآن الكريم، الأمر الذي أردنا لهذه الدراسة أن تتوخّاه، وقد تناول بعض العلماء القصص القرآني في دراساتهم وأبحاثهم، ومنهم: الدكتور أحمد محمد صافي المستغانمي في كتابه "تصريف القول في القصص القرآني" و القصص القرآني في منطوقه ومفهومه للشيخ عبد الكريم الخطيب، ورسالة ماجستير بعنوان: القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني، للباحثة بثينة محمود ملكاوي، ولكنهما لم يتناولا قضية التنجيم لا من قريب ولا من بعيد.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فالقرآن مليء بعجائب لا تنقضي، معجزة البيان، كتاب مستقيم النهج، متقن البناء، متين الأسلوب، لا عوج له، حكيم الذكر، لطيف المقاصد، قريب العطاء، عزيز المنال، خير الكلام وأحسن الحديث، متنوع الأساليب، متعدد الطرق في سرد الأحداث جعلت منه منبراً سامقاً خضعت له رقاب الفصحاء الأوائل حينما تلقته آذانهم، فاعترفوا بأنه ليس بكلام البشر وأنه يعلو ولا يُعلى عليه، والقصص القرآني جانب من جوانب إعجاز القرآن، ليس من طرف سرد الأحداث وحكايات الأمم السابقة فحسب مما تردد في كتب المفسرين واللغويين، بل في جوانب عرض القصة وبلاغة الكلمة التي ما كان للشعراء والأدباء وأصحاب القرائح في زمن نزوله أن يأتوا بسورة من مثله أو يعارضوه، واقتضت حكمة الله ﷻ أن يحظى القصص القرآني بما يزيد عن ثلثي القرآن الكريم تثبيتاً لفؤاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وترسيخا لمقاصد الدين الحنيف.

ولا بدَّ من مسحة جمالية في القصص القرآنية متوافقة مع خاصية الإعجاز، تتواكب مع الحدث السردي من خلال الأحداث التي يسوقها لنا القرآن ضمن القصة، وعليه يمكننا الجزم بأن الخطاب القرآني مشحونٌ بالصور البيانية والألوان البديعية متماسكة مع النظم القرآني، تحيلنا إلى تخيل الأحداث والمشاهد، فنعيش الحدث ونتخيل الحركة ونترسم خطا الألفاظ ونقتفي وقع الحدث في النفس، ومن هنا نجد أن الصورة خليقة بتتبّعها وبيان سرها البلاغي، وكأننا نعيشها في كل لحظة.

ولابدَّ لكل دراسة علمية تريد أن ترى النور من فكرة تختمر في ذهن صاحبها، يقلبها في رأسه حتى تستقيم له وتنضج نضجًا واعيًا، فيتمكن صاحبها من طرح الإشكالية التي بنى عليها الفكرة، مع

الأهداف فضلًا عن ضبط المنهجية المتبعة، ولا يخلو الأمر من مرجعية نعود إليها في كل ما يعترضنا من مشكلات في البحث، فهذا حالنا؛ حيث يمكننا أن نجمل أسباب اختيار الموضوع بعدة نقاط:

1.1 أسباب اختيار الموضوع

إنما يدفع إلى اختيار هذا البحث:

- كونه متعلقًا بكتاب الله ﷻ وكونه يتناول معتركًا دلاليًا معجزًا، إضافة إلى محاولة استكشاف معالم الهدى والكشف عن أسرار هذه الظاهرة القصصية التي امتلأت بالعجائب والبدائع؛ لأنه (أحسن القصص)، في (أحسن الحديث)؛ فيلزمه الحسن في كل شيء، عسى أن يهديني ربي سواء السبيل، وأنال– بفضله– أن أكون من المحسنين.

- إيماني بأن موضوع هذا البحث من أجلّ ما يصرِفُ فيه طالبُ العلم وقته وجهده، لأنه مرتبط بكتاب الله ﷻ، وهو أعظم ما صرفت فيه الأوقات وبذلت لأجله الأعمار.

- رصد ظواهر الإعجاز اللغوي في قصة موسى المنجمة، وإبراز الجوانب الفنية التي يتميز بها السياق اللغوي في القرآن، فضلاً عن إظهار ذلك التناسق اللفظي في قصة موسى عليه السلام خاصة.

- التأكيد على التناسق والانسجام بين العبارة والموضوع في النظم القرآني، وأنه لا تستطيع أي كلمة أن تحل محل كلمة أخرى.

وإذا كان هناك مجال للحديث عن **الدوافع الذاتية** لاختيار الموضوع، فترجع الأسباب إلى الرغبة الحقة والحاجة إلى الجلوس على مائدة القرآن الحكيم، لأتعلم وأبحث وأنهل متلقيا فيوض الله التي أرجو ألّا يحرمني هداه، وأعوذ به أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل، متأدبا بين يديه بأدب كتاب العربية الأكبر، كتاب الله، الذي اصطفى له (اللسان العربي المبين).

أما **الدوافع الموضوعية**، فترجع إلى أمرين: أحدهما: افتناني بالكتب التي تناولت السرد الإعجازي في الخطاب القرآني، إضافة لكوني درّست مادة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم في إحدى الجامعات، فاطلعت على ثروة السابقين ممن تصدّروا مجالات التأليف، وهو ما حدا بي إلى متابعة العمل بموضوع البيان القرآني الذي ما فتئ يجذب الدارسين بلآلئه البديعة ودرره النفيسة، وثانيهما: شبهات المستشرقين الطاعنين بالإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وتناولهم قضية القصص القرآني بشيء من التحريف، ومن تبعهم من أبناء جلدتنا وسار على نهجهم، فصوّر الوهم لبعضهم أن تكرار المشهد الواحد في القصة نفسها بألفاظ وأساليبَ متعددة يُضعف البيان القرآني، فانبرى يبحث عن التعليلات التي يدرأ بها شبهات المستشرقين، وسارع يتمحّل المعاذير ويصطنع التفاسير، فأجرم بحق القرآن الكريم، وزعم أن الشخصية في القصة القرآنية ليست حقيقية، وإنما هي شخصية فنية اخترعها البيان القرآني، ومن ثمّ فهي في تلك السورة غيرُها في سورة أخرى وإن اتفقت في التسمية، يعني موسى عليه السلام في سورة البقرة غير موسى في سورة المائدة وهذا غير موسى في سورة الأعراف ... وهكذا.

فقد كثرت مؤخرا التساؤلات العلمية عن منهج البيان القرآني في طرق الحديث عن القصة القرآنية الواحدة، من حيث تعدد ذكرها في مواضع كثيرة، ومن حيث الطول والقصر، والتكرار، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف..، كل ذلك في سياقات قرآنية تجتذب العقل، وتستملك القلب، وتلح على التدبر، وتستثير الهمم، وتسترعي الفطنة، وتدعو إلى التسابق والتنافس في الغوص في أعماق هذه الآفاق الوسيعة، والرحاب الفسيحة، تستجدي من الله المنح والمواهب، وتنقب عن حسن الصنائع ورغائب الفوائد.

2.1 الهدف من البحث

استكشاف الأسرار واستنباط القواعد التي من وراء هذا البناء العجيب للقصص القرآني، تركيزا على قضية التنجيم، وتوضيح بلاغة القرآن الكريم من حيث تقديم المعنى الواحد بطرق مختلفة وأساليب متعددة،

كما تهدف الدراسة إلى معرفة منهج القرآن الكريم في اختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة في عرض المشهد في القصة الواحدة، وكذلك منهج القرآن الكريم في الانتقال بين الأحداث في قصة موسى عليه السلام، والوقوف على انفراد السورة بقول معيّن دون غيره، كما تهدف الدراسة إلى معرفة مقامات السور التي تطلّبت مقالا بحد ذاته في المشهد القصصي، واستخراج الحكم والأسرار في تنوّع المقام والمقال، وهذا ما سيجلّيه البحث في قادم الصفحات ــ إن شاء الله ــ.

3.1 أهمية البحث

وتتجلى هذه الأهمية في أن ظاهرة (التنجيم) في حاجة إلى دراسات تتدبرها، لإبراز شرعية العناية بهذا الفرع عمليا، وبيان أن هذا أمر أراده الله ﷻ تعليما لعباده الدعاة إليه أن تكون زاوية الإفادة من القصص القرآني تفعيلَ العبرة منه، هذه الدراسة تعين على إتقان مواضع القصة الواحدة، وتكشف ما أبهم من علل التنجيم، وتساعد على ضبط الحفظ.

4.1 الدراسات السابقة

كثرت الدراسات حول القصة القرآنية من جانب الباحثين والدارسين، ونكاد نلمس اتفاقًا ظاهرًا في تناولها حول مضمونها وجوهرها، وإن اختلفت بعض وجهات النظر فيما بينهم، ولعل أغلب الدراسات اكتفت بالجانب التاريخي وبالسرد القصصي مع التطرق لجانب لغوي يغلب عليه التفسير في دراساتهم، ولما كان هذا القرآن يتطلب اهتمامًا واعيًا لاستجلاء الحقائق والأسرار الباهرة الكامنة في نظم القرآن، آثرت أن يكون موضوعي حول الأسرار البلاغية في تنجيم القصة القرآنية، ذلك أن تذوّق الأسرار يكون له جوانبُ فريدةٌ وخصائصُ لا يتأتّاها إلا من كلأَه الله برحمته، وأحسبني أقف أمام هامات شامخة في مجال التصوير الفني والبياني للقرآن الكريم، ولا أزعم أن ما جئت به لم يسبقني إليه أحد، بل إني أثمّنُ الجهود التي سبقتني وإخالني أن ما قدمته في هذا البحث اجتهاد تكميلي يستقي اللطائف البلاغية واللمسات التصويرية التي

كستِ الفن القصصي في القرآن حلةً جليلة، فلا يكون بحثي بدعًا من التفرد في موضوعه، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن عبئًا ثقيلًا على تلك الجهود بقدر ما جعلها قبسًا يأنس إليه، وعلامةً يهتدي بها في جوانبِ البحث، على الرغم من الكم الهائل من الأبحاث التي تمت حول القصص القرآنية، إلا أن هناك قضية مهمة لم تحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات البلاغية، وهي قضية تنجيم القرآن الكريم، الأمر الذي أردنا لهذه الدراسة أن تتوخّاه، ومن هذه القضية تتشكل معالم الطريق الذي أرغب في السير فيه.

ومن البحوث التي تناولت القصص القرآني عامة:

1_كتاب: قصص القرآن الكريم للدكتور: فضل عباس، هدف من خلال كتابه إلى الدفاع عن القرآن الكريم مؤكّدًا خلوّه من شبهة التكرار معتمدًا على ترتيب النزول في القصص القرآني، ولم يتطرقْ في مؤلفه إلى قضية نجوم القرآن لا من جهة كونه بحثًا من علوم القرآن، ولا من حيث الأسرارُ البيانية في التنجيم.

2_ وكتاب: الإعجاز اللغوي في القصص القرآني، لمحمود السيد حسن مصطفى: تناول فيه المؤلف أسلوب القصة الأدبية عند العرب، ثم تطرق للقصة القرآنية في الكتب المقدسة، ونحا منحى لغويًا في الفصل الثالث حيث تناول الخصائص اللغوية في قضية الإعجاز، وتناول قضية التكرار وما فيه من فصاحة وبلاغة، نلاحظُ أنه لم يركز على قصّة بعينها، بل تناولها بشكل عام.

3_ وكتاب: "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه" للشيخ عبد الكريم الخطيب:

يقدم الكتاب مفاتيح لفهم القصص القرآني، من خلال: التعريف بمفهوم القصص القرآني: ما هو، وخصائصه، وأهدافه، وتحليل أساليب القصص القرآني وكيف وظف القرآن الكريم أساليب سردية متنوعة لشد انتباه القارئ وتوصيل الرسالة، ويقدم دراسة شخصيات القصص القرآني، واستخلاص الدروس والعبر من القصص القرآني وربطها بواقعنا المعاصر والاستفادة منها في حياتنا الشخصية والمجتمعية.

ويخوض الكتاب في نقاش حول ظاهرة التكرار في القصص القرآني، مؤكدًا على أنّه ليس عبثًا، بل هو أسلوب مقصود لإبراز جوانب مختلفة من القصة، وتحقيق أهداف متعددة.

وتتقاطع دراستي مع دراسة الشيخ في جوانب نظرية مثل تعريف القصص القرآني والتطرق لظاهرة التكرار مع اختلاف طريقة التناول، وتختلف في الجانب التحليلي حيث تطرق الشيخ لقصص القرآن عامة في حين تناولت في بحثي قصة موسى عليه السلام، كما يُركّز الكتاب بشكل كبير على الجانب الأدبي في القصص القرآني، ويكتفي بعرض سطحي للأحداث دون الغوص في تفاصيلها ودلالاتها، في حين دراستي تناولت الجانب التحليلي البلاغي بشكل موسع بالتركيز على القضية الأم ألا وهي قضية التنجيم.

4_ رسالة ماجستير بعنوان: القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني، للباحثة بثينة محمود ملكاوي، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت _الأردن، كلية الدراسات الفقهية القانونية.

بدأت الباحثة بحثها _كما أغلب من تناول القصص القرآني _ بإطار نظري، وفرقت بينها وبين النبأ والأسطورة والخبر، بينما تناولت في الفصل الثاني السياق القرآني ومناسبته للقصة القرآنية، وفي النهاية أشارت إلى قضية التناسق المعنوي بين القصة ودلالاتها، وتناولت قصتي موسى وآدم عليهما السلام، وانصبّ جهدها على إيجاد المواءمة بين القصة الواردة والسياق الذي دارت الأحداث ضمنه، ولم تتطرق للإعجاز البياني في القصة القرآنية، ولا لأسرار التنجيم.

5_ دراسة بعنوان: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني.

للباحثة تهاني بنت سالم باحويرث، 1428هـ / 2007م، وهي رسالة ماجستير في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني، تناولت الدراسة مفهوم السياق وأنواعه وأركانه ودلالته وأهميته والتدرج التاريخي لظهور مصطلح السياق، كما درست مفهوم المتشابه اللفظي وتطوره في القرآن تاريخيا، وتحدثت عن مفهوم القصة في القرآن وخصائص القصة القرآنية وأساليبها وأهداف القصص القرآنية وعناصر البنية الفنية للقصة القرآنية وجماليات السياق الأدبي في القصة القرآنية، ثم تناولت الدراسة التطبيقية التحليلية حيث تناولت دراسة المتشابه اللفظي في قصة آدم وقصة إبراهيم وقصة إسماعيل وقصة عيسى عليهم السلام، موضحة أثر السياق في توجيه معنى المتشابه اللفظي في كل قصة، وتختلف هذه الدراسة عن دراستي أنها شملت قصص أنبياء غير موسى عليه السلام، وغلب على الجانب التحليلي في دراستها التفسير اللغوي، كما لم تذكر التنجيم في دراستها.

6_ رسالة ماجستير بعنوان: (دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام – دراسة نظرية تطبيقية)، إعداد: فهد بن شتوي الشتوي، في كلية الدعوة بجامعة أم القرى عام 1426 هـ – 2005 م، وهي تتكون من قسمين: قسم نظري يبحث في مفهوم السياق وأنواعه ودوره في توجيه المتشابه اللفظي، وقسم تطبيقي يدرس قصة موسى عليه السلام من منظور السياق والمتشابه، هذه الرسالة تختلف عن دراستي في عدة نواحي: في العناوين والمضامين النظرية، حيث إنه تناول السياق بشكل موسع شمل جوانب الدراسة كاملا، وعندما جاء للدراسة التطبيقية تناولها بشكل مختلف عما تناولتها، فقد كانت دراسته مختصرة غلب عليها الجانب اللغوي، ولم يتطرق لجانب تنجيم القصة القرآنية ولم يشر إلى ذلك أبدًا.

7 _ بعض المقالات المكتوبة في المجلات العامة، والمنثورة على الشبكة العنكبوتية، لكنها في المجمل ليست متخصصة، وتعوزها الدقة والمنهجية العلمية.

5.1 منهج السير في البحث

يقوم منهج البحث على: الاستقراء والجمع والوصف والتأصيل والتحليل، وقد سرت في معالجة الدراسة على نهج يتّسم بالجمع والتحليل والموازنة، مع تتبع أقوال العلماء في قضية التنجيم والتنزيل والقصة.

وأما التأصيل فأقصد به هنا تأصيل معنى كلمة القصة ومدى ملاءمتها للسياق لفظًا ومعنًى مع ما جاءت به في كل موضع من مواضع قصة سيدنا موسى عليه السلام بمعنى: إرجاع كل موضع من مواضع القصة في سورة أو أكثر إلى ما له علاقة حميمة بلفظ القصة؛ فليس كل موضع ذكر فيه اسم سيدنا موسى عليه السلام يجوز أن نطلق عليه قصة؛ لأن إطلاق وصف القصة بمفهومه العام يكون على ما ورد فيه السياق لفظا ومعنى دالان على ما له صلة بالحياة والناس والمجتمع والعقيدة والطبيعة، أي لابد من التفاعل بين وجود اسم سيدنا موسى في القصة وبين طبيعة القصة نفسها من حيث الأشخاص والأماكن والطبيعة والطبائع والدين، وليس مجرد اسم مذكور في الآية يراد منه توضيح شيء أو إتمام معنى؛ لأن القصة عبارة عن أنباء وأخبار عامة يوجد فيها تفاعل بين الشخص (بطل القصة) وبين الموجودين معه من أشخاص على مر الزمان والمكان والعصور والدهور؛ لتكون العظة والعبرة بعد ذلك مأخوذة من أمة بعد أمة وجيل بعد جيل وهكذا، ولن يكون ذلك إلا من خلال التفاعل بين الأشخاص وبين وجود الأماكن والمشاهد والمواقف والأحداث التي مرت بها حياة الجميع إلى تنتهي القصة بموقف معين نفيد منه الغرض والمقصود، ونتعلم منه المواقف، ونأخذ منه العظة والعبرة؛ فإن العبرة من كل شيء – دائما – تكون بالخواتيم.

وأما التحليل: فقد قمت بجمع المواضع كلها إجمالا، ثم قمت بتفصيل كل موضع على حدة، بعنوان فرعي له يتناسب مع مضمون الآيات ومعانيها في القصة.

ثم ذكرت في كل موضع ما يخصه من حيث اسم السورة التي وردت فيها القصة، ومكيتها أو مدنيتها، ورقمها حسب ترتيبها في المصحف الشريف، والمعنى العام للآيات باختصار؛ مع الإشارة إلى قضية

التنجيم موضوع البحث، ففي ذلك خير معين على فهم واستيعاب الدرس البلاغي، وما يندرج تحته من مفاهيم وتراكيب ولوازم وتوابع خاصة بالأغراض والمقاصد الكلية داخل القصة.

ثم ذكرت الغرض من كل موضع في قصة سيدنا موسى ﷺ، وذلك بعد قراءتي للآيات مرات ومرات؛ حتى يتسنى لي أو يبدو لي الغرض بدقة بالاعتماد على فهم الآيات ومعانيها وتراكيبها وصيغها، فضلا عن ربط السياق فيها بين ما تقدم على القصة وما تأخر، ثم ذكر ما يدل بعينه على الغرض من داخل القصة.

ثم تتبعت الصور والمزايا البلاغية التي قمت باستخراجها داخل كل قصة على حسب مقتضيات السياق الحالي والمقامي في التحليل المشفوع بآراء العلماء جملة وتفصيلا.

ثم قمت بعمل مقارنات (جزئية) بين هذه الصور البلاغية، واستخراج الأفكار والمعاني المفهومة منها، والتي لها كبير صلة وكثير علاقة بما قمت به من تحليل في قصة سيدنا ﷺ.

ثم أخيرًا: العمل على قيام موازنات، وتحديد سمات وخصائص بلاغية بين كل موضع من مواضع قصة سيدنا موسى من حيث الذكر والحذف، والإجمال والتفصيل، والمتشابهات، والإطالة والقصر، والمسكوت عنه والمذكور بإيجاز.. وهكذا. والتزمت بخطة بحث وفق ما يلي:

المقدمة:

أسباب اختيار الموضوع.

الهدف من البحث.

أهمية البحث.

الدراسات السابقة.

منهج السير في البحث.

التمهيد وفيه تعريف بمصطلحات البحث.

القصص القرآني.

التنجيم.

السياق.

الدراسة التطبيقية:

الباب الأول: تنجيم قصة موسى عليه السلام في البيان القرآني.

الفصل الأول: السور التي وردت فيها القصة حسب ترتيب المصحف

الفصل الثاني: العِبر المستخلصة من الأغراض البيانية في قصة سيدنا موسى –عليه السلام.

الفصل الثالث: السمات البيانية الخاصة بالأسلوب والصورة.

الباب الثاني: ملامح بارزة وموازنات في قصة سينا موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم.

الفصل الأول: موازنات دلالية متعلقة بالمتشابهات.

الفصل الثاني: موازنات دلالية متعلقة بالذكر والحذف.

الفصل الثالث: ملامح إحصائية ودلالية متعلقة بالإجمال والتفصيل.

الفصل الرابع: موازنات بين الخصائص البلاغية المتعلقة بالمسكوت عنه والمذكور بإيجاز.

الخاتمة، وفيها:

- أهم النتائج التي توصّل إليها البحث.

- أهم التوصيات اللازمة لطلاب العلم.

- ملحق.

- فهرس الموضوعات (محتوى البحث).

التمهيد: التعريف بمصطلحات البحث

1.1 القصص القرآني

1.1.1 القصص: لغة واصطلاحا

قيل: القصّ: تتبّع الأثر شيئاً بعد شيءٍ، والسّين لغة فيه، ومنهم من خصّ في القصّ تتبّع الأثر باللّيل، والصّحيح في أيّ وقتٍ كان، وقال أميّة بن أبي الصّلت:

(قالت لأختٍ له قصّيه عن جنبٍ... وكيف تقفو بلا سهلٍ ولا جدد)

وقصّ عليه الخبر قصًّا وقصصًا: أعلمه به، وأخبره، ومنه: قصّ الرّؤيا، يقال: قصصت الرؤيا أقصّها قصًّا، وقوله ﷻ: (فارتدّا على آثارهما قصصًا)، أي رجعا من الطّريق الّذي سلكاه! يقصّان الأثر، أي يتتبّعانه، قوله ﷻ: (نحن نقصّ عليك أحسن القصص) أي نبيّن لك أحسن البيان، وقال بعضهم: القصّ: البيان، والقصص الاسم، زاد الجوهريّ: وضع موضع المصدر حتّى صار أغلب عليه، والقاصّ: من يأتي بالقصّة على وجهها، كأنّه يتتبّع معانيها وألفاظها. (1)

نلاحظ أن دلالة (القصة) واسعة وواضحة، تتجلى أكثر ما تتجلى بتتبع الأثر، غير أننا نجد بعضهم قد جعل قيدًا على هذا المدلول الواضح الواسع فيقول: هي الحكاية عن خبر وقع في زمن مضى لا يخلو من عبرة، فيه شيء من التطويل في الأداء. (2)

يُستخدم مصطلح "قصّ" في اللغة العربية للإشارة إلى إعطاء تفسير مختصر وموجز لشيء ما، سواء كانت رؤية، أثر، قصة، أو لتحليل المعاني والألفاظ في قصة ما، ومع ذلك، يجب ملاحظة أن المعاني المحددة

(1) محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الزّبيدي (ت: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٦٥ - ٢٠٠١ م) 99/18.

(2) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن الكريم، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1972) ص41.

للمصطلح قد تختلف قليلًا بناءً على السياق والاستخدام، يمكن أن يُستخدم "قصّ" بأشكال مختلفة في الأدب واللغة العربية، ويمكن فهمه بمعانٍ متعددة ومتنوعة وفقًا للسياق والمجال الذي يُستخدم فيه.

2.1.1 مدلول القصص القرآني

القصص القرآني من الموضوعات التي تناولتها كتب علوم القرآن، إذ لا يخلو كتاب درس علوم القرآن من موضوع القصص مثل: "البرهان في علوم القرآن" للزركشي، و "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، فهو علم مختص بدراسة القصص القرآني وبيان ما فيها من دلالات ومعان ذات مغزى إضافة لدراسة خصائص القصص القرآني وتتبع سياقاتها.

ومن المهم الإشارة إلى أن مصطلح "القصص القرآني" يعني القصة في القرآن الكريم حصرًا، ولا علاقة له بقصص الأنبياء الواردة في الكتب المؤلفة تحت هذا العنوان، مثل:" قصص الأنبياء" للثعلبي، و"قصص الأنبياء" لابن كثير، و"قصص الأنبياء" للكسائي، لأن هذه الكتب من تأليف الناس، أما القصة في القرآن فهي من وحي الله ﷻ. (1)

وللقرآن الكريم وسائل متعددة وأساليب متنوعة في إبلاغ الرسالة، والغاية من هذا التنوع مخاطبة العقول في درجاتها للناس كافّة؛ لإقامة الحجج والبراهين على قدرة الله وعلى مقاصد الشرع، وهذا يطالعنا في كل سطر، بل وفي كل آية من آياته، ومن هذه الأساليب أسلوب القصص، فهي إحدى الركائز التي سيقت للناس لأهداف متنوعة وغايات يتبيّنُها كل متدبّر لآي الذكر الحكيم، القرآن الكريم يحوي في آياته نسبة كبيرة من الأسلوب القصصي، وهذا يؤكد أنها الوسيلة الأعظم للتواصل وتوصيل المعنى.

---

(1) محمد كريم الكواز: القصص القرآني محاضرات جامعية، (بغداد: مطبعة شفيق، ط1، 2014)، ص9.

ومن هذا المنطلق تتعدد تعريفات القصة القرآنية وتتفاوت، وذلك بحسب المزايا التي تختص بها القصة دون غيرها في قالب من الجاذبية وسحر البيان، فليس القصص القرآني إلا القرآن الكريم في صدقه المطلق من حيث الإحاطة كلّيّة بالموضوع، والسموّ في الهدف، والوضوحٌ في الإعجاز، والتعدد في المقصد والغرض، وللقصة تعاريف كثيرة لدى العلماء، منها ما ذكره الرازي بأنها:

"مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة". (1)

قصر الرازي القصص القرآني على الهداية والإرشاد للوصول إلى الفوز.

ومن هذه التعريفات ما ذكره العدوي: "هو كل خبر موجود بين دفتي المصحف، أخبر به الله ﷻ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بقصد العبرة والهداية، سواء كان بين الرسل، وأقوامهم، أم بين الأمم السابقة أفرادًا وجماعات"(2) بحسب العدوي، فإن القصة القرآنية هي أي خبر يرويه الله ﷻ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في المصحف، بهدف التعظيم والإرشاد، سواءٌ كان عن حالات الأنبياء وأممهم، أو عن أحوال الأمم الماضية من أفراد وجماعات، يذكر محمد محمود حجازي: "إنّ الاشتقاق اللغوي للقصة يفيد أنها كشفت عن آثار مضت، وتنقيب عن أحداث نسيها الناس، أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك، هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها، ولفتهم إليها لتكون العبرة والعظة".(3)

حصر حجازي القصة مضمونا بأنها ما جرى من أحداث ماضية للعبرة والموعظة.

---

(1) فخر الدين الرازي (ت606هـ): مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3 – 1420 هـ)، 250/8.

(2) محمد خير محمود العدوي، معالم القصة في القرآن الكريم: دراسة تحليلية للقصة القرآنية، (عمان: دار العدوي، 1988م)، ص11.

(3) محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط1، 1970م)، ص289.

ويعرفها ابن عاشور بقوله: "الخبر عن حادثة غائبة عن المخبَر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصًا، مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم". (1)

ذكر ابن عاشور أن القصة في القرآن ليست مجرد سرد للأحداث الماضية، بل هي تذكير وتعليم وتبيان للحقائق والحكم والعبر، وقد استخدم القرآن أسلوب الإيجاز والبديع في سوق القصص، وأخذ من كل قصة ما يناسب المقام والغرض، وقد أشار ابن عاشور إلى بعض المميزات والفوائد التي تتضمنها قصص القرآن، مثل تحديه لأهل الكتاب، وتعجيزه لهم، وتوجيهه للمسلمين، وتثبيته لإيمانهم، وتنبيهه لهم إلى سنن الله في الكون والتاريخ. امتن الله على رسوله ﷺ بقوله: "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين" فعلمنا من قوله: (أحسن) أن القصص القرآنية لم تسق مساق الإحماض وتجديد النشاط، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر؛ لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الأخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص". (2)

نفهم من كلام ابن عاشور ــرحمه الله ــأن القصص القرآني نشيط متجدد، لا يبلى بالزمان ولا المكان، دائم العطاء، عطاؤه غير منقطع ولا مجذوذ، ولا يقف عند حد معين، حمّال وجوه إلى يوم الدّين، وكذلك مذاقه أي بيانه دائم الطعم ومستمر العطاء، لا يترك ولا يشبع منه، ومعنى الإحماض هنا أن القصص القرآني لم يأت لأجل الإفاضة في الأحاديث المستملحة والفكاهات المستعذبة ولا لمجرد الحكايات، وإنما عبرة وعظة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديدًا لمن كفروا به بمصير من سبقهم.

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع ،1984هـ)، 64/1.

(2) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص14.

فالقصص في القرآن ليست مجرد رواية للماضي أو إثارة للفضول، بل هي تعليم وتذكير وتبصير وتهنئة للمؤمنين، فالقصة القرآنية تحمل في طياتها حكمًا وعبرًا ودروسًا، وتستخدم أسلوبًا موجزًا وجميلًا، وتختار من كل قصة ما يلائم الهدف والمناسبة، فهي تختلف كثيرًا عن تلك القصص الخيالية التي تنشأ من الأفكار والأوهام، والتي لا تسعى إلا إلى التسلية والمرح.

3.1.1 علاقة القصص بالقرآن كإعجاز بلاغي بياني

كثير من السور القرآنية موجود فيها قصص وأنباء من تقدّم وتأخّر من الأمم، ثم فيها قصص بعض أنبياء الله ﷻ ورسله – عليهم السلام –، ودائمًا نجد للقصة أهدافًا جليّة وخفيّة تحتاج إلى إدراك وتدبر وفقه؛ حتى نستطيع شرح القصّة في السورة على الوجه الذي يرام من خلال المعاني والمقاصد التي نفهمها من السياق القصصي، والمعنى في حدّ ذاته إعجازٌ فضلًا عن اللفظ، ومن ثمّ جاءت القصّة في القرآن دليلَ إعجاز وبلاغةَ بيان؛ لأن فيها تنوعًا وترتيبًا جاء وفق المشاهد والأحداث والمواقف والأشخاص، مما يجعل الإعجاز فيها متكاملَ البنيان مترابطَ الموضوع متماسكَ النظم، لذا نرى في كثير من الشعر الجاهلي القصصَ التي تحمل في ثناياها الفخر بالأمم، والفخر بالقبيلة وفخر الذات، ثم المدح ومنه المدح بالشجاعة، المدح بالكرم، المدح بالأصل والحسب والنسب والشرف..، وهذا كله تاريخ أمة كان الشاعر الواحد منهم يستطيع تسجيله وبلورته داخل النصّ الواحد أو النصين أو الثلاثة عن طريق الحكي والقصّ والسّرد، ثم تراه يثير وينشر الأحداث والمواقف والمشاهد والأشخاص داخل نصّه، هذا كثير في الشعر العربي الجاهلي؛ لذا جاء القرآن الكريم متحدّيًا هؤلاء العرب أنفسهم، والذين نزل القرآن بلغتهم في اللغة نفسها واللهجة نفسها والقصّة أيضًا، تحداهم القرآن الكريم في كل هذا، وكأنه يقول لهم: حتى قِصصُكم وأخباركم لن تستطيعوا أن تسردوها وتبيّنوها كما بيّنها القرآن، وهذا إعجاز وقف في وجوههم ليصدّهم حتى عن مجرّد التفكير في أن يأتوا بمثله فعجزوا؛ وهذا دالّ على أن القرآن له صيغه وتراكيبه وألفاظه ومعانيه ومقاصده الخاصة الفريدة

التي انفرد بها وحده حتى في أسلوبه للقصّ، يقول الدكتور محمود توفيق سعد: "وهذا معناه أن ما يجرى على القرآن الكريم من إعجاز وبيان يجرى على هذه المعاني في تنوعها وترتيبها وتكاملها في القصة القرآنية".(1)

"ويحتلّ القصص حيزًا كبيرًا من القرآن الكريم، وتمتزج موضوعاته بموضوعات القرآن امتزاجًا معجبًا لا يمكن معه الفصل بين هذه الموضوعات وتلك، لأن القرآن الكريم كله- بما فيه القصص – يمثل كلًّا واحدًا في موضوعاته وأسلوبه ومقاصده". (2)

وبذلك نجد أن للقصة القرآنية في عرضها موضوعاتها إعجازًا فنيًّا يثير العواطف والانفعالات والوجدان ويحرّك النفوس البشرية نحو التحري والدقة في أعلى بيان وهو بيان الله ﷻ، وصولًا إلى الحقّ والحقيقة التي يريد كل مؤمن أن يبلغ منتهاها ويصل إلى كنهها، "خاصّة وأن إعجاز القرآن ذو وجوه كثيرة، وأن الأزمنة المتتابعة تكشف جديدًا من هذه الوجوه، مما يتيح لأهل كل فن وعلم – في مختلف الأزمنة والأمكنة – أن يجدوا ما يبهرُهم في هذا القرآن". (3)

4.1.1 تنوع القصص القرآني وعلاقته بالسّور إجمالًا وتفصيلًا

تتنوع القصة في القرآن الكريم، وتختلف باختلاف السّور ومواقعها وترتيبها زمانًا ومكانًا؛ فالزمان والمكان هما المحرّكان للقصّة؛ لأن القصة عبارة عن أحداث ومشاهد ومواقف تابعة لخبر كل أمة من الأمم، وكل نبي ورسول من الأنبياء والرسل -عليهم السلام – وبالطبع الزمن هنا يختلف عن ذاك، ومن ثمّ تتغير الأحداث والمواقف عبر تسلسلها التاريخي العجيب من مكانٍ إلى آخر ومن شخص إلى شخص، فالعناصر

---

(1) محمود توفيق سعد: العزف على أنوار الذكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، (القاهرة: شبين الكوم، ط1، 1424هـ)، صـ39، بتصّرف.

(2) محمد عبد الله دبور: أسس بناء القصة من القرآن الكريم دراسة أدبية ونقدية، (جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالمنوفية، قسم الأدب والنقد، رسالة دكتوراة مطبوعة 1417هـ/1996م)، صـ24.

(3) محمد عبد الله دبور: أسس بناء القصة من القرآن الكريم دراسة أدبية ونقدية، صـ 284.

متلونة ومصنفة حسب سياق كل سورة وموضوعها وموضعها ومقاصدها، وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن المعنى الكلي والغرض الرئيس من القصّة هو أخذ الأحكام والمواعظ، وانتصار الحق وزهق الباطل، كل ذلك تأخذنا فيه أحداث القصّة في نهج التسلسل المعنوي الصاعد للسور كما في قصة سيدنا موسى – عليه السلام – في ثلاث سور متوالية استفتحت استفتاحًا أطلق عليه اسم (الطواسيم)، نجدُ أن أحداث القصة في سورة الشعراء فيها نصر الحق وزهق الباطل، وإظهار البطش والنعمة لمن خالف أمر الله – عزّ وجلّ –؛ فالجو الغالب عليها جوُّ الإنذار والعقاب لمن كذّب... وقد جعل من لوازم معاقد الكلام والمعاني الكلية في السورة قوله – سبحانه: (إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين (8) وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم (9)) [الشعراء:8-9].

وقد تكرر فيها ذلك ثماني مرّات عقب كل مقصد:

عقب قصة موسى – عليه السلام – (الآيات 10 – 66) وعقب قصة إبراهيم – عليه السلام – (الآيات 123 – 139) وعقب قصة صالح – عليه السلام (الآيات 141 – 158) .... ثم جاء التعقيب بقصة مكذبي قريش ومناصريهم وموقفهم من القرآن الكريم، وقد تكرر اسمه (العزيز) في هذه السورة على نحو لم يتكرر في غيرها؛ فقد جاء مقرونًا باسمه (الرحيم) تسع مرات [الشعراء/الآيات: 9، 68، 104، 122، 140، 159، 175، 191، 217].

وفي اسمه (العزيز) تناغ مع الإنذار والتهديد للمعاندين، وفيه تأنيس للنبي _ صلى الله عليه وسلم _ مثلما في قوله: (ربك) وقوله: (الرحيم). (1)

(1) محمد توفيق سعد: العزف على أنوار الذكر، ص40

وفي سورة النمل إظهار وصف العلم والحكمة؛ فقد ركزت السورة على علم الله المطلق بالظاهر والباطن وعلمه بالغيب خاصته وآياته الكونية التي يكشفها للناس، والعلم الذي وهبه لداود _عليه السلام _ ولسليمان _عليه السلام _ منطق الطير، وتنويهه بهذا التعليم، ومن ثمّ يجيء في خاتمة السورة:

(وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربّك بغافلٍ عمّا تعملون (93)) [النمل: 93].

وهكذا تبرز صفة العلم في جوّ السور تظلّلها بشتى الظلال في سياقها كلّه من المطلع إلى الختام.(1)

أما في سورة القصص فكان السياق لبيان أن الغلبة للقوي الأعظم، وأنه لا أقوى ممن كان الله ﷻ معه، ولذلك بدأ ببيان ذلك في حياة سيدنا موسى _عليه السلام _من بدايتها إلى نهايتها، وانتصاره على أقوى الطواغيت ومثلهم الأعلى. (2)

إذن: تختلف كل قصّة باختلاف سياقات السّورة جملة وتفصيلًا تبعًا للمواقف وتسلسل الأحداث وتاريخها _ الزماني والحيوي _ وتنوّع المقامات من تأنيس وتسليّة، وتهديد ووعد وعيد، ووعظ، وقوّة، وعون ومدد... إلخ. ولا ريب أن كل ذلك يمتلئ القرآن الكريم به؛ إقناعًا للناس والبشريّة بأن كل ما جاء به أنبياء الله ورسله _عليهم السلام _صدق ويقين وحقّ، وفي الوقت نفسه نرى في القصص نوعًا من ابتلاء الأمم واختبارها، فليس _بلا شك _كل الناس مؤيدًا، وليس كلهم معارضًا، بدليل أن منهم المصدق ومنهم المكذب، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح، ومنهم المصلح ومنهم المفسد، ومنهم الطيب ومنهم الخبيث، قال ﷻ:

(عفا الله عنك لم أذنت لهم حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا وتعلم الكاذبين (43)) [التوبة: 43]،

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، ط32، 2003م)، 2625/5.

(2) محمد توفيق سعد: العزف على أنوار الذكر، ص41.

وقال:(ليميز الله الخبيث من الطّيّب ويجعل الخبيث بعضه على بعضٍ فيركمه جميعًا فيجعله في جهنّم أولئك هم الخاسرون (37)) [الأنفال:37]، (ألم يروا أنّا جعلنا اللّيل ليسكنوا فيه والنّهار مبصرًا إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون (86)) [النمل: 86] وقال:(إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين (8)) [الشعراء: 8].

وهكذا نجد مع كل قصّة في سورة ما يتناغى ويتوخى بينهما معنى وموضوعًا ومقصدًا، وكأن في القصّة نداء وتكليفًا من المنادي يلتزم به المنادى ويأنس؛ لما في ذلك من معايير أخلاقية وعقدية تنبه وتنوّه وتشير إلى الوعي التام بما في كل قصة؛ ففيها تناسق عجيب، وترتيب سليم، واصطفاء حكيم، "ما يفرض على المتدبر للقصة أن يعي موقع كل سورة من سور القرآن الكريم في سياق المعنى الكلي للقرآن". [1]

أما من ناحية تكرار القصة في السورة الواحدة؛ فقد يكون ذلك لخصوصية أو زيادة اعتناء بالحدث، أو ربما يكون ذلك راجعًا إلى اختلاف كل حدث وكل مشهد مرتبط بزمن معيّن، مع أن أبطال القصة وأشخاصها وعناصرها واحدة لم تتغيّر، وإنما الذي يتغيّر هو الموقف أو الحدث تبعًا لظروف وأجواء محيطة تتغير من حين إلى آخر حسب السياق والمقام الذي تدور لأجله القصّة من أولها إلى آخرها، لكن في النهاية ترى الرابط لعناصر القصة وأحداثها خيطا ونسيجًا واحدًا، "وقد يكون هذا الاعتلاق بين الحدثين واحدًا، وظاهرًا، وقد يكون خفيًّا، مما يجعل إدراك موقع القصص على مدرجة المعنى الكلّي للقرآن الكريم إدراكًا ضعيفًا، ولكن التدبر والتدقيق يذكي طاقات الاستبصار الروحي لمعاقد المعنى في السورة مع ما قبلها وما بعدها من السور على جادة المعنى القرآني".[2]

---

(1) محمد توفيق سعد: العزف على أنوار الذكر، ص45.

(2) محمد توفيق سعد: العزف على أنوار الذكر، ص45.

وهذا معناه أن النظر والتأمل إلى أكثر من قصّة واحدة في سورة واحدة أو سورتين مختلفتين راجع إلى معاقد المعاني والمقاصد الكلية للسورة قبلًا وبعدًا، وارتباط جوّ السورة بالسورة، مما يزيد المتأمل استبصارًا وتدقيقًا؛ وصولًا إلى الغاية والهدف من السياق القصصي في كل موضع من المواضع.

وفي ذلك دليل على أن القصة في القرآن الكريم تمتاز بالوحدة في المقصد ومضمون السورة؛ فالقصة مرتبطة بالسورة ارتباطًا لا ينقطع؛ لأن الفصل بين القصة وموقعها من السورة وعلاقتها بالسورة نفسها أمر لا يستقيم معه المعنى، فضلًا عن الخلل والاختلاف الذي يحدث في الوصول للغرض، فيكون هناك غموض ولبس وقلق في نفس القارئ.

5.1.1 الدافع والغرض من القصّة القرآنية

من خلال ما سبق أستطيع حصر الدوافع التي أدّت إلى وجود القصة في القرآن الكريم، وإن كانت في الحقيقة لا حصر لها، لكن هدانا العقل البشري إلى المعرفة والاهتداء إلى بعضها _كما يظهر لنا _ والله ﷻ أعلم بأسرار كتابه:

أولاً: بيان قدرة الله ﷻ وإظهار وحدانيته.

ثانيًا: تأكيد وتثبيت الدعوة إلى الله ﷻ وثبات الخلق على الحقّ والصراط المستقيم.

ثالثًا: معرفة أخبار الأمم، وما حلّ بها حتى يستقيم حالنا ولا نجادل إلّا بالحكمة والموعظة الحسنة.

رابعًا: التسلية والتأنيس لرسل الله وأنبيائه _عليهم السلام _ وإلزام الحجة، وإقامة البراهين على أممهم.

خامسًا: تهديد المعاندين وتخويفهم ووعيدهم.

سادسًا: التشويق والإثارة والاهتمام بالأخبار والتعرّف على أحوال السابقين، للتعلّم منهم، والاقتداء بهم والتمسك بأخلاقهم وأدبهم، وكيف كانت بلاغتهم في الوصول إلى الهدف، كقصة الغلامين اليتيمين في سورة الكهف، من خلال جوّ قصصي حواري دار بين سيدنا موسى عليه السلام والخضر (الرجل الصالح)؛ لنتعلم الدرس ونفيد من هذه القصّة المباركة الشاخصة في (إقامة الجدار نوع من أنواع حفظ الثروة المنتظرة لليتيم رحمة بعباده الصالحين). [1]

سابعًا: يحث القرآن الكريم على التصرف بحكمة في المواقف والظروف الصعبة، وذلك بطريقة تظهر حب الآخرين والتحكم في النفس عن طريق التخلص من الأنانية وحب الذات، يجب ألا نتصرف بشكل فردي في تلبية احتياجاتنا دون مراعاة مصالح الآخرين قبل مصلحتنا الشخصية، هذه هي إحدى الخصال الحميدة التي يدعو إليها القرآن الكريم، وهناك العديد من القصص في القرآن الكريم التي تبرز هذه المعاني، مثل قوله جل جلاله في قصة سيدنا موسى عليه السلام: (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمّةً من النّاس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتّى يصدر الرّعاء وأبونا شيخٌ كبيرٌ) [القصص: 23].

ثامنًا: كذلك من هذه الدوافع والأسباب –كما يبدو لنا – صّحة الوحي الذي أوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال جل جلاله: (نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحقّ لقومٍ يؤمنون) [القصص: 3]؛ لأنها قصص تحمل في جنباتها أخبار الماضين من الأمم مثل الإخبار عن أنبياء بني إسرائيل كموسى

---

(1) هاني عبد الفتاح محمد: من بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن اليتامى في السور المكيّة، (مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، مجلة علمية حولية محكمة، العدد (32)، مج2، 1440هـ/2019م)، صـ1117.

وداود وسليمان – عليهم السلام –، "وهذا واقع يؤكد أن محمدًا ﷺ لم يكن كاتبًا ولا قارئًا ولم يجلس إلى معلم، فكيف أتى بهذا القصص الذي يحمل أخبار الماضين؟! لابد أنه الوحي...". [1]

---

(1) هاني عبد الفتاح محمد: من بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن اليتامى في السور المكيّة: ص25.

2.1 المبحث الثاني: التنجيم

1.2.1 التنجيم لغة واصطلاحًا

التنجيم في اللغة: التفصيل، وهو ضد الإجمال، وقيل: الظهور والإبانة واللمعان والهداية، (وعلاماتٍ وبالنّجم هم يهتدون) [النحل: 16].

وللنجم أوقات معينة يظهر فيها، والنجم من النبات كلّ ما ظهر وتفرّق على وجه الأرض، ويقال لكل ما طلع وانتشر قد نجم، والنجم من الشجر ما نبت على الأرض، وله فروع وجذور منثورة، وقد جاء في التفسير أن النجم: نزول القرآن نجمًا بعد نجم، وكان تنزل منه الآية والآيتان في زمن معين ومكان معين، وقيل: أراد بذلك القرآن الكريم المنجّم المنّزل قدرًا فقدرًا. (1)

وفي الاصطلاح: هو نزول القرآن على قلب النبي ﷺ مفرّقًا مجزّءًا حسب الوقائع والأحداث، والعرب تقول للمفرّق منجّمًا، ومعنى نزوله مفرّقًا أي لم ينزل دفعة واحدة. (2)

قال ﷻ: (وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلًا) [الفرقان: 32]، أي كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم الله بقوله: (كذلك) أي أنزلناه كذلك مفرّقًا (لنثبت به فؤادك) أي لنقوي به قلبك؛ حيث إن الوحي إذا كان يتجددّ في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه. (3)

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى – دون تاريخ (مادة: نجم)، الراغب الأصفهاني: (المفردات)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية، ط أولى، 1412هـ)، صـ 792.

(2) الألوسي: روح المعاني، تحقيق: على عبدالباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط أولى، 1415هـ)، 152/14 بتصّرف.

(3) محمد عمر حوبه، نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلّق به، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط أولى200م)، صـ28.

2.2.1 آراء العلماء في قضية التنجيم والتنزيل

ذكر بعض العلماء أن التنجيم "يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرّقًا مرة بعد أخرى، وهذا غير الإنزال في وصف القرآن؛ فالإنزال عام، فما ذكر فيه التنزيل أو التنجيم قوله ﷻ: (نزل به الروح الأمين) [الشعراء: 193]، وغير ذلك من الآيات....". (1)

ــ وفي لفظ التنجيم وجوه

أولاً: أن التضعيف في قوله ﷻ :(نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقًا لما بين يديه وأنزل التّوراة والإنجيل) [آل عمران: 3]، يفيد نقل الفعل من اللازم إلى المتعدي وليس للتكثير.

ثانيًا: أن التضعيف يفيد نزول القرآن مرتين: مرة جملة واحدة، ومرّة متفرقًا، ومن ثم فلا تعارض بين قوله ﷻ: (فلا أقسم بمواقع النجوم) [الواقعة: 75]، وقوله: (وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلًا) [الفرقان: 32]، والخلاف بينهما فقط في الدلالة؛ إذ لا يعرف أن كتابًا نزل على رسول دفعة واحدة، والكتاب هنا القرآن المنزل على محمد ﷺ وهذا معناه أن النزول دال على التنجيم. (2)

وأما المراد بـ "مواقع النجوم" فنجوم القرآن، وقد ذكر المفسرون أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل على النبي ﷺ آية آية، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة أو ثلاث وعشرون سنة.

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص799.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 148/3 بتصرّف.

وهذا دالّ على أن في التنجيم إعجازًا له خصوصيته ومكانته السّامقة، فقد نسبت كلمة التنجيم إلى النجم عند أهل اللغة لعلوّ القرآن وشرف مكانته ونبيل مقاصده وعذب بيانه، وكيف لا؟ وقد نزل من بين نجوم وسماء عالية، سائغ مطرها عذب ماؤها لكل من ينهل منه دون أن يشبع؛ ففيها البركة وفيها القدر، وفيها السموّ والجلال والهيبة، فكذلك القرآن فيه تدبر وهيبة وجمال وجلال، والمطر في تتابعه ينزل من السماء قطرات، والقرآن نزل من السماء على قلب النبي ﷺ على فترات، ومن الأدلّة على ذلك، قوله – سبحانه -:(وقرآنًا فرقناه لتقرأه على النّاس على مكثٍ ونزّلناه تنزيلًا) [الإسراء: 106].

ثالثًا: إن من أدلة عدم الفرق بين اللفظتين وأنهما بمعنى واحد؛ القراءة بالوجهين في كثير مما جاء كذلك، يقول أبو حيان: "ويدل على أنهما بمعنى واحد قراءة من قرأ ما كان من "ينزّل" مشدداً؛ بالتخفيف – إلا ما استثني – فلو كان أحدهما يدل على التنجيم والآخر على النزول دفعة واحدة لتناقض الإخبار وهو محال"[1] وهذا يعني أن: ينزل أو ينزّل بالتشديد أو التخفيف في كثير من المواضع كلاهما واحد في المعنى، وكلاهما دال على التنزيل الذي يعني التنجيم، وأنه لو اختلف معناهما لدل ذلك على التناقض في الإخبار أي الشيء المنزل، وهذا محال في حق القرآن الكريم، إلا ما استثني من ذلك في بعض الدلالات حسب السياق، أي إنه لا فرق بين اللفظتين:(التنزيل، والتنجيم) في كون القرآن نزل منجما، هذا رأي أبي حيان.

ويؤيد ذلك قراءة قوله ﷻ: "وقرآنًا فرقناه" بالتشديد (فرّقناه)، وبالتخفيف (فرقناه)، فلا خلاف حينئذٍ.

---

(1) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، 1420 هـ)، 378/2.

ومن ثمّ يتضح لنا أن "للقرآن الكريم تنزّلين: نزول جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السماء الدنيا في ليلة القدر المباركة من شهر رمضان الكريم، ونزول تنجيم على الرسول ﷺ في نحو ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث من بعثته إلى وفاته _صلى الله عليه وسلم_". [1]

3.2.1 الحكمة من نزول القرآن منجّمًا

أجمل الإمام الزرقاني – رحمه الله – الحكمة والهدف من التنجيم قائلًا: "إن تعدّد النزول، وأماكنه، مرة في اللوح وأخرى في بيت العزّة، وثالثة على قلب النبي ﷺ فيه مبالغة في نفي الشكّ عن القرآن الكريم، وزيادة للإيمان، وباعث على الثقة فيه؛ لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وصحت له وجودات كثيرة كان ذلك أنفى للريب عنه، وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به مما لو سجل في سجل واحد أو كان له وجود واحد". [2]

بينما ذكر علماء آخرون حكمًا وأهدافًا جليّة، ومقاصد نبيلة، وغايات جليلة من وراء هذا التنجيم ومنها:

_ تثبيت فؤاد النبي ﷺ وجبر خاطره وقلبه، قال – سبحانه -: (وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلًا) [الفرقان: 32].

وذلك لما لاقاه النبي ﷺ من قومه من أذى وشتم وقلوب قاسية، فأراد الله ﷻ أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ فترة؛ ليثبت فؤاده على الحق، وذلك أدعى إلى قوّة العزيمة والمضي في الخير. [3]

---

(1) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه ط 1، 1376هـ/1957)، 288/1.

(2) محمد عبد العظيم الزّرقاني (ت: 1367هـ): مناهل العرفان في علوم القرآن، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 3، دون تاريخ)، 46/1-47.

(3) محمد عمر حوبه: نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلّق به، ص39 وما بعدها.

ــ وجود القصص القرآني في الكتاب العزيز، ومن المعلوم أن هذه القصص جاءت متفرقة ومنجمة في القرآن الكريم من سورة إلى سورة ومن موضع إلى موضع، وكان الهدف من ذلك هو نصر أنبياء الله ورسله – عليهم السلام – وتأييدهم بالمعجزات، وهذا أدعى لأن ينزل القرآن منجمًا بما في ذلك القصص؛ فإن أنبياء الله ورسله قد لاقوا ألوانًا وصنوفًا من العذاب فصبروا حتى جاءهم نصر الله، وله ترتيبه وله حدثه، (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل ولا تستعجل لهم كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعةً من نهارٍ بلاغٌ فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون) [الأحقاف: 35].

فقد سجل القرآن الكريم لكل نبي قصته مع قومه، قال ــسبحانهــ: (ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين) [الأنعام: 34]. إذن: نزل القرآن تسلية للنبي ﷺ ودعمًا عما لاقاه من قومه، وكذلك نزل القرآن بأخبار الأمم السابقة وأحوالها، وكذلك تنوعت آيات القرآن من جنّة ونار ورحمة وعذاب وقلق واستقرار، ونصر، وثواب وعقاب، فناسب كل موضع وكل قصة مع ما فيها من شدّة ولين، وجزاء وعقاب الحال والمآل والزمن والمكان والأشخاص والأحداث والمواقف؛ فجاءت كل قصة في سياقها الخاصّ بها وبمقامها في السورة والترتيب والنزول والموقع بالبراهين والحجج الواردة في كل قصّة كالآيات الواردة في إثبات وحدانية الله ﷻ وإظهار قدرته في كل وقت وفي كل زمان وفي كل مكان، فأبدى كل ذلك غاية الثبات واليقين بنزول القرآن منجّمًا، وكان في ذلك التنجيم تسلية للنبي ﷺ تسلية تعقبها تسلية؛ حتى لا يجد الحزن إلى نفسه ﷺ سبيلًا، فكان في التنجيم اختلاف في أحوال الناس أنفسهم من بعثته ﷺ إلى قرب وفاته؛ فكان ينزل القرآن أحيانًا ابتداء بغير سبب؛ لأنه وحي وقانون إلهي فلم يحتج لسبب، وهو أكثر القرآن الكريم، وأحيانًا أخرى ينزل مرتبطًا

بالأحداث والوقائع والأسباب؛ لما أخرجه النسائي: "فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئًا أوحاه، أو أن يحدث منه شيئًا أحدثه".[1]

ـــ التحدّي والإعجاز: حيث تمادى المشركون في ظلمهم وعدوانهم وعنادهم؛ فكانوا يتحدّون النبي ﷺ في نبوته ويسألونه، فكانت تأتي الإجابة وحيًا من الله ﷻ مناسبًا لحال ومقام كل سائل وزمانه ومكانه ومقصده، وبالطبع أخرس هذا التنجيم لسانهم وجعلهم في حيرة وقلق من أمرهم، الأمر الذي دفعهم إلى التحدّي فعجزوا، بخلاف لو نزل القرآن دفعة واحدة لطُولبوا في هذا التحدّي أن يأتوا بمثله كله، لكن قمة الإعجاز كانت أن يأتي كتاب الله منجّمًا ومفرّقًا، بحيث لا يستطيعون ولو مجرد تفكير أن يأتوا بحرف من مثله؛ لذا كان هذا التنجيم أدعى لإعجاز القرآن وتعجيز المشركين، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء في بعض الروايات من حديث ابن عباس عن نزول القرآن: "فكان المشركون إذا أحدثوا شيئًا أحدث الله لهم جوابًا".[2]

ـــ التدرج في تربية الأمّة وبث الأخلاق الحسنة فيهم، والبعد عن كل ما لا يليق بها دينيًّا وعلميًّا واجتماعيًّا... إلخ، قال سبحانه: (وقرآنًا فرقناه لتقرأه على النّاس على مكثٍ ونزّلناه تنزيلًا). [الإسراء: 106].

ـــ تثبيت قلوب المؤمنين على الصبر والتحمل بذكر قصص الأنبياء قصة تعقبها قصة، وهكذا لتكون العاقبة للمتقين، مع اختلاف كل قصة بالتي قبلها وبعدها حتى الختام؛ ليكون قول الله: (ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين (3)) [العنكبوت: 3].

---

(1) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت ٣٠٣هـ): فضائل القرآن، تحقيق: فاروق حمادة (بيروت: الدار البيضاء، دار إحياء العلوم/دار الثقافة، 1992)، ص69.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة أولى، 1394هـ/1974م)، 147/1 وما بعدها.

ـ تيسير وتسهيل حفظ القرآن الكريم وفهمه وفقهه ومدارسته على النبي -صلى الله عليه وسلمـ خاصة وأن القرآن الكريم نزل على أمّة أميّة لا تعرف القراءة ولا الكتابة؛ لذا كانت صدور الصحابة هي الوعاء لحفظ هذا القرآن معتمدين على ذاكرتهم العقلية التي كانت محلًّا لتلك الآيات وحفظها، قال سبحانه: (هو الّذي بعث في الأمّيّين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ) [الجمعة: 2].

وهذا معناه أن القرآن الكريم لو نزل جملة واحدة على هذه الأمّة لما كان هناك وقت للتدوين أو الحفظ.

3.1 المبحث الثالث: السياق

4.1 السياق لغة واصطلاحًا

أصل لفظة "سياق": اللفظة مشتقة من ساق أو سواق، وتعني حدو الشيء أو ما استيق من الدواب. (1)

وفي المعجم الوسيط: سياقُ الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه. (2)

تعريف السياق: السياق هو المحيط اللغوي والمعرفي والثقافي الذي يظهر فيه اللفظ ويتأثر به.

السياق القرآني: هو مجموعة من القرائن والمعالم التي تساعد على فهم مراد الله ﷻ من الآيات الكريمة. فالسياق هو كل ما يكتنف اللفظ الذي نريد فهمه من دوال أخرى، سواء كانت لفظية كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاما واحدا مترابطا، أو حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع، السياق القرآني يمكن أن يكون داخليا أو خارجيا. السياق الداخلي هو ما يتعلق بالترتيب والتناسب والهيئة التركيبية للآيات والسور، والسياق الخارجي هو ما يتعلق بالمناسبة والسبب والمقام والمخاطب والموضوع والهدف والمقصود من الآيات، السياق القرآني له أثر بارز في ترجيح المحتملات، وبيان المجملات، وفي عود الضمير والقراءات، وفي تنقيح التفسير من الدخيل والإسرائيليات،

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي القزويني (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الفكر،1979)، 117/3.

(2) نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، (القاهرة: مجمع اللغة العربية في القاهرة، ط2، 1972م)، 156/1

ودفع ما يتوهم أنه تعارض بين الآيات، لقد اهتم مفسرو القرآن بالسياق منذ وقت مبكر، واستفادوا منه في تفسير النصوص بطريقة صحيحة وسليمة.

الفصل الأول: تنجيم قصة موسى –عليه السلام– في البيان القرآني

مدخل

يمثل هذا المدخل أهمية كبرى؛ لكي يظهر مدى ارتباط السورة القرآنية بموضع وموضوع القصة فيها؛ لأن من الثابت علميا أن القصة تتعدد أغراضها تبعًا للغرض الأصلي الذي من أجله كانت السورة، ومما لا ريب فيه أن السورة القرآنية تتعدد أهدافها وموضوعاتها؛ نظرًا لما تحويه سور القرآن الكريم من قصص الأنبياء وأمور أخرى تتعلّق بالغيب والدِّين والشريعة، وقد يكون كل هذا في سورة واحدة، والفيصل هو السياق المحدِّد لحال ومقام كل قصة وكل آية، بل كل كلمة وكل جملة وكل حرف؛ فسبحان الذي هذا كتابه.

والأصل في السورة القرآنية أن تكون ذات مقصد واحدٍ وغرضٍ واحدٍ، تتنوع تحته أغراض ومفاهيمُ أخرى تكون توابعَ ولوازمَ وتراكيب؛ وفاءً بهذا الغرض الأصلي وحُجّة له ودليلًا، يقول البقاعي (ت:885هـ) – رحمه الله – في حديثه عن سورة البقرة:" وإن شئت قلت: مقصود هذه السورة وصفُ الكتاب فقط، وما عدا ذلك فتوابع ولوازم". (1)

وانتقال السورة نفسها من غرضٍ إلى غرضٍ، ومن سورة إلى سورة، ومن قصة إلى قصة فيها ما يوحى بالإعجاز والتحدّي، وإلا لما كان لهذا التسوير القرآني فائدة، وقد ذكر العلماء للتسوير فوائد منها:

ـ أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف كان أحسن، وأنبل، وأفخم من أن يكون بيانًا واحدًا.

(1) إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ) 78/1.

_ تنشيط السامع، والبعث على الدرس والتحصيل.

_ أن الحافظ إذا حَذقَ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله – تعالى – طائفة مستقلة بنفسها، لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه، ويجل ما في نفسه ويغتبط به. (1)

كما أن للقصة فوائد في تعدد الأغراض الخاصّة بالسورة؛ لأنه من الممكن أن يُسْتخلص الغرض الأسمى للسورة من هذه القصة المذكورة باعتبار أنها جزء من كل، وأن هذا الجزء خصص بالمعنى أو الغرض الذي شملته السورة: فكان ذلك لمزيد اختصاص وعناية بهذا الجزء القصصي.

والقصة في السورة بمثابة الشجرة النضيرة الموفقة المورقة المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدرر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها... ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد. (2)

وهذا يعني أن السورة بمثابة الإنسان، له روح واحدة وأعضاء متعددة، فالغرض الواحد هو روحها، والأغراض المتعددة أفكار تندرج تحتها، لكنها في الوقت نفسه تعمل على الوصول للغرض الرئيسي كلُحمة واحدة وشجرة واحدة ذات أغصان مختلفة، لكنها في النهاية يجمعها خيط واحد يربط بينهما، وسلك منظوم يعقد بين بلاغتها وبين المفهوم الكلّي أو الصورة الكلية؛ لأن كل هدف وكل موضوع ذُكر في السورة –

(1) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط. ثالثة، 1407هـ/1986م)، 97/1، 98.

(2) ينظر: البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (الرياض: مكتبة المعارف، ط1، 1408هـ/1987م) 149/1 – 152 بتصرّف.

سواء كان قصة أو غيرها – مناسبٌ كلَّ المناسبة للغرض الذي سيقت من أجله السورة كما أنه "لم تتكرر القصة الواحدة في سورة واحدة أبدًا".(1)

وهذا يعني أنه من الممكن أن يذكر القرآن الكريم القصة الواحدة في أكثر من سورة، وهذا دليل قاطع على بلاغة النظم القرآني وإعجازه، وورود القصة المتكررة في أكثر من موضع في سور مختلفة دليل على أن لكل قصة أسلوبًا يتمايز عن الآخر، ومن المعلوم أن النكات البلاغية تتزاحم في موضع واحدٍ وفي قصة واحدة، بل في كلمة واحدة وجملة واحدة؛ فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة؛ فكل قصة لها سياق معين، وموقف معين، وحدث معين، وقد ذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور سرًّا من أسرار ذكر القرآن بلغ أعلى قمة في البلاغة؛ "فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ، فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز واستعارات أو كناية، وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل: "ولئن رددت"، "ولئن رجعت" وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان ذلك من الحدود القصوى في البلاغة، فذلك وجه من الإعجاز". (2)

كما أن ذكر القصص القرآني في أكثر من سورة ألبسها زيادة ونقصانًا، وتقديمًا وتأخيرًا؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها فيكون شيئًا معادًا، "فنَزّهَه عن ذلك بهذه التغيرات؛ وذلك أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون ما نزل بعد صدور

---

(1) محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط1، 1970) ص52، 53.

(2) الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م) 68/1.

من تقدم، فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم آخرين، وكذا سائر القصص، فأراد الله اشتراك الجميع فيها؛ فيكون فيه إفادة لقوم، وزيادة تأكيد لآخرين". (1)

وللاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس؛ فإن التكرار من طريق التأكيد وأمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون؛ لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل. (2)

و"كررت القصة الواحدة في القرآن في أكثر من سورة؛ لتوكيد ما تفيده من المعاني والأهداف في نفوس السامعين؛ فالتكرار من أقوى وسائل الاقناع وتركيز الفكرة والعقيدة في النفس البشرية ". (3)

ويقول عبد الغني الراجحي: " المفارقات اللفظية التي جاء عليها مكرر القصص عندما نبحث عن أسرارها وأسبابها يتجلى لنا بوضوح رعاية المقامات في الكلام القرآني ومناسبته لمقتضى الحال". (4)

إذًا: تنوع القصة دليل على الإعجاز اللفظي والدلالي، والحكم بينهما هو السياق الذي إذا تأملناه وبدقة وجدنا أنفسنا أمام أسلوب معجز فريد، ونسق عجيب، وترتيب حكيم، وصورة شافية كافية وافية مكتملة الأركان والبناء.

هذا ونجد أسرارًا – أيضًا – لذكر القرآن بعض القصص في السورة الواحدة؛ وذلك لوجود القصة دفعة واحدة مشتملة على التنوع والتفنن في القول، وفي هذا ما فيه من تسفيه العرب المعاندين، وإلقامهم الحجر، وإثبات عجزهم؛ لأن العبرة كلها سيقت في الأصل الذي لم يكرر كأصحاب الفيل، وأصحاب

---

(1) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3، 1421هـ/2000م) صـ308.

(2) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، صـ 319.

(3) عبد الغني عوض الراجحي، النهج القويم في دراسة علوم القرآن، (القاهرة: طبعة البابي الحلبي، بدون تاريخ) صـ19 بتصرف.

(4) عبد الغني عوض الراجحي، النهج القويم في دراسة علوم القرآن، ص21.

الأخدود، وأهل الكهف، وذي القرنين، وأصحاب القرية، فمثل ذلك قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص من لم تثبت ثبوتهم. (1)

أو أن عدم التكرار منوط بخصوصيةٍ لا تخلو من حكمة وسرّ، مثل قصة يوسف – عليه السلام – ؛ فنزلت جملة واحدة لم تتكرر؛ لما فيها من الإغضاء والستر عن أمور أخلاقية سلوكية وانتفت الدواعي على نقلها وتكرارها، وكأنها تخرج عن سمت القصص.

وتعليل آخر قاله بعض العلماء وهو أن أغلب قصة يوسف – عليه السلام – وقع قبل النبوة، وأكثرها مواقف مادية بحتة فيها تعداد ألوان ومواقف. (2)

بلاغة تنجيم قصة سيدنا موسى في القرآن الكريم

من المعلوم أن التنجيم مسلك سلكه البيان القرآني لأسرار بلاغية عميقة تستوجب بحثًا طويلًا في محاولة استكشاف مبادئه وبوادره لاستلهام بشائره المستوحاة من واقع طريقة القرآن في تنجيم هذه القصة الكبرى، لأن التنجيم أشبه بالقطع التي تتآلف ثم تُسبَك في سبيكةِ المقام المقالي، بالإضافة إلى مستوى تسوير القرآن في نظم (السورة القرآنية)، فثمة توجهات تفرض نفسها على الباحث الذي يبغي أن ينظر لهذا التنجيم القصصي، أ فيكون حسب ترتيب النزول، أو حسب ترتيب السور، أو حسب نظم الأحداث التي ورد ذكرها في القصة؟ بمقتضى العقل بأن يقدم السبب وتؤخر النتيجة، وماذا إذا كان السبب الواحد متعدد القطع والنجوم الكثيرة، الأمر الذي دفعني أن أتناول نجوم هذه القصة على مدار القرآن كله من خلال ترتيب السور، انطلاقا من أن في السورة مقام قائم بنفسه، مرتبط بسوابق ولواحق من شأنها هي أن

---

(1) القطان، مباحث في علوم القرآن، صـ317 بتصرف.

(2) السيد فاروق محمد عبد الرحمن، القصص القرآني ودفع ما أثير حوله من شبهات، (المنوفية: حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد 33، 1435هـ/2014م) صـ 60 وما بعد، بتصرف.

تقدم للباحث شارات على الطريق لعلها تبرز معلما يهدي إلى عالم أسرار تنجيم القصة، وإنما قلت هذا لأبين أن الوصول والحصول هنا على عالم هذه الأسرار لم يكن بالشيء المعد ولا الجاهز يأخذه كل طامح، أو يناله كل طامع، بل لم يكن لأحد أن ينال منه أدنى شيء إلا بإرشاد من الله ونعمة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فخطة البحث هي استعراض مواضع هذه النجوم القصصية داخل كل سورة أولا، ثم دراسة بيانية على مستوى ترتيب السور عامة حسب الترتيب المصحفي المعهود ليرى الناظر أن سبب الأسرار إنما هو ترتيب النجوم داخل السورة الواحدة ثم داخل جميع القرآن.

1.1 المبحث الأول: السور التي وردت فيها القصة حسب ترتيب المصحف

أولًا: سـورة البـقرة، وفيها ثلاثة مواضع

1_ موسى عليه السلام يرشد الذين عبدوا العجل إلى التوبة:

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة:٥٤].

هذا اللقاء لا شكّ أن من القَطْعِ في القول به: إنه جزء من أحداث (العجل)، ومن الواضح أنه يأتي في سياق ندم قوم موسى الذين اتخذوا العجل إلاهًا من دون الله بعد أن استيقظ لديهم وازع التوبة، ولقد كان من الخير أن يذهبوا إلى نبيهم ليخلّصهم من هذا الذنب الأكبر، فأرشدهم إلى التوبة من هذا الظلم العظيم، وأيقظ لديهم منازع فضل ربهم، وبين لهم أنه لا سبيل لهم إلا التوبة النصوح، فلا خير لهم في حياتهم بعد العجل إلا برحمة الله ومغفرته ولو كلفتهم التوبة الموت في سبيل الله لأن الشهادة في سبيله هي المخلّص لهم فبها يغفر الذنب، وبها يرضى الرب، لأنها ذروة سنام دينهم، فيتوبوا بعمل صالح هو أحب

الأعمال إلى الله؛ فيكون الجزاء أن يتجاوزَ الله عن أسوأ ما صنعوا بأحسن ما عملوا. وقوله: {سيناهم} يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد، وسيحدث في المستقبل، ومستقبل الدنيا هو الآخرة، [1]

والسر البلاغي هنا أن سورة البقرة تُعلّمُ أمة محمد _صلى الله عليه وسلم _ تحصنَ الأمة من أن تقع في ذنب عبادة غير الله كالعجل مثلا، فترشدهم قبل الوقوع إلى فتح باب الخروج من الذنب، حتى لا يقنطوا من رحمة الله، لأن هذا القنوط هو أشد من كل ذنب، وهذا المعنى يتجلى في نحو قول الله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى. كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى. وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) [طه:80-82]، وهذا قبل أن يتحدث عن العجل والسامري بعد ذلك كما أن سورة البقرة ترشد الأمة إلى أنهم إن وقعوا في الذنب فيجب عليهم ألا يغفلوا عن مكانة نبيّهم الذي أنعم الله عليهم به، فجعل نفسه في أمرهم مستغفرًا لهم، فلا يذهبوا إلى غيره، كما يشير قول الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) [النساء:64]، وبناء عليه فهذا الموضع الأول إرشاد من نبيهم إلى التوبة؛ وبدأ الله بذكره قبل الحديث عن ذنب عبادة العجل، لأنه يمثل أعظم هداية للأمة التي تتلقى القرآن، لإبراز منّة الله عليهم بمكان نبيّهم وموقعه الديني فيهم، ومن ثم جاء هذا الموضع منجّمًا مقتطعًا منَ القصة الكبرى وهي موسى وقومه، ومجتزءا من القصة الصغرى وهي (عبادة العجل)، وقدمه ليجلي حقيقة وأهمية الاهتداء لمكان نبيهم الذي يخلصهم من ذنبهم في الدنيا كما الشأن في الحساب في الآخرة، كما تشير الآية: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [يونس:47]، و(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 3/ 367.

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) [النحل:89]. فالبيان القرآني هنا قطع نجما من نجوم القصة الكبرى، ونجما من نجوم القصة الصغرى، في أول سور القرآن بعد فاتحته وجلّى هذا النجم لسر بياني عظيم الأثر هو مكانة نبي الأمة فيهم حال ذنبهم، وهذا ملجأ فنيٌّ بديع التأثير في المتلقي؛ منه يتعلم الناس أصولَ القصّ الهادي للخير، حيث اصطفاه البيان القرآني، وأعده ليكون أول ما يلاقيه المتلقي، نظرًا لأهميته القصوى في هداية الأمم، فيكون نبراسًا لهم، وتحصينا، وإبرازا لعظيم نعم الله على عباده أن أرشدهم إلى الخلاص من الذنب قبل أن يقعوا فيه، وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هي الأمة الوحيدة التي أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة.(1)

2_ استسقاء موسى عليه السلام لقومه:

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)). [البقرة:٦٠ - ٦١].

هذا الموضع بيانٌ مقدّم للمتلقي يبرز وجهًا جديدًا لمكانة النبي في قومه لحلّ المعضلات الكبرى التي تواجههم في حياتهم الدينية، وهذا الوجه _مع أهميته_ إلا أنه أقلّ في الرتبة من الموضع الأول، فالأول مخلص من أكبر ذنب، والثاني مخلص لأزمة اقتصادية عابرة، وهو موضع ورد في مكانه ينقل صورة من ازدهار عيش

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 252/4.

بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون وقومه، وبعد خلاصهم من ذنب (العجل)، ثم إن هذا الموضع الثاني توطئة لوقوعهم في ذل من نوع جديد هو ذلة فتنة الدنيا، مما تسب لهم في غضب الله ووقوعهم في ذنب الكفر وقتل الأنبياء وصنوف العدوان وهلاكهم النهائي؛ إذ ماذا يبقى لهم بعد قتلهم أنبياءَهم الذين يخلصونهم من مهاوي الضلال ومرابض الخسران في الدنيا قبل الآخرة، فهم بقتلهم أنبياءهم قد حرموا أنفسهم من موقع النبي في قومه، وقد أحدثوا هذا تكرارًا، فلم يبق لهم إلا الضياع من تاريخ الأمم، وأن يكونوا عبرة لمن يتلقى القرآن من بعدهم، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ للحق وللواقع.(1)

وهذا الموضع منجم من القصة الكبرى نذيرًا للأمم التي من بعدهم، ومع أنه مشهدٌ يمثل خاتمة القصة الكبرى إلا أن البيان القرآني قد جاء به وقدمه ليحتل الموضع الثاني في سورة البقرة، ليكون لوحة مرشدة، أو حلقة منذرة من خطر هلاك الأمم، ولعل هذا هو سر التنجيم الذي جعل المتلقي يعيش مع القصة القرآنية الواحدة مشاعر مقتطعةً من الكل ليؤثر في المتلقي تأثيرًا ينطق بمعانٍ صامتة، فما أجملها من مرشد!، وما أعذبها من معلم!، وهذان الموضعان وحدهما كافيان لأن أقرّر أن التنجيم إبداع قصصي فريد في استعراض القصة الواحدة، لأن البيان القرآني صار لا هم له إلا نفسية المتلقي يسقيها من رحيق القصة ما هي إليه أحوج دون أن يؤخر ما حقه التقديم، أو يقدم ما حقه التأخير، وهذا يدفعني للقول: بأن التنجيم القصصي وجه من وجوه الإعجاز البياني في كتاب الله –عز وجل–.

3- قصَّة ذبح البقرة:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ

(1) الشعراوي ، تفسير الشعراوي، 686/3

ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)) [البقرة:٦٧ - ٧٣].

هذا الموضع منجم من قصة الصغرى هي (العجل) تدل على استجابة الذين عبدوا العجل للتوبة التي ألزمهم الله بها، وأصلح من بعدها شأنهم، وأقامهم من جديد ليكونوا أمة عاقلة تقوم بحق الله في أرضه. وهذا الموضع الثالث كان حقه أن يكون الثالث، مع أنه متعلق بموضوع الموضع الأول إلا أنه أقل منه في الأهمية، ولذلك تأخر، وتقدم عليه الموضع الثاني لأن الثاني يقع في إطار أكبر، وهو إطار القصة الكبرى، أما الثالث فهو في إطار القصة الصغرى وهي (العجل)، قد أجمل القرآن ذكر القصة لأن موضع التذكير والعبرة منها هو ما حدث في خلالها لا تفصيل الوقائع.(1)

وخلاصة القول: إن سورة البقرة قد عرضت لثلاثة مواضع من قصة موسى، جاء منجمة بعناية شديدة، من حيث الاقتصار عليها لأهميتها في حركة حياة الأمة بدين الله -تعالى- ومنجمة في ترتيبها فيما بينها تنجيما أبرز كل موضع في إطاره العام والخاص، ولا يخفى أن مهمة هذا البحث مقتصرة على المواضع التي تمثل تنجيما في قصة موسى دون أن يخوض في شيء آخر عندما يذكر موسه مع قومه، أو موسى في موكب الأنبياء، أو موسى في الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 547/1.

ثانيًا: سورة المائدة، وفيها موضعٌ واحدٌ

ـــ تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم توطئة لأمرهم بدخول الأرض المقدسة:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)) [سورة المائدة:20-26].

هذا الموضع منجم من القصة الكبرى لسر بياني بليغ هو أن القرآن هنا يطوع هذا التنجيم لسياق الذين يتلقون القرآن، وهم أمة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- لأن الله يُعِدُّ هذه الأمة إعدادًا روحيًّا ويربيهم بالقصص عن الأمم السابقة ليولد فيهم الاتعاظ والاعتبار صيانة لهم أن يقعوا في شيء لا يرضي عنه ربهم، أو يجلب لهم الذلة في حياتهم الدنيا، لأن هذا الدين يبغي إعزاز أنصاره في الدنيا والآخرة، وهذا المعنى من حيث المتّجه السياقي قد أشار إليه بعض المفسرين، فقال الفخر الرازي: "أن جميع ما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل تنبيه للعرب لأن الفضيلة بالنبي قد لحقتهم، وجميع أقاصيص الأنبياء تنبيه وإرشاد. قال الله تعالى: الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه [الزمر:18]، وقال: (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) [الزمر:55]. وقال: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) [يوسف:111].

ثم قال أبو حيان: "مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بين تمرد أسلاف اليهود على موسى، وعصيانَهم إياهم، مع تذكيره إياهم نعم الله وتعداده لما هو العظيم منها، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى، ونعمة الله يراد بها الجنس ". (1)

فَسِرُّ التنجيم هنا إنما هو لمساق القول تربيةً للمتلقي على اليقين بنصر الله وخوض غمار الجهاد في سبيله تطهيرًا لهم من رجس الفرار من مجاهدة الأعداء الذين يصدون عن سبيله ويفسدون في الأرض، وأمة التلقي فيها من نعم الله ما فيها ففيها أن الله معهم، وأن فيهم النبي محمد ﷺ، وفيهم العزة بالحق، وعليهم الجهاد في سبيل الله، حتى قال أبو حيان لبيان هذا: "لأن أمة محمد قد أوتيت من الآيات أكثرَ من ذلك: قد ظلل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغمامة قبل مبعثه، وكلمته الحجارة والبهائم، وأقبلت إليه الشجرة، وحن له الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، وشبع كثير من الناس من قليل الطعام ببركته، وانشق له القمر، وعد العود سيفا، وعاد الحجر المعترض في الخندق رملا مهيلا إلى غير ذلك من آياته العظمى ومعجزاته الكبرى. وهذه المقالة من موسى لبني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله هي توطئة لنفوسهم، وتقدم إليهم بما يلقي من أمر قتال الجبارين ليقوى جأشهم، وليعلموا أن من أنْعَمَ الله عليه بهذه النعم العظيمة لا يخذله الله، بل يعليه على عدوه ويرفع من شأنه، ويجعل له السلطنة والقهر عليه". (2)

فتنجيم هذا المقطع من قصة موسى عليه السلام، تنبيهٌ وإرشاد للمتلقي، وهذا بعْد عظيم الأثر في التذكير بالقصص القرآني الذي يُقتطع من قصة موسى الكبرى ما به يعلم المتلقي، فيقيس حالًا بحال، وهذا هو المنحى العام لورود القصص القرآني عامة، إذ هو ليس رواية أخبار ماضية فحسب، إنما هو دراية ووعي واتعاظ للحاضر المخاطب بما ثبت لمثله من الماضي الحقيق، ومن ثم فقد حسن ما قاله ابن عاشور: "ومناسبة

---

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص214-215.
(2) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص216.

موقع هذه الآيات هنا أن القصة مشتملة على تذكير بنعم الله تعالى عليهم وحث على الوفاء بما عاقدوا الله عليه من الطاعة تمهيدا لطلب امتثالهم، وقدم موسى عليه السلام أمره لبني إسرائيل بحرب الكنعانيين بتذكيرهم بنعمة الله عليهم ليهيئ نفوسهم إلى قبول هذا الأمر العظيم عليهم وليوثقهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم، فذكر نعمة الله عليهم،...، وقوله: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة هو الغرض من الخطاب، فهو كالمقصد بعد المقدمة، ولذلك كرر اللفظ الذي ابتدأ به مقالته وهو النداء بـ يا قوم لزيادة استحضار أذهانهم، والأمر بالدخول أمر بالسعي في أسبابه، أي تهيؤوا للدخول". [1]

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/ ص161-162.

ثالثًا: سـورة الأعـراف، وفيها ستة مواضع

1- موسى عليه السلام مع فرعون وملَئِهِ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)﴾ [الأعراف:١٠٣-١١٦].

إن سر تنجيم هذا المقطع يقف من ورائِهِ كون هذه السورة مكية مناسبة لحال أمة التلقي لهذا الكتاب العزيز، وقد ذكر أبو حيان أنها مكية كلها، قاله ابن عباس وجماعة. [1] ومن ثم فإن البيان القرآني يرشد الأمة المخاطبة إلى أن التمكين لهذا الدين الحق يقتضي صبرا ويقينا بأنه أمر يلزمه مجاهدة العدو، والتغلب على حيله المكارة التي تستميل العوام وتستحوذ على آلة الفكر التي توجههم لنصرة الحق أو الباطل، وها هو موسى يجابه عتاة الكفر والصد في موقعة السحر لاستنقاذ هؤلاء العوام الذين وقعوا في شباك فرعون تحت ضغوط مؤسسات الإضلال المسيطر على حياتهم في شتى النواحي، ويأتي اليقين بأن الله ناصر الحق

---

(1) البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 128/2.

في كل موقعة، ومبيد جيوش الغواية، وقاهر كتائِب استرقاق الناس بالسحر والإرهاب، وهذا هو المعترك الذي يواجهه الحق اليوم مع أمة التلقي، فكان هذا التنجيم هو الدواء الناجع لها، ليبرز خطورة الميدان، ويجلي معية الله العزيز العليم لحملة الحق المبين.

وقد حرص هذا المقطع على إبراز عزة موسى أمام فرعون وجيوش السحر، فجاء بفعل الأمر عندما قال لهم (ألقوا)، وهذا دال على أن الأمر (فيه من معاني الترهيب والوعيد والتهديد على الرغبة المطلوبة؛ حتى تتهيأ القلوب إلى ما يحدث من إثارة وجدل يكون أقطع للمعذرة وأبلغ في بيان الحجة؛ وليكون بهذا الأمر أنكر عليهم فعلهم وصنيعهم، وهذا أدعي للتثاقل على النفْس في فصل الشيء وكأنه أصبح فريضته عليه من المتكلم؛ تقييدًا لضعف شخصه واستخفافًا لما عليه). [1] فكان الأمر (ألقوا) دلالة على التهكم على بهم والاستخفاف بعقولهم، وبذلك يكون هذا الأسلوب الإنشائي قد أظهر قوّة سيدنا موسى؛ لتكون له الغلبة والقدرة عليهم بإذن الله؛ وليكون الإنذار أبلغ في الحجة، ويكون ضعفهم أقوى معذرة في قبول العاقبة والجزاء، وليكون الجزاء من جنس ما عملوا؛ فقد مارسوا كفرهم وعملهم بالسحر على بني جلدتهم ومَنْ هم على شاكلتهم، (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116))، وكانت هذه العاقبة "لحكمة إلهية تزيد المعجزة ظهورًا، ولأن في تقديمه إياهم إبلاغًا في إقامة الحجة عليهم، ولعل الله ألقى في نفسه ذلك". [2] ثم إن الأفعال الماضية: (ألقَوْا)، (سحروا)، (استرهبوهم)، (جاءوا)، جاءت جميعها لإثبات صنيعهم ويقين أفعالهم ودناءتهم في القول، فقد وضعوا أنفسهم موضع المهانة والذلة والصغار، قال -سبحانه-: (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119)) [الأعراف:١١٨-١١٩]. والفعلان (غُلبوا)، و(انقلبوا)، ناطقان بأن الحق منتصر، وأن تحقيق الحق واقع

(1) ينظر: محمود توفيق سعد، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، (القاهرة: شبين الكوم، ط1، 1422هـ)، 123، 124 بتصرف.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 48/9.

بلا ريْب، يقول د. محمد أبو موسى: "ليس من شكّ في أن صيغة الماضي ألقت على الأحداث طابع الحكاية المرويّة، وكأن كل ذلك قد وقع وأنت الآن تسمع تلك القصة التي تملأ قلبك إشفاقًا وخشية، هذا الأسلوب لا يدعك تفكر في إمكان وقوع الأحداث كما يكون الحال لو جاء بصيغة المضارع، وإنما يدعك تفكر في الأحداث والمواقف نفسها لتتأمّل ما فيها من رغبة أو رهبة، فمسألة الوقوع وعدمه ألغاها الفعل الماضي حين صيّرها واقعًا يُروَى". (1)

ومن ثم كان سر تنجيم هذا المقطع هادفًا لإرشاد أمة التلقي حتى في مفرداته وكلماته، معالجًا للموقعة الأولى كاشفًا قوة العدو الفكرية القائمة على الإغواء والإضلال، وكان سلاح النصر هو مقاتلة السحر بالحق، وتنبيه الناس إلى ضعف الباطل وهشاشته، وأن قوته إنما هي غفلة الناس عن التدبر والتحقق، فقام موسى بهذا البيان العملي موقنًا بأن الله معه يسمع ويرى، ومن مقتضيات هذا أنه يرشد وينصر الحق، فكان قوله -تعالى- (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)، دليلا على توجيه الله لموسى -عليه السلام- واستجابته لربه، فكان النصر والغلبة للحق على الباطل.

2- تمالؤ فرعون وملئه، ونصيحة موسى لقومه:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا

(1) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط4، 1996م)، ص268.

قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)) [الأعراف:١٢٧–١٢٩].

ويمكن أن نلمحَ سرَّ تنجيم هذه القطعة القصصية ببيان أن السياق المرشد لأمة التلقي يوضح أن ثمة بقاءً مؤقتًا لمملكة فرعون الطاغية بعد أن خسرت موقعة السحر، ولا تزال تلك القوة قائمةً لقوة ملأ فرعون الذين يحرضونه لاستصدار فرمانات سياسية كبرى كخطة طريق مستقبلية بعد هزيمة السحر، وفسروا بقاء موسى على أنه إفساد في الأرض لا يسكت عليه، فما كان من فرعون الذي يريد أن يثبت للملأ أنه قد جهز خطة معدة مفادها بقاء قاهرية فرعون لموسى وقومه بتقتيل الأبناء الذين هم شباب أمة بني إسرائيل وعماد قوتها، وإبقاء نسائهم في مذلة الأسر، ومن ثم لا يبقى لموسى قوة بعد.

فهذا هو المنتظر من عدو الحق أنه يستجمع قواه ويستعيد سلطانه الذي تصدع بغلبة موسى للسحر، وعلى أمة التلقي الصبر والمصابرة في كل معركة ضد العدو حتى يتم النصر، فكأن الأمة التي قد تمر بحال أمة موسى وتتعرض لمثل ما تعرضت له يجب أن تأخذ الدرس والعبرة، فالحرب ليست لقاء واحدا، ومن ثم فما كان من موسى أمام هذه الخطة الفرعونية الجديدة إلا أن يثبت قومه على الحق لا ضعف ولا خنوع، بل إنه فتح لهم آفاق النصر التام على فرعون وقومه، بل وقيادة بني إسرائيل للأرض بشريعة الله، أي سينتقلون من المملوكية تحت فرعون إلى المالكية التي ترث الأرض ويكونوا هم أئمة الهدى، لأن طريق الحرية في دين الله الثبات على الحق، والإعداد للنصر، أي أنه دين الصبر ودين النصر، وما كان القصص القرآني إلا لبيان هاتين القضيتين، ومن هنا تتعلم أمة التلقي، ومما تجدر الإشارة إليه أن الله سبحانه يوضح أن

مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى،[1] وعلى هذا كان مدار التنجيم القصصي لقصة موسى ولكل قصة، وهنا تجلى أيقونة القصة: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

3- انتكاسة بني إسرائيل وسؤالهم إلهًا صنما غير الله:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فضلكم عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)) [الأعراف:١٣٨-١٤١].

وسر التنجيم لهذا المقطع يمثل صيانة الأمة التي تتلقى هذا القرآن من لدن حكيم حميد، يصونها من الانزلاق في مهاوي الجاهلية المادية التي يتفشى فيها العكوف على الأصنام الحجرية أو البشرية أو الوهمية الظنية، وقد تعايش صاحب الظلال مع هذا المقطع المنجم قائلا: "وإننا لنلمح في كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصِهم على الأعقاب؛ فلقد جربهم من قبل في مواطن كثيرة في خط سير الرحلة الطويل.. جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذي فرق لهم البحر، وأغرق لهم فرعون وجنده. فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيقولون (يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلها كَما لَهُمْ آلِهَةٌ).. وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه حتى يتخذ السامري من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلا ذهبا له خوار ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته! وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما سائغا، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر- أرض الذل بالنسبة لهم- فيطلبون بقلها وقثاءها

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 456/11.

وفومها وعدسها وبصلها، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام وحياة في سبيل العزة والخلاص، والهدف الأسمى، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون". (1)

ويتجلى هنا سر التنجيم حقا لتحصين أمة الحق من حيث "إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية، وطبيعة بني إسرائيل- كما عرضها القرآن الكريم عرضا صادقا دقيقا أمينا في شتى المناسبات- طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس.. ذلك إلى غلظ في الكبد، وتصلب عن الحق، وقساوة في الحس والشعور! وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاما منذ أن جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد- فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاما منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازا ببني إسرائيل البحر- بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين! وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلوهم- حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم: (أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ؟).. ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم: رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه.. آلهة، ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة...، ويغضب موسى عليه السلام غضبة رسول رب العالمين، لرب العالمين- يغضب لربه- سبحانه- ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه، فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب: (قالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)". (2)

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج2، ص869.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، 1366/3.

فمن أجل هذه المضامين قد اصطفى البيان القرآني هذا المقطع منبها على عاقبة النكوص، والتعجيب من العجلة في التردي إلى هاوية الغباء العقدي الذي هو مفتاح كل شر، وسبيل كل خسران، وبنحو هذه المعاني قال بعض الباحثين: "ولما انقضى ما أراهم –سبحانه– من الأفعال الهائلة التي ستخلصهم بها من ذلك الجبار، شرع يذكر ما قابلوه من الجهل به –سبحانه– وما قابلهم به من الحلم، ثم ما أحل بهم بعد طول المدّة والمهلة من ضرب الذلّة والمسخ بصورة القردة، فقال عاطفًا على قوله: (فأغرقناهم في اليّم) أو قوله: (بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى) وقوله:(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...) الآيات"[1]. فالغرض من القصة –فيما أفهم– أن المقصد من القصة هو: إثبات جحود بني إسرائيل نِعَمَ الله – تعالى– وجهلهم بعدما امتنَّ الله عليهم من الآيات والمعجزات وهذا ظاهر من خلال عدة عناصر وتراكيب وردت في القصة، ومن ثم فسياق قصة بني إسرائيل، بعد الخلاص من عدّوهم فيه بيان إسراعهم صيرورة الكفر ونقضهم للعهود. [2] وذكر الرازي أن السياق في هذه لآية معناه: أنه –تعالى– هو الذي أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غير الله؟ [3]

4- مناجاة موسى ربه، وسؤاله الرؤية:

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَى

(1) محمد عبد الحميد الجبالي، التفسير الموضوعي لسورة الأعراف، (البحيرة: مكتبة الإيمان، 2013م، ط3)، ص302.
(2) البقاعي، نظم الدر، 70/8 بتصرف.
(3) الرازي، تفسير الرازي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 3، 1420هـ)، 351/14.

إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)) [الأعراف:١٤٢-١٤٥].

هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج، قد يبدو في ظاهر هذا المقطع غرابة من حيث إنه يقص عن موسى الكليم حدثا منجما خاصا به، فمن أين تتعلم أمة التلقي من هذا الخصوص الذي اختص الله به هذا النبي الكليم، وقد تقرر لدى البحث أن مساق التنجيم للقصة كلها إنما هو لتعليم أمة التلقي والتأسي والاقتداء الحسن في مسار دعوة الله، لكن يتوقع استدعاء تفاصيل هذا السياق، فيمكن أن يزيل هذه الغرابة، بل ويؤسس لبيان سر عظيم لهذا التنجيم، وذلك من حيث إن هذا المقطع إنما جاء لبيان صدق وعد الله في شأن توبة واستغفار موسى ربه عن ذنب (العجل)، فقص الله تفاصيل هذه المواعدة التي تبرز الترقب على مدار أربعين ليلة منتظرين توبة الله عليهم، وهذه قيمة إيمانية راسخة في هذا السياق كما قال الله ﷻ بعد قليل من الآيات: (وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأعراف:153]، فهذا مستهدف قرآني عظيم التأثر في الأمة المتلقاة.

ومن الأسرار البيانية التي تلوح في آفاق هذا النص القصصي غيرة موسى -عليه السلام- على الحق، وإخلاصه في تخليص قومه من ذنب (العجل)، حتى كان من ثمار هذه المواعدة المباركة أن موسى لما جاء للميقات قد آتاه الله التوراة وفصل له فيها ولقومه كل ما يحتاجونه من هدى وموعظة، وهنا يتجلى سر التنجيم بإبراز أدوات إصلاح الأمة باصطفاء (رسول)، و(كتاب)، فهما عدة الإصلاح الاجتماعي، وهذا من أهم ما تتعلمه أمة التلقي، ومن ثم فقد فتح الله على موسى وقومه خيرات وبركات وبشارات، وضمن الله لهم بقاء الخير بشكر نعم الله عليهم، فكان هذا رضوانا من الله عليهم فجدد لهم الحياة بدينه

ووعدهم بكل خير ورغد ونماء، و نلاحظ أنه عندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة. . والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار.(1)

5- واتخاذ القوم عجلا من دون الله:

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)) [الأعراف: ١٥٠-١٥١].

وهذا تنجيم جديد يطوي في آفاقه سرا جديدا من الأسرار التربوية لأمة التلقي، فهذا موقف دعوي شديد الوقع قوي التأثير يعلم الغيرة الحقة على هداية الأمة وصيانتها من لوثات الضلال بعد الهدى، ويقيها من أوضار سوء المعتقد الذي يخدرها لتقع في براثن الشر، ويوردها موارد الهلاك والخسران. كما أنه موقف يبرز قيمة أئمة الدعوة ويكشف عن حرصهم على استقامة الأمة، ومجاهدة عوامل السقوط في الشرك والكفر والعصيان.

فها هو موسى يرجع إلى قومه بعد أن استخلف عليهم قيادة روحية شريكة له في حمل الرسالة الربانية وزيره الذي من الله به عليه، فوجد قومه قد ضلوا بعبادتهم العجل، واختطف السامري ولي الشيطان فكرهم فأفسد عليهم دين الله، فلم يقعد موسى عن واجبه تجاه هذا الحدث الخطير، فجاء في هذا المقطع

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 332/1.

تفاصيل عجيبة مشرفة لهذا النبي الأمين، ولأخيه هارون –عليهما السلام– ما يجعلهما موضع التأسي الحسن لنبي التلقي وأمته –عليه السلام–.[1]

والذي يركز عليه البحث هنا في هذا التنجيم هو أن هذا المشهد الذي أبدع البيان القرآني في تصوير معانيه وأبرزها قريبة قوية التأثير في المتلقي، ويتجلى فيه سر الصدق في موقف موسى الحافل بروافد شدة الغيرة على الحق الذي ضاع في قومه، حتى وجد نفسه لائما أخاه لوما شديدا، إلى أن تبين معذرته فاستغفر له ولأخيه البريء من ذنب (العجل)، والذي قام بواجب النصح لقومه في وقت النصيحة.

6- موسى عليه السلام يستغفر ربه لقومه:

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155)) [الأعراف:١٥٥].

هذا المشهد متمم عملي لكون النبي والرسول في حاجة قومه، ولا أشد حاجة لهم من غفران ربهم ذنب (العجل)، لأنه نسف دين الحق من قلوبهم وقوالبهم، فاختار موسى أصلح سبعين من قومه وصلوا صلاة استغفار، وقد تقبلها الله منهم وتاب عليهم وغفر لهم ورضي عنهم.

وإن سر التنجيم هنا يأتي من كون الأمة التي تتلقى هذا القرآن لا تستغني عن علم الاستغفار، وهذا موقف يبرز أحسن طرق الاستغفار، وأرق كلام، وأجمل أدب يتودد به العباد إلى ربه الودود، وما كان يصلح أن يغيب هذا المشهد من القصة، كما أنه ما كان يصلح أن يتقدم عن موضعه، ولا أن يتأخر، فهو اللبنة الأخيرة التي بها تم بنيان التأسي في الخروج من الذنب قبل الموت، وأن التوبة لا تؤجل، بل يسارع إليها

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ 358.

الصادقون، هذه القصة أيضا من مواقع الموعظة والعبرة بين العبر المأخوذة من قصة موسى مع بني إسرائيل، فإن في هذه عبرة بعظمة الله تعالى ورحمته، ودعاء موسى بما فيه جماع الخيرات والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وملاك شريعته.[1]

رابعًا: سـورة يـونـس، وتتناول خمسة مواضع

1- حوار بين موسى وفرعون وملئه:

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78)) [يونس:٧٥-٧٨].

من الأسرار البيانية في تنجيم هذا المقطع أن القاسم المشترك بين عدو موسى وعدو محمد –عليهما السلام– اتهام الحق بأنه سحر، فكفار مكة مثل كفار مصر في هذا كأنهم تواصوا به فيما بينهم، وتتضح وظيفة الأنبياء الأساسية في إنذار الكافرين من عذاب أليم، ويبرز دفاع موسى عن الحق بقوله: (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77))، واسم الإشارة هنا وما يفيده من التمييز والكمال في انغماسهم وانتمائهم للباطل والشرك، وهذا يشي بجهلهم، وأن إنكارهم الوحدانية والعبودية لله ﷻ دالّ على فساد قلوبهم وعقولهم.

فمما لا شك فيه أن هذا النص يضع أمة التلقي أمام واقع مرير صادم للدعاة إلى الحق، وأنهم سيجدونه عندهم في قومهم، وأن هذا يقتضي التحصن بالثبات على الحق، والدفاع عنه، واليقين بالنصر،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 123/9.

وأنه لا غرابة في استماتة أنصار الباطل وإصرارهم عليه، فهم لا يسمحون بأدنى درجات الخروج من باطلهم، وهو مجرد التفاتة واحدة لا تستغرق طرفة عين أو أقل من ذلك، ثم اتهام دعاة الحق بالاستحواذ على (الْكِبْرِيَاء فِي الْأَرْضِ) دون باطلهم العتيد، فهذا الواقع سيجده دعاة الحق في كل بلد وكل عصر، ومن ثم فقد حشد التنجيم ما يستثمر به هذا الواقع المتكرر ليكون منبهة لأمة التلقي، وليتدارسوا حسن التعامل معه، فقد صاروا ذوي خبرة في التعامل معه، فقد اكتسبوا بهذا التنجيم دربة ومهارة تقيهم في طريق الدعوة ويلات الهزيمة النفسية، وتجنبهم الانصراف عن طريق الحق الذي هو في كل وقت غريب مستنكر؛ وفي قوله تعالى: {وكانوا قوما مجرمين} شر الإجرام ما يتعدى إلى النفس، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة له، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين، وفي عذاب عظيم ومهين وبهذا فقد أدى التنجيم رسالته التي من أجلها كان.[1]

2- استدعاء السحرة لمقاومة موسى عليه السلام:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)) [يونس:٧٩-٨٢].

إن من أسرار تنجيم هذا الموضع أنه لا غرابة من استعانة فرعون بالسحرة ضدّ سيدنا موسى عليه السلام؛ حيث طلب فرعون من حاشيته عندما رأى العصا واليد البيضاء، واعتقد -جهلًا- أنها من السحر، وما هي من السحر؛ لأنه لم يفرّق بين المعجزة الإلهية والسحر- أن يأتوا إليه، فلما جاؤوا واجتمعوا، قال لهم

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي،125/10.

موسى – بعد أن خيّروه بين أن يلقي ما عنده أوّلًا، أو يلقوا هم ما عندهم، فقال لهم: ألقوا ما أنتم ما ملقون من ألوان السحر، فلما ألقوْا، قال موسى: ما جئتم به من السحر، وهذا السحر الذي ظهر أمام الناس سيتَموّه وسيمحقه الله ولا يجعله باقيًا؛ لينصر الله ﷻ الحق على الباطل؛ فإن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولو كره المجرمون.[1]

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 287/7.

3- إيمان طائفة مِنْ بني إسرائيل بدعوة موسى عليه السلام:

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)) [يونس:٨٣-٨٧].

وكما هي دائما عوائد البيان القرآني في أسرار التنجيم للقصة الواحدة فقد فرّع منها ما يلبي حاجة الأمة التي تتلقى القرآن وتسترشد هداه- يلوح هنا بقيمة ميدانية في حقل دعوة الحق المبين يبرز قضية إيمان القلة الصادقة التي تؤمن في هذا الجو الرهيب الذي يخوف ويرعب من يؤمن بالحق، فجاء البيان بهذا النسق: (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)، فهذا الأمر من شأنه أن يقوي عزيمة أمة التلقي التي تحمل عبء الدعوة إلى الحق في جو يشبه إلى حد كبير جو القصة موضوع التنجيم للاقتداء، قلة تتحدى الصعاب، رغم الخوف تؤمن بالله مع رسولهم، تتغلب على تخويف فرعون بقوته الغشوم، وتغلب على منافقي قومهم هم الذين يمالئون فرعون ضد موسى ومن معه، صبروا على هذه الفتنة التي تعرضوا لها، حتى إن البيان القرآني هنا قد ذكر ما يدل على قوة فرعون التي لا يستهان بها، وبطشه الفتاك الظلوم المسرف في الفساد في الأرض، لكن هذه القلة على يقين بأن الله أقوى وأشد بأسا وأشد تنكيلا، فآمنت، على الله متوكلين، إليه ملتجئين أن ينجيهم من فرعون، (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ). فتفرع على ذلك أن فرعون وملأه لم يؤمنوا بموسى لأن حصر المؤمنين في ذرية من قوم موسى يفيد أن غيرهم لم يؤمنوا وهو المقصود، فكانت صيغة القصر في

هذا المقام إيجازا،[1] ومن ثم فلقد كان لهذا الملمح عظيم الأثر في أمة التلقي التي اتضح لها هذا المعلم وهذا المسلك الشديد، ليعملوا به مثلما عمل ذرية من بني إسرائِيل، ومن هنا جاء سر التنجيم يشقق عملا لأمة التلقي لتتعلم العلم والعمل معا.

ثم يحوي هذا المقطع قيمة دعوية أخرى في جو (الصبر) ليبشر بجو (النصر)، فصَدّر الكلام بحسٍ أمني رقيق يدل على التكتم، فقال وحيًا وهو مادة لغوية تدل على السرية: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87))، فأذن الله لموسى ولأخيه بالبقاء في مكان بمصر لا يهاجرون، ورخص لهم أن يعيشوا حياة السرية، يصلون في بيوتهم مؤقتا مأمنًا من الخوف، وتيسيرا لهم حتى لا يضطهدهم العدو المنتشر في ربوع مصر ونجوعها وكفورها وسهولها وجبالها، حياة الإيمان المكتوم، لأنهم في عهد الصبر، نفهم منه أن التبؤ هو اتخاذ مكان يعتبر مباءة؛ أي: مرجعا يبوء الإنسان إليه.[2] ويختم هذا المقطع بقيمة كبرى وهي (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87))، أي لن يبقى عصر الصبر إلا قدرا قدره الله، ويأتي من بعده عصر النصر، فأمر الله موسى أن يبشر المؤمنين معه بهلاك العدو، وبالتمكين للحق، والنصر القريب، ولا شك أن لهذه البشرى تأثيرها الكبير في أمة التلقي؛ وفي هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية في التبوء، وجاء بالجمع في جعل البيوت، ثم جاء بالمفرد في نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى عليه السلام هو الأصل في الرسالة إلى بني إسرائيل[3]. ومن ثم فقد راعى التنجيم أن يكون نصيب عهد الصبر لعهد النصر الذي تمر به أمة التلقي في مكة قبل

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 258/11.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1160/10.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1164/10.

الهجرة، فهذا الذي يناسبها، وهذا الذي يوافق المقام، ويمضي فيه السياق، وهذا -فيما أرى- هو سر أسرار التنجيم للقصة القرآنية الواحدة، أنه يشقق منها ما المتلقي في حاجة إليه، ويذكر ما حقه الذكر حسب السياق ومقتضى المقام، وما الإعجاز البياني إلا هذا التنجيم الدقيق.

4- دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه:

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [يونس:٨٨-٨٩].

ويكشف التنجيم هنا عن سر جديد هو دعاء موسى وأخيه على ملك فرعون بالإبادة وزواله، وأشد من خزي الدنيا خسران الآخرة، فيحرمهم الله من نعمة الإيمان بذنوبهم، كما قال في هذه السورة نفسها: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) [يونس:100]، وسبحان الله لقد حرم الله فرعون نفسه أن يؤمن من قبل أن يدركه الغرق، ومن ثم لم ينفعه كلامه بأنه آمن وأسلم، كما قال الله -عز وجل-: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) [الأنعام:158]، وإنما يُفهم من ذلك أن موضع التشديد وطلبه من سيدنا موسى إنما كان لتشديد العقوبة؛ لأحقية فرعون بالكفر واستمراره على غيّه وضلاله، وكأن في هذا الدعاء (اشدُدْ) تبكيتًا لفرعون وعمله، وتفظيعًا لشأنه وتفخيمًا لعاقبته المنتظرة، ووجود الشرط (اشدُدْ) وجوابه: (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)، أن يعاينوا الموت وهم كفار.

كما أنه من موحيات سر التنجيم في قوله ﷻ: (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا)، يقول الإمام البقاعي ــرحمه اللهــ: "ولما كان الموضع محل التوقيع للإجابة افتتحه بحرفه فقال (قد أُجيبت)، والبناء للمفعول أدلّ على القدرة وأوقع في النفس من جهة الدلالة على الفاعل بالاستدلال، ثم ثنى (دعوتكما)؛ للإعلام بأن هارون مع موسى في هذا الدعاء؛ لأنه معه كالشيء الواحد وإن كان غائبًا". (1)

وفي ذلك إشارة إلى تمام قدرة الله ﷻ على الإمهال في تحقيق العذاب الذي فسرّه بعد ذلك قوله: (فاستقيما ولا تتبعان) بمعنى التمهل والثبات وعدم العجلة في إرادة العقوبة لفرعون وقومه.

وإن في التصريح ببيان الدعاء من موسى وأخيه على الكفار متعلق لسر التنجيم من حيث إن الله رضي بدعائهما، بل وقد أجابهما، ومن ثم فقد سن الله للأمة المتلقية كتابه القائمة بدعوة الحق الدعاء على الكفار، أما إذا عدل إمام الأمة –صلى الله عليه وسلم– العدل المستحق إلى الفضل رأفة ورحمة، فهذا بُعد جديد من متلازمات التنجيم، وليس مخالفة في سبيل الدعوة، بل إنه قدّر له ــعليه السلامــ الدعاء على بعض أقوام لوجود دواعي الدعاء عليهم، وانتفاء كل سبب يجوز معه بهم رأفة أو رحمة، وكل هذا تتعلمه الأمة منن نحو قول الله العزيز الرحيم: (نَبِئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ) [الأنعام:49-50].

5- إغراق فرعون وجنوده وإنجاء بني إسرائيل:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 82/6.

(92) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)) [يونس:٩٠-٩٣].

ويتجلى لأمة التلقي بين الناس جميعا سرٌّ عظيمٌ لتنجيم قصة موسى ببيان سوء الخاتمة التي بها ختم الله لفرعون، وقد برز للرسولين الكريمين الذين أجمعا على الدعاء على فرعون وملئه بالهلاك والتدمير والخسران المبين، وتوج الخاتمة بتتويج أمة الحق مبوأ صدق في عاجل الدنيا قبل الآخرة، وأشار المقطع بأن أمة الحق أعطيت حقها وحظها من التمكين ثم يجلي السياق بهذا التنجيم العجيب خطورة الاختلاف، وهم على علم في ذهاب عزة الأمة، وأنه لم يبق بعده إلا القيامة والحساب والجزاء، وهذا درس تعليمي أكيد، تكون الأمة في أشد الحاجة إليه، ومن هنا اتضح أن مساق التنجيم إنما هو للتعليم النظري والعملي لأمة التلقي، وهذا هو فيما تقرر - سر الأسرار، ببيان الوعظ والاعتبار، وقد أحسن القول الطاهر ابن عاشور، إذ جعل المقصود من هذه القصة "موعظة الكفار من العرب بأحوال من سبقهم من الأمم في مشابهة كفرهم بكفرهم وبما حلّ بهم من أنواع العذاب جزاء كفرهم، كما قال ﷻ: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) [القمر:٤٣] [1]، مصداقًا لقوله-تعالى- (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)) [النساء:١٨]، وفي ذلك إشارة إلى غضب الله -تعالى-؛ لدلالة المقام على ذلك، والجملة مقول لقول محذوف، تقديره: قال الله، وهو جواب لقوله: (آمنت)؛ "لأنه قصد بذلك طلب الإنجاء من الغرق؛ اعترافًا لله بالربوبية، فكأنه وجّه إليه كلامًا فأجابه الله بكلام". [2]

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 281/11.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير ، 277/11.

وجملة (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))، فيها توضيح أن الفساد من جملة العصيان، "من المفسدين" موضحة لما قبلها؛ لأن فرعون كان ظالما وطاغيًا وكافرًا ومشركًا وقاتلا وآثمًا، فكان كل ذلك من جملة ما عصى الله -تعالى- به، لذا استحق من الله ما استحقه، ولأجل ذلك جاء التعبير باسم الفاعل "مفسدين"؛ للدوام على الصفة واستحقاقه إياها وثباتها ولزومها.

وقد جعل ابن عاشور مجرى الكلام هنا محمولا على الاستعارة التهكمية (1)، ومعلوم أن الاستعارة التهكمية هي: اللفظ المستعمل في ضد معناه؛ تنزيلا للتضاد منزلة التناسب؛ لقصد التهكم والاستهزاء؛ فالأصل في الإنجاء أن يكون بالبدن والروح؛ لذا جعل الله ﷻ إخراج فرعون من البحر مضادًا لمعنى الإنجاء الحقيقي المعروف، فكأن الخطاب هنا فيه نوع من التقريع، ونوع من تذكير الناس بعده بسوء ما كان يفعل جرّاء جهله وسفهه، مما يدل على الإنجاء بهذه الطريقة (وهو خروجه من البحر بجسده كاملا دون روحه) نوع من العقاب اللاذع لفرعون، والعظة والعبرة لمن خلفه، وعلى ذلك استُعير الإنجاء، بما فيه الجسد والروح معًا، للإهلاك الذي هو ضده على سبيل الاستهزاء والتهكم، وخاصة وأن المقام هنا مقام عقاب وزجر وتخويف وتوبيخ؛ لتكون كل هذه الأوصاف محلّ ردع وتبكيت وعلامة لمن يخلفه ويعقبه، فالذي سوّغ الاستعارة هنا المشابهة، والذي سوّغ التهكم هو الضديّة؛ حيث إن البدن هو الجسم بدون الروح، فكأنها جعلت في الكلام قيدًا؛ للإشارة إلى معنى الاستعارة، ولعلي أفهم ذلك من الفروق اللغوية بين البدن والجسد والجسم؛ فالجسم: هيئة لكل ما له طول وعرض وارتفاع، والجسد: صورة لا روح فيها مثل روح الإنسان، وأما البدن فهو الجسد الذي لا روح له، والله أعلم. ومن الملحوظ هنا استعمال كلمة (اليوم) بعد كلمة (الآن) وكلاهما ظرف زمان. والتعجيل بموت فرعون في هذا المقام، وإظهار المعجزة، وتأييد الله لسيدنا موسى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 278/11.

ﷺ، ونهاية فرعون كلًّا وجزءًا يتساوق مع مقام الآيات وسياقها، وشوق النفس وترقبها زمانًا لمصير فرعون، كل ذلك يشير إلى أن المقصود بـ (اليوم) الآن أيضًا على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته الكلية؛ حيث أطلق الكل وهو اليوم، وأراد الجزء وهو بعضه المفسَّر في الآية بـ (الآن)، ولعل السرّ البلاغي في ذلك التعبير الكلي التأكيد؛ وليكون يومًا مشهودًا ووقتًا معلومًا، فيكون العقاب فيه أشمل وأعمّ من أن يُجزّأ على سبيل المبالغة في العظة والعبرة والتذكرة، ولذلك أعقب الله ﷻ هذه الجملة بقوله: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)) على سبيل التذييل المؤكد لما قبله في المعنى والمضمون؛ ليكون دليلا على قوّة الانتقام والأخذ من فرعون وملئه من ناحية، وإنذارًا للمشركين، وتذكيرًا للجميع بالموعظة المجسَّدة في كلمة (آية) من ناحية أخرى، وفي ذلك تمام المناسبة بين الذنب والعقاب في القصّة، وهذه النهاية هي التي بيّنت الموعظة والعبرة من القصة؛ فلكلّ بداية نهاية، وحكم الله نافذ وكائن لا محالة، وأن أمور الناس موكّلة إليه –سبحانه– " وفي ذلك إيماء إلى أن على الحاضرين اليوم أن يفكروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة".(1)

ويتجلى سر التنجيم في الموعظة الكبرى في ختام هذا المقطع بقول الحق تبارك وتعالى–: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97)).

والباحث يجد نفسه مضطرا أن ينقل كلمة صاحب الظلال هنا إذ يقول ما به يجلي منهجية التنجيم القصصي: "ومن مشهد البغي والعدو مباشرة إلى مشهد الغرق في ومضة: (حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ)، وعاين الموت، ولم يعد يملك نجاة.. (قالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ). لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي.. كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 278 /283.

هائلة مخيفة، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى، فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فيزيد في استسلام.. «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».. المسلِّمين! «آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟!».. آلآن حيث لا اختيار ولا فرار؟ آلآن وقد سبق العصيان والاستكبار؟ آلآن؟! «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ».. لا تأكله الأسماك، ولا يذهب منجرفًا مع التيار؛ ذلك ليدرك من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك: «لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً».. يتعظون بها ويعتبرون، ويرون عاقبة التصدي لقوة الله ووعيده بالتكذيب: «وَإِنَّ كَثِيرا مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ».. لا يوجهون إليها قلوبهم وعقولهم، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم، ويسدل الستار على المشهد النهائي في المأساة، مأساة البغي، والفساد، والتحدي، والعصيان.. ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بني إسرائيل بعدها، تستغرق ما حدث في أجيال: (وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ، وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، والمبوأ: مكان الإقامة الأمين، وإضافته إلى الصدق تزيده أمانا وثباتا واستقرارا كثبات الصدق الذي لا يضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء، ولقد طاب المقام فترة لبني إسرائيل بعد تجارب طويلة، لا يذكرها السياق هنا لأنها ليست من مقاصده، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال، حتى فسقوا عن أمر الله فحرمت عليهم. والسياق لا يذكر هنا إلا اختلافهم بعد وفاق، اختلافهم في دينهم ودنياهم، لا على جهل، ولكن بعد أن جاءهم العلم، وبسبب هذا العلم، واستخدامه في التأويلات الباطلة". [1]

ويتابع صاحب الظلال كلمته فيقول: "ولما كان المقام هنا مقام نصرة الإيمان وخذلان الطغيان، فإن السياق لا يطيل في عرض ما وقع بعد ذلك من بني إسرائيل، ولا يفصل خلافهم بعد ما جاءهم العلم،

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 3/ 1818-1819.

ولكن يطوي هذه الصفحة، ويَكِلُها بما فيها لله في يوم القيامة: (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). فيبقى للقصة جلالها، ويظل للمشهد الأخير تأثيره.. وهكذا ندرك لماذا يساق القصص القرآني، وكيف يساق في كل موضع من مواضعه، فليس هو مجرد حكايات تروى، ولكنه لمسات وإيحاءات مقدرة تقديرا، بعد ذلك يجيء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها، يبدأ خطابا إلى الرسول ﷺ تثبيتا له بما حدث للرسل قبله، وبيانا لعلة تكذيب قومه له، أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبينات، إنما هي سنة الله في المكذبين من قبلهم، وسنة الله في خلق الإنسان باستعداداته للخير، والشر، والهدى، والضلال.. وفي الطريق يلم إلمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم، فرد عنهم، لعل فيها حافزا للمكذبين قبل فوات الأوان.. وينتهي بالخلاصة المستفادة من ذلك القصص كله". (1)

وأرى هنا تقديم نصيحة للباحثين بأن تنجيم القصة القرآنية موضوع كبير خطير، يلزمه عكوفا على مثل تفسير الظلال لأنه -بحق- قد وجدته يتفاعل مع منطق التنجيم تفاعلا حركيا ذا فائدة كبيرة لبيان وجه إعجاز التنجيم القصصي، حيث إنه يعيش مع بيان السياق ولا يتجاوز من نجوم القصة الواحدة إلا ما يكشف عن مراد المقام والسياق.

خامسًا: سورة إبراهيم، وفيها موضع واحد

ـــ مهمة موسى عليه السلام ونصائحه لقومه:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 3/ ص1818-1819.

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)) [إبراهيم:٥– ٨].

وكما ترى جاءت القصة حاملة لكلّ أوصاف التبليغ والإنذار والوعد والوعيد والترهيب والترغيب، شأنها في ذلك شأن أي رسالة حملها نبي لتوجيه قومه (سلوكيًّا، وعقديًّا، وفكريًّا، واجتماعيًّا، حسًّا ومعنىً).

يتبدى لذوي بصائر التمييز في مطايا هذا المقطع المنجّم من قصة موسى عليه السلام سرّ يجعل المعاني لطيفة المأخذ، فهذا النص يتصدره توكيدات موثقة أن الله أعد لإصلاح داخلي لقوم موسى، وترتكز معاقد الإصلاح على التذكير بنعم الله لقوم موسى بعد خلصهم الله من كبرى المعضلات السياسية التي شللت عقولهم، وخربت وجداهم، وجردتهم من كل قيمة، ألا وهي تنجية الله لهم من فرعون ومعاوله الإفسادية، وقد جعل الله أمرهم بأيديهم، يملكون نبيهم وكتاب الله لهم بآيات بينات لا تزيدهم إلا إيمانا وتسليما، فأمر الله موسى ليخاطب قومه خطابا يدل على عناية الله بهم، وتقديرهم، ومعيته معهم، لكنه خطاب عزة الحق وقوته الغنية عن شكر كل شكور، وكفر كل كفور.

ومن الثابت أن سر التنجيم إنما يتعلق دائما بتعليم المتلقي من قصة موسى ما ينير له طريق الدعوة إلى دين الله، ومع أن قوم محمد ﷺ لم يكونوا خاضعين لبطش مثل بطش فرعون، ولكن كان عنهم جاهلية أشبه بطغيان فرعون، وإلا لما كان من اليسير أن يسمعوا لهذا القرآن، أو يسمحوا أن ينشأ فيهم هذا النبي، ومن ثم تتولد لدى قناعة الباحث أن الله ذو منة عظيمة على قوم محمد ﷺ، أن هيأ لهم حياة اجتماعية فيها قدر كبير من حرية التلقي، والتحرر من ربقة الفكر الأسير، وذلة العقل الكسير، فلم يكن الضالون منهم أسرى إلا لهواهم وشركهم، وكانوا في جاهلية، وظلمات، لكنها -بحق- كانت أهون من ظلمات بني إسرائيل تحت بطش فرعون وقومه، ومن ثم فقد اقتطف البيان القرآني من قصة موسى حالًا قريبا منها حال

قوم أمة التلقي الحاضرة، والقاسم المشترك بين القومين هو الظلمات التي أراد الله فضلا منه ونعمة أن يخرجهم منها، وقد سبق أن أنعم الله عليهم بنعم استبقاء لها بدوام الشكر ترغيبا، والتخويف بعذابه ترهيبا، ولقد كان مُعينا على انكشاف سر التنجيم هنا أن يسبق هذا المقطع بآية تعد هي أم الباب في بيان سر التنجيم إذ يقول في الآية السابقة على هذا المقطع: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). [إبراهيم:4]؛ فها هو محمد رسول قومه قد وعى بتلقيه هذا المقطع بلطافة المعنى أنه مرسل ليخرج قومه من ظلمات الجاهلية، ومن العجيب أن السورة في مطلعها في أول آية تنبئ عن هذا المتجه الإصلاحي بأداة الإصلاح الأولى وهي (كتاب)، وهذا الكتاب يقتضي الأداة الأخرى، وهي أن يكون الكتاب منزلا على (رسول)، يخاطب قومه بخطاب العزة الإصلاحي: (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ) [إبراهيم:1].

حتى إن صاحب (ظلال القرآن) يومئ بلطافة سر التنجيم هنا فيقول: "والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد- عليهما صلاة الله وسلامه- تمشيا مع نسق الأداء في السورة- وقد تحدثنا عنه آنفا- فإذا الأمر هناك: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).. والأمر هنا: (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).. الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة، ولكن الغاية واحدة: (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).. (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ)". (1)

إذًا ميزان التنجيم هو أن يُقتطع من قصة موسى على قدر ما يحتاجه إصلاح محمد ﷺ قومه، وهذا هو المعيار الثابت الذي ازداد رسوخا لدى قناعة البحث في تنجيم القصة الواحدة.

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4/ ص2427.

سادسا: سورة الإسراء، وفيها موضعان

1- التوراة هدى لقوم موسى عليه السلام:

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا) [الإسراء:٢].

ويأتي سر التنجيم في حقيقته الكبرى ليشمل السورة كلها، وكأن التنجيم في أصله هو أن ينزل الله القرآن سورا منجمة، كل سورة لها سياقها المعلم لأمة التلقي، ومن العجيب أن تكون سورة الإسراء بهذا الاسم إذا توجهت التسمية لأمة التلقي، وأن يكون لها اسم آخر هو سورة (بني إسرائيل) إذا توجهت للحديث عن القصة التي هي محل اعتبار لأمة التلقي، لكن عندما تبتدئ السورة بآية الإسراء فهذا تغليب وتقوية لاسمها (الإسراء) إذا ما لزم عند وجود اسمين لها أن يختار أحدهما تبعا لمسوغ علمي مقبول.

وتتلاحق أسرار التنجيم في أن السورة مكية، حسب قول المفسرين، وما أكثرهم! ثم إن السورة المنجمة هنا كلها تقوم على ركيزة إصلاحية مثناة: رسول وكتاب، وفي الواقع فإن البحث يجد نفسه مضطرا أن يربط أسرار التنجيم لسورة الإسراء كلها، وإن كانت قصة موسى تأسست على موضعين اثنين فيها، لكن لا أجدني بعيدا عن الحاجة الدافعة لتقرير أن هذين الموضعين كأنهما روح تسري في جميع السورة، فموسى وقصته وكتابه التوراة، وموقف فرعون وقومه من الآيات البينات، هذا شطر السورة يطابقه محمد وقومه وكتابه القرآن وموقفهم من آيات الإسراء والمعراج، والدرس الماضي (موسى)، والدرس المتلقي الحاضر (محمد) عليهما السلام، والماضي يبصر ويؤانس ويحصن ويصبر ويثبت على الحق النبي الحاضر والرسول المتلقي وأمته؛ ومن ثم يستطيع البحث أن يقرر أن السورة كلها نجم من التنجيم، وهي في إيجاز: قصة موسى تعلم محمدا وأمته البلاغ المبين، والحذر في دعوة الخصوم إلى تحريف الكتاب بغرض إفساده ككتاب هدى إلى الحق، وعدم الاغترار بعناد الكفار واشتراطاتهم التي لا نهاية لها لكي يؤمنوا.

فالموضع الأول منسجم تماما بين قصة موسى ومحمد بأمته: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا) [الإسراء:٢]. وتتلخص غاية الهدى في (أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا) وهذا هو عين ما أشارت إليه السورة فيما يخص محمدا ﷺ وأمته، وكتابه فقال البيان القرآني في مضمار الوكالة:

أولا: فيما يخص التحرير من ربقة الشيطان وسلطانه: (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلا (65) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُورا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِبا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68))[الإسراء:65-68].

ثانيا: فيما يخص تنزيه الكتاب عن الزيف: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)). [الإسراء:73-75] إلى أن قال: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) [الإسراء:86-87].

ولعل من متممات الغاية من تنجيم قصة موسى في هذا الشأن أن الآية الثانية من السورة وهي قول الحق ﷻ: (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْدا شَكُورًا) [الإسراء:3]، تأتي ضميمة للموضع الأول واستكمالا للغاية العليا من التنجيم لتعليم محمدا وأمته أن يكونوا مثل موسى في كونه (كانَ عَبْدا شَكُورًا).[1]

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 338/13.

2_ الآيات التسع:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)) [الإسراء:١٠١ – ١٠٤].

السؤال لذريتهم هو عين سؤالهم، لأنهم تناقلوا الأحداث جيلا بعد جيل، فمثلما كان عناد فرعون وقومه تجاه التسع آيات البينات مع موسى، كان عناد كفار مكة مع آيات محمد، عليهما السلام، قال البيان القرآني، ولعل هذا هو سر التنجيم الواضح هنا.(1)

سابعًا: سورة الكهف، وفيها موضع واحد

- موسى والعبد الصالح عليهما السلام:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 776/14.

أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)) [الكهف:٦٠–٨٢].

وهذا المقطع من سورة الكهف يبدو في الظاهر أنه نص يحتاج متلقيه أن يميز إلى أي العهدين ينتسب، أهو يغذي تعليم الأمة المتلقية إرشادات دعوية في العهد المكي، عهد الصبر، أو يرشد إلى نصائح العهد المدني عهد النصر والمدنيّة، ومن ثم فإنه –لكي يفهم سر التنجيم في هذا المقطع القصص– فإنه يتعين على البحث السعي إلى بيان هذا المعوّل عليه لأهميته، وحتى لا يتسع في هذا المستهدف نطاق البحث فيخرج عن خطته، وإن كان العثور على شيء من كلام العلماء يكلف الكثير، ولربما لا يعثر على بيانه، فإن البحث يتجه إلى الاكتفاء بأن يستند إلى أن هذا المقطع يبدو أنه يتوغل في عمق الإيمان واليقين ببُعد عظيم الأثر في مكونات الدين في علم التأويل لأمثلة من المتشابه الذي تكثر حاجة العبد إلى فهم حقيقتها

والرسوخ في علم أسرارها اللطيفة التي لا يدركها إلا الراسخون في علم التأويل الذي يملأ حركة الحياة بهذا الدين الحق.

ومن اليقين أن هذا المستوى الحضاري لا يتوفر إلا في ظل حضارة منتصرة مستقرة مزدهرة في مناحي المجتمع المستنير، فها هو موسى يتلقى علم التأويل عمليا بأمثلة حياتية لكن يسيطر عليها جو الاستضعاف واستعلاء الظلم وجنوده على حياة الفقراء الذين صنع فقرهُم وضعفُهم عدوًّا تغلّب على مقدراتهم الحياتية في ظل حاكم ظلوم يغتصب كل سفينة لا عيب فيها، وكل شيء يستهويه ويستبيحه من دم أو مال أو عرض، وحياة فشا فيها طاعون ظلم اليتامى، وساءت فيه تربية الأبناء، لدرجة أن يخشى على دين الأبوين طغيانا وكفرا.

وهذا جو عاجل في أشد الحاجة لمعالجة ناجعة بشرع العليم الحكيم، استبقاء للمستضعفين ومقدراتهم التي استنقذت من بين براثن الذئاب الضارية والوحوش الكاسرة، ومن ثم يتعين على البحث تقرير أن هذا الدرس التعليمي لموسى كان في زمن الاستضعاف تحت فرعون وقومه، ليناسب العهد المكي لمحمد وأمته، زمن (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)، وبذا يتسنى للبحث استكشاف سر التنجيم بأنه تعليم وإرشاد لأمة التلقي لتكون في تيسير في حياتها بدين الله في عهد الرخص الشرعية المباحة، والعيش بالمتاح من هذا الدين في جو طغيان العدو المتسلط عليهم من كفار مستعلين متكبرين، وهذا كله يحتم ويؤيد بقوة أن سورة الكهف سورة مكية، قولا واحدا.

هذا، ويتجلى سر التنجيم في قضية تعليم الأمة المسترشدة في تفاعل رسول الله محمد ﷺ في ضوء هذه الآية من قصة موسى في هذا المقطع، وهي تعد بؤرة التنجيم ومحوره الأصل، إذ يقول البيان القرآني فيها: (قالَ: هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرا).

كما يحسن قبل بيان هذا المعنى استحضار ما قاله صاحب الظلال من استدعائه للطافة سر التنجيم: "وإلى هنا كان موسى- ونحن الذين نتابع سياق القرآن- أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرًّا. وموقفنا منها كموقف موسى، بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم ينبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا، وما قيمة اسمه؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة. فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يمثلها. وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها، فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود، فيمضي في طريقه، ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة، وكأنما نسيه ليعودا، فيجد هذا الرجل هناك، وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى.. كل الجو غامض مجهول، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن". (1)

ويستكمل صاحب الظلال ويصرح بمعايشته لسر التنجيم حتى أنه قال: "ثم يأخذ السر في التجلي.. (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبا). فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصبا، وكان الضرر الصغير الذي أصابها اتقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها. (وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً. فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً).. فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا.. فلو عاش

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4/ ص2281.

لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه. فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفا خيرا منه، وأرحم بوالديه. ولو كان الأمر موكولا إلى العلم البشري الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعا. وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس. ولا أن يرتب على هذا (وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما، وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً، فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي.. ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرا).. فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، ولم يطلب عليه أجرا من أهل القرية– وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما– كان يخبئ تحته كنزا، ويغيب وراءه مالا لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه.. ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته. ثم ينفض الرجل يده من الأمر. فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف. وهو أمر الله لا أمره. فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما قبلها، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي).. فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يطلع عليه أحدا إلا من ارتضى. وفي دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفي الرجل من السياق كما بدا، لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول. فالقصة تمثل الحكمة الكبرى. وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار، ثم تبقى مغيبة في علم الله وراء الأستار، وهكذا ترتبط –في سياق السورة– قصة موسى والعبد

الصالح، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار". [1]

وفي تلك القصة ما يوحي بعاقبة الإيمان والعلم والصلاح وعاقبة الكفر والفساد، كما أن فيها كيف تكون التربية النفسية والعقدية لأبنائنا؛ لأن تقوى الآباء تنفع الأبناء، والنبت الطيّب لا ينبت إلا طيّبًا، فكان من نتائج ذلك حفظ الحقوق، ورد الأمانات إلى أهلها، ولو طال الزمن، وفي ذلك دليل على اختصاص علم الله _تعالى _ بالغيب؛ "حتى لا يظن أن علم الخضر وصل إلى مرحلة النبوءات القرآنية والمقاييس الظنية التي لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق". [2]

وهناك شواهد أن أمة التلقي بنبيها المصطفى قد فطن لسر التنجيم، حتى أنه رغب في مزيد من علم التأويل وعجائبه المثيرة التي هي زاد للأمة على طريق الدعوة إلى الحق، وقوة تحصن الأمة في الحياة بهذا الدين وتجيد تفسير قضاء الله تعالى بأحسن التأويل الذي لا يضل بشبهة، ولا يفتن عن الحق بفتنة، بل يهتدي بالهدى الحق؛ ومن ثم فقد آتت أسرار التنجيم أكلها الطيب، وتحقق للقص القرآني أهدافه في بيان معجز، وتنجيم مدهش.

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2281.

(2) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، (الكويت: دار القلم، ط1، 1426هـ/2005م)، صـ 286 بتصرف.

ثامنًا: سورة مريم، وفيها موضع واحد

- موسى عليه السلام في مصاف العظماء رسولا نبيا:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)) [مريم: ٥١–٥٣].

وللحديث عن سر التنجيم يجب استحضار المنطلق الذي توصل إليه البحث من الأصل في التنجيم هو جعل القرآن سورا، لأن كل سورة تمثل لبنة في صرح هذا الكتاب المتين، وأن السورة التي يذكر فيها موضع أو أكثر من قصة موسى، فإن هذه المواضع إنما تنسبك في إطار عام لا يخرج عن سياق السورة، وأن الحركة الأساس في توجيه التنجيم إنما هي أن يكون التنجيم مرشدا هاديا للمتلقي، ولهذا ينبه البحث كثيرا على أهمية التدبر للوقوف على حركة السورة وتوجيه السياق الذي يقف وراء الأحداث القصصية ذكرا وحذفا، وطولا وقصرا، لأنه هو مفتاح الأسرار، ومرآة السياق.

ومعلوم أن البيان القرآني كتاب دعوة وإرشاد، ويبدو أن قصص الأنبياء من أول سورة مريم، ثم طه، تمثل قطاعا كبيرا للتعليم، لدرجة أن تكون السورة التي تليهما صريحة باسم (الأنبياء) لأنهم هم الذين بهداهم يقتدي محمد ﷺ وأمته، ويمتد هذا القطاع في سورة (الحج)، ثم يزدهي ويزدهر في سورة (المؤمنون)، بل إنه من الملاحظ أن حضور موسى المعلم لمحمد وأمته يبدأ من أول سورة (الإسراء)، ثم يحضر في (الكهف)، وهذا الحضور المرشد حضور لا يستهان به، إذ لعله هو بداية لقطاع الاقتداء بالأنبياء في هذا الكتاب العظيم، وموسى في سورة (مريم) هو أحد هؤلاء الأنبياء الذي يتحدث عنه البيان القرآني حديثا منطلقا من سر التنجيم للسورة كلها، وما موسى منها إلا قطفة من قطاف القصص الحكيم فيها، ومن ثم قال تعقيبا على قص الأنبياء السابقين في الذكر الحكيم: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا

وَبُكِيًّا (58)) [مريم:٥٨]. ولا عجب أن يذكر هذا في سورة (مريم)، فهي في مصافهم ودرجتهم، ومعلوم أن مريم لها حضور شاهد في سورة الأنبياء.

أما فيما يخص هذا المقطع: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53))، ففي قوله: (مُخْلَصًا)؛ فائدة لأن دعوته تتطلب ذلك مع قومه، فيكون حريصًا على هذه الصفة التي يتخذها وسيلة له في إنجاح الدعوة إلى الله والإقبال على توحيده، وكأن الله غرس هذه الصفة فيه فطرة قبل أن يكون رسولا نبيًّا، ثم خصصت هذه الصفة، وهذا الخُلق للدعوة عن طريق الرسالة، قال ابن عاشور: "والمراد هنا الإخلاص فيما هو شأنه وهو الرسالة بقرينة المقام". [1]

ثم قوله ﷻ: "رسولا نبيًّا" - وخاصّة بعد مجيئها مقرونة بمزيّة الإخلاص- فيه سرّ بلاغيّ يتناسب مع السياق في القصة، وهو التأكيد، أي تأكيد الوصف (الإخلاص) قبل، وفي ذلك إشارة إلى أن كلمة "نبيًّ" مؤكّدة لـ "رسولا" فكأنه تأكيد فوق تأكيد، مما يدل على إنعام الله على موسى -عليه السلام- كان بثلاث مزايا: الإخلاص، والرسالة، والنبوّة، وهذا يشير إلى بلوغ ما كُلّف به مبلغًا عظيمًا وقويًّا أكثر من غيره في شأن الرسالة بصفة خاصّة.

وجملة (وناديناه من جانب الطور الأيمن) معطوفة على الجملة قبلها (واذكر) وفي الجملة جملةٌ من الإنعام الخاصّ الفريد من نوعه، وهو النداء، والمنادِي هو الله -عز وجل- ولا يختلف المعنى الموجّه إليه هنا عن المعنى الموجّه إليه آنفًا في آية الأعراف: (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 126/16.

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)، مما يدل على الامتنان بالنعمة، ثم الأمر بالشكر عليها، والحث على الازدياد منها والثبات عليها.

كما أن في مجرّد النداء المباشر من الله –تعالى– إنعام على سيدنا موسى وحصول قرب ومودّة إيناسًا من جَنْب الله –تعالى– له.

ثم إن جملة (وقربناه نجيًّا) وقد قرب الله تعالى موسى ليناجيه؛ لأن هذه خصوصية لموسى عليه السلام، فكلام الله لموسى خاص به وحده لا يسمعه أحد غيره، وهذه الأية تضرب في حق الغرض مباشرة، التقريب هو نقل الشيء إلى حيز القرب، وهو ما يتنافى مع البُعد، وفي التقريب مجاز والمراد الوحي، وأفهم من ذلك أن كلمة (نجيًّا) التي وُضعت موضع الحال هنا من الضمير العائد على موسى –عليه السلام– هي المناجاة والمكالمة على الجبل؛ فالقرب سبب للمناجاة، والمناجاة سبب للإخلاص، والإخلاص سبب للرسالة والاصطفاء، فكأن كل صفة من هذه الصفات في ذاتها قرب وتقريب، وفي هذا القرب مزيد خصوصية واعتناء بشأن موسى –عليه السلام– بدليل إفراد القرب بصيغة الماضي الدالة على التحقيق والثبوت مقرونة بالمناجاة.(1)

وثمة نعمة أخرى لم تأت إلا في هذا المقام الخاص الذي انفرد به سيدنا موسى ﷺ حيث قال ﷻ: (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)، والهبة هي مرافقة هارون لأخيه موسى في الدعوة ومشاركته فيها، واختيار لفظ الهبة (ووهبنا) دلّ على خصوصية ومزيّة في نوع الهبة، والموهوب له أيضًا، فضلا عن معنى الملكية والاستحقاق للوصف بجدارة، وكأن الله –تعالى– أراد بذلك أن يبين لأمة التلقي مكانة سيدنا موسى عنده، فقَبِل شفاعته في أن يكون هارون نبيًّا، وقد كان بفضل الله –سبحانه–؛ وفي ذلك تمام العناية

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ ٩١٢٠.

الإلهية بموسى؛ رحمة به من يد قوم جبّارين، يقول ابن عاشور: "وإنما جعلت تلك الهبة من رحمة الله بموسى؛ إذ يسَّر له أخًا فصيح اللسان، وأكمله بالإنباء حتى يعلم مراد موسى مما يبلغه عن الله ﷻ".(1)

والخلاصة أن هذا التكريم العلي لموسى الرسول النبي إنما هو تعليم لمحمد وأمته، وهذا في الواقع هو مفتاح سر التنجيم لهذا القطف النمير من قصة موسى في سورة مريم.

ثامنًا: سورة طه: وتتناول عشرة مواضع

1- اختيار الله موسى وبدء الوحي في الوادي المقدس:

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)) [طه:٩-١٦].

وسر تنجيم السورة كلها أولا يشهد له أن السورة مكية بالإجماع، وتسمى سورة موسى(2)، ويتجلى هذا في أن مقصود السورة قد جعله البقاعي: "إعلام الداعي ﷺ بإقبال المدعوين والترفق إلى أن يكونوا أكثر الأمم زيادة في شرفه ﷺ ".(3)

وهذا هو الجو الذي فيه تنشأ الهمة العلية في صناعة الداعي إلى الله، فيتلقى هذا التعليم الرشيد، فها هو موسى وأهله في الليل والبرد، متوجها بهم إلى عهد البلاغ المبين إلى فرعون وقومه، وهو مشهد واقعي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 128/16 – 129.
(2) البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 267/2.
(3) البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 271/2.

من حياة البشر عامة: زوج يبذل قصارى جهده ليستدفئ لأهله، ولا أهل له إلا هم، وهو يحمل هم البرد، بأن يرجع إلى ذات الشوكة حيث معترك الصدع بالحق في وجه أكبر طاغية، وكان موسى على ربه متوكلا، به موقنا أن الله معه، فإذا بالله -تعالى- يعطيه عطاء معنويا محمودا، فيختاره نبيا يعلمه الدين، ورسولا لتنجية قومه من عدوهم، لاسترجاع مجدهم وعزهم بالدين الحق، وليكونوا أمة الله في الأرض.

وهذه هي المعاني التي يتمركز حولها الغرض من تربية أمة التلقي لهذا الكتاب، وهذه السورة، وهذه القصة، وهذا المقطع المنجّم الحكيم بإمامها نبيها ورسولها وإعلامه بقيمة اختيار الله له واصطفائه للنبوة واجتبائه للرسالة، ومن المعلوم أن إرشاده بما كان لموسى لا يلغي اجتهاد محمد في رسالته لقيادة إصلاح قومه ومن في الأرض جميعا.

ولعل من موجبات الانسجام بين الرسولين أن البيان القرآني يبث طمأنينة كل منهما بهذا البيان القائل في هذا الموضع: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فأعلم -سبحانه- أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره... فإذا شاء هداية من وفقه لما يصعب أمره، ثم أتبع ذلك بقصة موسى ـ عليه السلام ـ وما كان منه من إلقائه صغيرًا في اليمّ، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع... وكل ذلك مما يؤكد لقصد المتقدم.(1) ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي مبينًا ما يتناغى مع مقصود السورة من قصة موسى -عليه السلام-:"حثّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصبر على ما يلقاه من إعراض قومه عن الدين، ولهذا افتتحت بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى... ثم قص عليه بعد ذلك قصة موسى من أولها إلى آخرها؛ ليتأسى بما كان من ثباته أمام فرعون... ثم ختم السورة بحثّه على الصبر كما افتتحها به".(2) وفي هذا يقول ابن عاشور: "افتتحت السورة بملاطفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول ـ صلى

(1) ابن الزبير الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص253.

(2) الشيخ عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، (القاهرة: طبعة مكتبة الآداب، بدون تاريخ)، ص194.

الله عليه وسلم ـ بالاضطلاع بأمر التبليغ وبكونه من أولي العزم مثل موسى ــ عليه السلام ــ وألا يكون مفرّطًا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض، وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن".[1]

كما ذكر البقاعي: "وكذا دلّ مقصودها بإضافتها إلى موسى عليه السلام بتأصل قصته، وما كان فيها من قدرة الله ـ تعالى ـ وحكمته". [2]

ومن ثمَّ يتضح للناظر أن علاقة قصة موسى عليه السلام مرتبطة ارتباطًا شديدًا بما كان عليه النبي ﷺ من أحوال وصعاب لاقاها في الدعوة، فدلّ كل ذلك على قوّة التمكين، وعلى قدرة الله جل جلاله وحكمته في صنعه، وفي ذلك إشارة إلى تسلية الأنبياء، والترفق بهم، وشرفهم عند ربهم ـ جلّ وعَلا ـ كان هذا عن علاقة القصة بالسورة (بصفة عامة)، أما عن علاقتها في هذا الموضع بالذات بجميع باقي أجزاء السورة فعلى النحو التالي:

يعقد القرآن الكريم في هذه السورة بين قصة موسى والمطلع وما ساق إليه بحرف العطف (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)، ويظهر أسلوب الملاطفة في قصته بتنظيرها بنظائرها، ويظهر أسلوب الخشية فيما أخبر به عن فرعون بموازنته بما جرى في السور الأخرى ـ أيضًا ـ، والمعلم الدال الذي ينبهنا إلى استبصار أسلوب القصة في نور المطلع وما انساق إليه هو قوله في أول القصة الذي أوقعه بدلا مطابقًا للوحي الذي يلفتنا بهذا البناء إلى قوله: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)، ذلك هو قوله: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)) [طه:١٣-١٦]. ولا نظير

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 184/16.

(2) البقاعي، مصاعد النظر لإشراف على مقاصد السور، 274/2.

لذلك في قصة موسى عليه السلام في الذكر الحكيم.[1] فالمقصود منها إقامة الحجة بالثبات في الدعوة، وفي ذلك بيان عظمة الله وسلطانه وقدرته وقهره وشمول علمه.

وقد بان هذا الغرض في مواطن كثيرة في القصة، مثل بيان أسس وأركان الإيمان من الإقرار بوحدانية الله (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) ثم الصلاة (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)، ثم الإيمان بالساعة (إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ)، وهذا مناسب ـ أيضًا ـ لجو السورة والمقصود منها؛ فالمراد إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ وأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله وهو نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ، ومن ثم دعت الآيات إلى واجب كل نبي ورسول في دعوته من التبليغ والإنذار والتبشير دون الالتفات إلى مكائد المشركين؛ فإن الله كفيل بهم وعالم بهم وقاهرهم بسلطانه وعظمته وقدرته وحكمته، وفي ذلك دليل على أن الله ناصر أنبياءه على أعدائهم، فكأن هذه الآيات تسلية وتصبر وترفق بشأن النبي محمد ﷺ وحاله مع قومه، فكما أن الله نصر موسى وأيده بالمعجزات وأنزل عليه التشريعات فإنه يؤيدك يا محمد كذلك بما ينصرك على أعدائك، وكأن هذه الآيات جعلها الله ـ تعالى ـ لسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الثبات والقوّة والتمكين بكل ما أنزل من تشريعات وأحكام دلت على عظمة الله وقدرته وشمول علمه.

ولقد كان المصب لسر التنجيم هنا يتلخص في حقيقة كبرى مفادها أن إصلاح الدين الذي تلقاه موسى من ربه إنما هو إعداد لإصلاح الدنيا به.

2- معجزة انقلاب عصا موسى حيَّة:

(1) إبراهيم الهدهد، علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، ص213، 214.

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)) [طه:١٧–٢١].

وإن سر التنجيم هنا ينطلق من إرادة الله أن يجلي للداعي إليه صورة من صور قدرة الله التي تبث اليقين في قلبه أن الله معه معية تجعل له من الضعف قوة، معية تغنيه عن كل القُوَى والقُدَر، فيمثل له بإمكانات موسى المتاحة له، لأن من سنن دعوة الحق شعارا يعد قاعدة من قواعد السنن الإلاهية تحدث عنها البيان القرآني بطريقة عجيبة في البيان البليغ فقال: (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) [الكهف:95]، وهذا هو مناط الإعجاز، فالله اصطفى لرسله هذه السنة تعزيزا واتساقا مع سنن الحق من نحو: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة:249]، و(وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) [هود:40]؛ فمن ثم ورد هذا السؤال (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) [طه:١٧] مقيدا بشيء معلوم ضعفه، لكنه في يد الله، وبإذنه، سيكون آية معجزة تطمئن موسى النبي الرسول الداعي إلى الله فسأله سؤال العليم بالجواب، دون أن يقول (وَمَا بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)، إنما أشار بالاسم الدال على كون المسؤول عنه في عُرف العقول شيء حقير قليل النفع، ليبرز الله له أنه يحيلَه شيئا عظيمًا كثير المنافع، عديد الفوائد، فأحاله له بما في ظاهره عند الناس أن هذه الإحالة تشبه السحر العجيب، واختار أن يكون حية تسعى ترهب وتخيف العدو، ليطمئن موسى إلى معية الله العملية التي لا تفارقه في الشدة والرخاء، ومن ثم فقد تدرب موسى، ونجح، واطمأن، وكل هذا إنما هو ترشيد لأمة محمد الرسول النبي المتلقية هذه القصة تلقيا دقيقا، ليصنع الله لهم مثلما صنع لموسى من إعجاز العدو وإلجائه إلى الحق المبين بأن كيد الكافرين ما هو إلا في ضلال، أما موسى عليه السلام فهو يعرف أن الله تعالى هو الذي يسأل، ولا يخفى عليه ما في يده، ولكنه كلام الإيناس؛ لأن

الموقف صعب عليه، ويريد ربه أن يطمئنه ويؤنسه. وفي هذا إيناس للنبي صلى الله عليه وسلم،[1] ولذا فقد بان سر التنجيم في التعليم الدعوي بخلاصة طيبة ختم بها المقطع ليؤدي رسالته بقوة: (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)؛ ليتقرر في طريق الله سنة محكمة أن التمكين لدين الله إنما هو بالمتاح، وإن كان في الظاهر قليلا.

3- معجزة اليد البيضاء:

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35)) [طه:٢٢-٣٥].

وتتضاعف أسرار التنجيم بآية إعجازية جديدة تضاف إلى قواعد السنن في طريق الحق، فقدرة الله تحيل يدا سوداء إلى بيضاء بياضا مستثنى بقيد: (من غير سوء)، بقوة هذه الضدية العجيبة التي تُذهِب من قلب موسى كل خوف، وإن هذا إنما يشبه أن يكون إعدادا حربيا، وتهيئة نفسية لإمام الأمة الرسول النبي سواء فيه موسى ومحمد، عليهما السلامّ.

فهذا المقطع ناطق بهذه المعاني الدعوية النفسية لتعالج النبيين والرسولين أحدهما سلف، والآخر خلف، يسترشد اللاحق بهدى السابق.

ويقف البيان القرآني هنا مع ملمح دعوي له قيمته الكبرى التي تشير لأمة التلقي وترشدها إلى مغزاه القوي، وهو بلاغة الرسول، لا سيما عند طارئ يفاجئ الداعي إلى الله، وموسى في هذا الموقف ذو

1 الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ ٩٢٤٨.

حس دعوي بليغ، لأنه يتوقع أن شيئا ما يمكن أن يعيق لسانه من جراء يقين بأن الشيطان، لعنه الله، حريص على إحداث إعاقة بعقدة تزعجه وتظهره ضعيفا مضطربا، حتى إن فرعون أراد أن يرهبه من هذا المدخل فقال: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ) [الزخرف:52]، يسعى إلى ضعفهِ البياني، فكأن موسى في هذا يحترز لنفسه بحرز قوي من الشيطان، وفي هذا تنبيه قوي للدعاة إلى الله، ولا حاجة إلى الخوض في كلام عن لثغة لا يشير إليها شيء من النص، تنزيها لموسى من اتهام بغير دليل، وحاشا لله أن يكون رسوله ألثغ، كما أن موسى في حديثه عن كون هارون أفصح منه لسانا ليس في هذا دليل على غمز موسى لنفسه في الفصاحة، ولعل المراد من كلامه في هذا هو كون فصاحة هارون تؤيد فصاحة موسى، وهما معا يكون شأنهما أفصح من الاقتصار على موسى وحده، وفيه ملمح جديد أيضا أن موسى يحب أن تكون الدعوة إلى الله في أقوى ما يمكن ومن مظاهر القوة أن يقوما بها معا، لأن يد الله مع الجماعة، فهذا من أهم معالم تربية الدعاة إلى الله ليكونوا دائما في قوة تعينهم وتثبتهم وتشد أزرهم، وتوفر معنى الشورى، وبهذا تكون في أحسن ما يمكن لها من تأثير ونفع وبقاء.

وفي قوله (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28))، المقصود بالعقدة الحُبسَة والعقد نقيض الحلّ، وفي قوله (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30)) والمعنى: اجعل لي معينًا يعينني على أمر الدعوة ومشاقها، وإيثار كلمة (وزيرًا) على غيرها؛ لأن فيها معنى الملجأ والمعقل والملاذ والسكينة، فهي أشدّ من كلمة (معينًا) من حيث القوة لفظًا ومعنىً، ومن ثمّ ففي كلمة (وزيرا) ثقل يعبّر عن المعنى المراد من باب المناسبة بين الحال والمقام؛ فالمقام مقام تبليغ ومشقة، والحال يحتاج إلى إعانة من نوع خاص يناسب ذلك المقام فكانت كلمة (وزيرًا) هي المعبّرة عن هذا المعنى والجامعة بين الأمرين (الحال والمقام) وهو حال

موسى وأداء المهمة، لذا اختار من أهله أخاه هارون؛ "لفرط ثقته به، ولأنه كان فصيح اللسان مقوالا"[1] وكلمة (من أهلي) جاءت توضيحًا وتفسيرًا لاختيار كلمة (وزيرًا) قبلها، مما يؤكد على أن كونه وزيرًا خاصًّا من أهله كونُه ناصحًا ومعينًا ومقويًا وداعمًا وأصيلا في الرأي والمشورة واللجوء والحماية والذود، وفي ذلك كله دلالة على مقتضى الطلب في ملازمته ومصاحبته له على الدوام مثل الظلّ، أي لا غنى عنه في الدعوة والمشاركة في الإبانة عن كل ما يقوله موسى ـ عليه السلام ..

وفي جملة (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) يلزم من ثبوت معنى ما قبلها ثبوت معناها؛ حيث إن شدّ الأزر كان عن جعله وزيرًا، مما يدل على التناسب الشديد والصلة القوية بين الأزر هنا والوزارة هناك؛ لأن الأزر هو الظَّهر، والمراد القوّة والسّند واللجوء، وعلى ذلك فإن في (أزري) استعارة تمثيلية؛ "فيكون الكلام تمثيلا لهيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظَّهر بحزامٍ ونحوه". [2]

وفي دعاء سيدنا موسى، تحقيق الغايات وتوفر الآلات وشموخ الطموحات، فضلا عن التقدم والرّقي البدني والرّوحي والنفسي في التبليغ عن رب الأرض والسموات، فقال ـ سبحانه ـ حكاية عن موسى ـ عليه السلام (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34))، وليس المراد التسبيح والذكر لذاتها في الكثرة، وإنما للإعانة والتقوية والتأييد "أي ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، ودعوة المردة العُتاة إلى الحق"،[3] وصيغة المضارع في الفعليْن (نسبحك ونذكرك)؛ للدلالة على الاستمرار والدوام على التسبيح والذكر، فجاءت صفة الكثرة دليلا على ذلك ومؤكدة له، وتقدير الكلام: نسبحك تسبيحًا كثيرًا ونذكرك ذكرًا كثيرًا،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 212/16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 213.

(3) أبو السعود، تفسير أبي السعود، 352/4.

وفي التعبير بهذه الصيغة "المضارعة" حث على دوام العمل بعبادة الإكثار من التسبيح والذكر؛ فبهما يتجدد الإيمان وتكثر التقوى وتزداد الهمّة لأداء المهمّة على أكمل وجه وأتم استعداد.

وجاء اختيار موسى عليه السلام في هذا المقام لعبادة التسبيح والذكر لدلالةٍ وهي عدم الغفلة عن الرسالة والأمر المكلَّف به، فكأن الذكر والتسبيح سببان لتنشيط العقل والذهن وعدم وقوعهما في الغفلة والفتنة، ولعلي أجد قوله –تعالى–: (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) في خاتمة القصة دليلا على ذلك كله وتعليلا له، وفي ذلك دلالة على اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء والتسبيح والذكر في أوقات الشدّة والرخاء والضعف؛ ليكون العوْن والمدد من الله ـ وحده ـ خالقنا والبصير بأحوالنا وشؤوننا؛ تحقيقًا للغاية والمراد بإذن الله الواحد القهار، وجاءت هذه الآية (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) مجملة لما في نَفْس سيدنا موسى؛ لأن الله ـ تعالى ـ وحده هو العالم بحاله وحال أخيه هارون، وفي توجيه خطاب موسى لربه (إنك كنت) ثم اختيار (بصيرًا) بالذات من أسماء الله الحسنى دلالة قاطعة على الاستعطاف وطلب الرحمة والشفقة والقوّة والعوْن.

4- نِعَم الله جل جلاله على سيدنا موسى عليه السلام قبل النبوّة:

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)) [طه:٣٦–٤١].

إن هذا النص كله صورة قوية لأسرار التنجيم، ففيه غزارة من أنواع العناية والتكريم بالرسول الذي يصطفيه الله لهداية العباد، ويكفي أن يتخذ قاعدة من أحسن قواعد الاصطفاء الرباني والاختباء الإلهي

للذي ينال شرف الرسالة، وهي في قوله -عز وجل-: (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)، أي أنه قد نجح في كل الابتلاءات التي تكشف عن معدن الصلابة في الحق، والعزيمة في الدين، وهذا المعنى يجعل المتلقي يتعلم شحذ الهمة نحو العلا والارتقاء في شأن الدعوة إلى الله.(1)

إنها مشاهد مفعمة بمعية الله للدعاة إليه، فتشير هذه الآيات إلى فضل الله -تعالى- على سيدنا موسى، وأنه قد مَنَّ عليه بنعم كثيرة؛ فقد أعطاه الله كل ما سأل، ثم ختم الله الآيات بقوله: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) أي اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجّتي، والمخاطب بيني وبين خلْقي كأني الذي أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم، فكما أن هناك خصوصية وميزة في التربية فكذلك هناك ميزة وخصوصية في أسباب إقامة الدعوة والتبليغ عن مراد الله؛ ليتناسب حال التربية مع مقام الدعوة، وهذا ما سيقت لأجله القصّة وبيَّنته، وحقا يالها من كلمة تثلج الصدر وتشرحه لمراد الله من الداعي إلى الله: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)، وكفى بها من عطاء وشرف، إذن: فالحق تبارك وتعالى يربي الرسل تربية تناسب المهمة التي سيقومون بها.(2)

5- التوجيهات لموسى وهارون في دعوة فرعون:

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)) [طه:٤٢-٤٨].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ ٩٢٧٢.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ ٩٢٣١.

إن سر التنجيم يتجلى في هذا الموقف العصيب الذي سبق له إعداد وتهيئة كبرى للداعي إلى الله، إنه يمكن أن يقال عنه (لقاء العدو)، بل هو أشد لأن لقاء العدو في حرب وقتال يتسلح فيه الطرفان، ليتقاتل فيه الفريقان، وتتلاقى فيه الفئتان، كل منهما حريص على قتل خصمه شر قتلة، لكن هنا لقاء أشد، مع أنه في صورة سليمة، أشد على الداعي إلى الله، لأنه لقاء بين ضعيف وطاغية أكثر وجوه الفساد، وصنع منه الكثير من البطش والفتك، لكن يبقى أن الله ضمن لوليه أنه لا يغيب عنهما، ولا يغيب عنه شيء منهما، بمعيته المطمئنة يسمع ويرى، ويحكم ويفعل ما يشاء.

كما أن من عون الله لوليه بيان الرسالة بوجازة ووضوح ناصع البرهان، مؤيدا بآية من الله، وتقديم الغرض الأكبر من الرسالة، وإيثار الاكتفاء بتحرير العباد من رق الفرعنة الغشوم، دون الخوض في التعرض لإهلاك ملك فرعون، فهذا يتولاه الله القوي العزيز بعد، مع التلويح بمعنى التودد في البيان القرآني البديع في قوله: (وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)، وهذا يؤيد أنه لقاء عدو لكنه في سلم لتبليغ دعوة الله، وقد استطاع هذا البيان أن يثير لدى فرعون الرد الذي يظنه يعجز موسى وأخيه في مكملات الدين الحق في الغيب الماضي، والحاضر والمستقبل.

إن سر التنجيم هنا يتحرك ويتدرج وينمو ويرتقي ليصنع دعاة إلى الله على هذا الطراز العملي الذي لا يكون أشد منه فيما بعد، ومن ثم فهو يحمل عوامل النجاح وأسباب الفلاح في هذه الدعوة إلى الله، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن خصائص دعوة الحق التي تختص بأنها قائمة على الحق لإحقاق الحق، وأنها ناصعة البيان، قوية البرهان، لتحرير الإنسان من رباق الإنس والجان، ومن ذل الطغيان قبل الحساب والميزان، حتى لا يبقى لأحد حجة بعد الرسل.

ولعل قوله ﷻ: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) هو المقصود من القصة وهو الذي يدور حوله هذا المعنى، حتى يكون إبطال ما يدّعيه بظهور الحجة وإقامة البرهان؛ لذا استعمل القرآن أساليب الدعوة إلى

التوحيد؛ للتعليم والإرشاد، كما قال ـ سبحانه ـ:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل:١٢٥]، وليس ذلك لأن فرعون سيهتدي إلى ربه وينتهي عن ادّعائه؛ لأن الله كتبه من الضالين، لكن ذلك كان على سبيل إثبات وحدانية الله أمامه؛ ليقتنع ويرجع عن عناده، فيطلق سراح بني إسرائيل من الأسر والتعذيب لهم وتكليفهم ما لا يطيقون من أعمال البناء والحفر ونقل الأحجار... كما هو مشهور في كتب التفاسير.

فالمراد قومه وليس هو على سبيل الخصوصية، ولذلك ألان سيدنا موسى قوله في الدعوة ليترك قومه، فإن في ذلك السلام والأمان له، قال تعالى: (قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)) وفي ذلك دعوة له في الظاهر؛ لأن الله ـ تعالى ـ سبق في علمه هداية فرعون أو ضلاله، فكانت الغاية من الآيات إثبات وحدانية الله ـ تعالى ـ أمامه قهرًا له وإصغارًا لشأنه، ثم تأتي دعوة فرعون بهذا الأسلوب (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)، لكن الأسلوب تعليم وإرشاد لسيدنا موسى وأخيه في المقام الأول كيف تكون الدعوة إلى دين الله أمام فرعون بصفة خاصة ثم إلى عموم الناس بصفة عامة؟

وكلمة اللين هنا دالة على معاني الترغيب وحُسْن العرض للدعوة؛ لاستمالة قلب المخاطب واستعطافه، خاصة مع شخصية عنيدة كشخصية فرعون؛ لأن نفْس الحاكم مستعلية قاسية لا تقبل القسوة والعنف ولا النزول على رغبة المتكلم بسرعةٍ، واللين في حقيقته اللغوية كلمة تطلق على صفات الأجسام، وهو رطوبة ملمس الجسم وسهولة ليّه، وضد اللين الخشونة، يُقال: ألان الشيء صيَّره ليّنًا [1]، كما في قوله الله لإمام أمة التلقي (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) [آل عمران:١٥٩].

(1) ابن منظور، لسان العرب، (ليَنَ).

وقوله: (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) الإتيان بالترجّي هنا في حق البشر؛ لتوقع الحصول أي: اذهبا راجيَيْن أن يتذكر أو يخشى ـ بالمضارع ـ وهذه الصيغة دالة على ترك فرعون مهلة من الزمن حتى يراجع نفسه ولو لم يرجع، وفي ذلك إشارة إلى تضمين الجملة معنى ما قبلها من اللين؛ فهو أسلوب يجعل المخاطب يفكر فيما يبلغانه طوعًا منهما، ولا ريْب أن الفعلين "يتذكر"، "يخشى" حاثان على النظر الدائم والتبصر للشيء بدقّة متناهية ومستمرّة في كل وقت من أوقات الدعوة، مما يدل على عدم العجلة في الاستجابة؛ ليتم غرض الإقناع بالحجة وفيما يراه فرعون من دلائل صدق موسى وهارون من آيات وعلامات.

وفي الخشية كذلك اعتقاد في الحق وعدم تردّد؛ "فيحتاط فرعون لنفسه بالأخذ لما دعاه إليه موسى". [1] وفي ذلك إشارة إلى أن التعليل بالتذكرة والخشية قائمان على إيجاد حسْن النية عند موسى وأخيه؛ لأن هذا الأسلوب أدعى وأقوم لإنهاء وبطلان ما يدّعيه فرعون.

وجملة (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) مستأنفة سيقت بعد تقديم عرض الدعوة على فرعون كما أمر الله ـ تعالى ـ، وكأنها مرحلة ثانية للانتقال إلى دعوة فرعون والدخول إليه مباشرة؛ "لأن غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل والأخذ في التهيؤ له:[2] وقوله: "أن يفرط" في الفرط كناية عن التعجيل بالعقوبة قبل بلوغ الحجة، وهذا أشدّ من الطغيان؛ لأن الطغيان سبب أصيل لمجيء موسى وأخيه إلى فرعون؛ لينزعاه من قلبه ويقتلعاه ـ أي الطغيان ـ من جذوره. وقد جاء الفرط مقدمًا على الطغيان؛ إشارة إلى أنهما لا يطيقان ذلك من فرعون؛ "فهو انتقال من الأشدّ إلى الأضعف" [3] أو أن الطغيان منه كان أمرًا متوقّعًا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 226/16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 227/16.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 227/16.

هذا ومما يرشح غرض القصة هنا وهو إظهار ما أيد الله به موسى وأخيه؛ لإبطال ما ادّعاه فرعون من الألوهية والربوبية ما ذكره الطاهر ابن عاشور؛ "وجملة "قد جئناك بآية" فيها بيان لجملة "إنا رسول ربك" فكانت الأولى إجمالا والثانية بيانًا، وفيهما معنى التعليل؛ لتحقيق كونهما مرسليْن من الله بما يظهره الله على أحدهما من دلائل الصدق". (1)

"وخُصّ الرب بالإضافة إلى ضمير فرعون؛ قصدًا لأقصى الدعوة؛ لأن كون الله ربهما معلوم من قولهما "إنا رسولا ربك" وكونه رب الناس معلوم بالأحرى؛ لأن فرعون علمهم أنه هو الربّ". (2)

وهذا الكلام من ابن عاشور ـ رحمه الله ـ معناه قطع الحجة على فرعون بأن الله واحد لا شريك له، وأنه رب فرعون ورب من علمهم فرعون بأنه رب الناس، فكأن كلمة (رب) سيقت في الجملتين لإخراس ألسنة فرعون وقومه، ثم لإعلامهم بأن الإله الحقيقي ناصر من ينصره، وأنه ـ سبحانه ـ سيمكّن موسى منه، لأنه رباه ورعاه وحفظه لأداء هذه المهمة شاء فرعون أو أبَى.

6- الحوار بين فرعون وموسى حول صفة الربوبية:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)) [طه:٤٩–٥٥].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 229/16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 229/16.

ويأتي هذا المقطع منجما ليزيد الدعاة إلى الله إرشادا وتعليما، وتحصينا وتحريزا استكمالا لقاء العدو حال التبليغ أول مرة، وأن الخصم لديه كتائب من الشياطين توحي إليه بفنون الصراع الفكري صدا وردا ودرءا للخطر الذي يخشاه الباطل عند مجيء الحق، ولا بد أن يكون الداعي إلى الله لبيبا فطنا لما يمكن أن يكون من حجج متوقعة في مجادلة ومحاورة الخصم الذي يستميت في الصد عن الحق وإنكاره بتشتيت، أو تلبيس، أو شبهات، أو جحود، أو نحو ذلك من ألاعيب وخداع وافتراء، لأن الخصم أحرص ما يكون على هزيمة رسل الحق المبين.

فجاءت هذه الآيات تقدم خطابا دعويا رشيدا عالج فيه شؤون (الربانية) من نعم على الخلق وحق العباد على ربهم، ثم ثنى بحقوق (الإلهية) على خلقه وعباده وعياله، أمام سلطة جبروتية مؤسسة على قواعد نصرة الشيطان بكل قوى الإفساد في الأرض، قوة ادعت زورًا أنها (الرب)، وأكرهت الناس كذبا على أنها (الله)، فجاء الخطاب هنا معلما في هذا المقام ما يقتضيه من مقال، وهو درس يتعلم منه الدعاة إلى الله، ويتعلم منه كل من له صلة بفنون البيان الأدبي الرصين.

فجاء هذا المقال جامعا لأسس دين الله وتبيانا لكل شيء في الكون ذرة أو مجرة، دنيا، وآخرة، ردا على فرعون؛ إذ أنكر ربوبية الله ـ تعالى ـ، وبيانا أن الله هو الذي خلق الخلق وأعطاهم من تمام نعمه وآلائه التي لا تحصى ولا تعدّ ثم هداهم إلى الحق وخلق فيهم العقل وهذا لمن كتب الله له الهداية ونعمة التوفيق للإيمان، ونعمة التوحيد والعمل بمقتضاها.

وعندما سأل فرعون موسى –مكرا وكيدا– عن القرون الماضية، قال له موسى بحصافة عقل وفصاحة بيان: (علمها عند ربي)، تفويضا لربه؛ حتى لا يشتت ذهنه ولا يصدّه عن أداء المهمة فاختصر معه الكلام، ثم بين له أهم صفتين من صفات الربوبية وهما (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)، فهو ـ سبحانه ـ الذي مهد الأرض وذلّل صعابها وأنزل من السماء ماء.

وكأن كلام موسى عليه السلام هنا تمهيد وسؤال لطيف منه إلى ربه أن يتكلم الله نفسه عن نفسه، ويلفت السياق بعدول عن ذكر الله غيبا إلى أن يذكر الله نفسه بنفسه، فيقول دمجا وبيانا إلى صحة إقرار الله لكلام موسى السابق: (... الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)، فأدخل الله كلامه قائلا: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55). وهذه لفتة لا يستهان بها، لأنها تشع فيضا من معية الله لرسله حال تبليغهم الحق، ولا يجوز أن يقف باحث غافلا عن هذه اللفتة التي ما كانت إلا تعميقا لبيان سر التنجيم، لأنها نقلة نوعية من الحديث عن موسى وفرعون إلى محمد وقومه، إرشادا له وتعليمًا للدعاة إلى الحق حتى تقوم الساعة، وفي واقع الأمر أن مثل هذه اللفتات يجب أن تدرس في إطار بياني يبز أنها نوع من أنواع الارتقاء بمنهجية التنجيم وطرقه التي وصلت إلى هذا المستوى الدقيق.

7- اتهام موسى بالسحر:

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)) [طه:٥٦-٧٦].

ويأتي هذا المقطع أيضا معززا لمعنى دمج الحديث عن المتلقي المتعلم وهو الخلف، مع الحديث عن المعلم وهو السلف، بل إن هذا المقطع يتصدر بإيثار تقديم ما يخص المتلقي، فيقول الله تعالى استكمالا للمقطع السابق: (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56))، ثم يمضي الحديث عن مجاهدة موسى لفرعون

في شأن معترك السحر، ويمكن هنا التنبيه على أسرار التنجيم، وما أكثرها، والتي تفتح آفاقا عملية لأمة التلقي لنصرة دعوة الحق، ومن أهمها:

– تذكير موسى للعلماء الذين هم قوة فرعون ألا يفتروا الكذب، وتأثيره فيهم.

– ذكاء العلماء بمكيدة لطيفة في صورة السحرة التائبين الشاهدين بالحق الصادعين به في وجه فرعون مؤثرين الله والآخرة على فرعون ودنياه، فهم أظهروا للعامة أنهم ينصرون فرعون، وأبطنوا نصرة الحق عند ظهور الحق بعصا موسى الحية التي تسعى.

– ومنها معية الله لموسى وطمأنته أنه هو الغالب لا المغلوب، وإرشاده بإجراءات عملية ميدانية تعصف بفرعون وتقصف جبهته، وتقلب موازين المباراة أما أعين الجماهير المحشورة بالإكراه ليروا هزيمة فرعون وتبديد ملكه.

– ومنها التلويح بما عند الله للتائبين من خطاياهم وإن كثرت: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)). وهذا نمو قصصي مدمج لطيف المعاني جميل المأخذ، يحرك جماهير القوم نحو إصلاح أنفسهم والإقبال على الحق ليعرفوا ربهم، ويعبدوا إلههم الواحد الأحد، تزكية لأنفسهم.

وبهذا يتألق سر التنجيم القصصي لأنه يصنع دعاة إلى الله، ويستنقذ الناس ويحررهم من رباق الذل وقيود الطغيان، ليكونوا برآء من فرعون وعمله، وينالوا شرف أنهم أنصار الله، وأنهم أولياؤه وأحباؤه بالحق الحقيق.

8- إغراق فرعون وجنوده في البحر وتمكين بني إسرائيل:

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)) [طه:٧٧–٨٢].

وسر التنجيم القصصي هنا يظهر فيما يلي:

– من معطيات قوله ﷻ: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77)): التلويح بفرض الهجرة بالحق في سبيل الله، مع الالتزام بمقتضيات وآداب الهجرة في الله.(1)

– ومن معطيات قوله –عز وجل–: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) تجلية نصرة الله لرسله في الدنيا، ما في قول الحق –عز وجل–: (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر:51]، و(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [المجادلة:21]، ولم يحدد مقدار الماء الذي غشيهم، وترك المسألة مبهمة ليكون المعنى أبلغ، ولتذهب الظنون في هولها كل مذهب.(2)

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ ٩٣٣٧.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 16/ ١٠٠٦٦.

- ومن معطيات قوله -عز من قائل-: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81): إنذار أمة الحق من كفر نعمة التمكين والحذر من مهاوي الضلال بعد الهدى.

- ومن معطيات قوله -عز من قائل-: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)): إرشاد أمة التلقي إلى أن الله قد ضمن لهم الخروج من الخطايا بالتوبة قبل أن يقعوا فيها، تحصينا لهم من اليأس والقنوط من رحمة الله، مهما أسرفوا على أنفسهم.[1]

9- تكليم الله موسى، وفتنة السامري بصناعة العجل:

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)) [طه:٨٣-٨٩].

ولأن تنجيم القصة مُنطلَقُه الإحاطةُ الشاملة لكل جزئيات صناعة الدعاة إلى الله، فلم يغب عن هذا التنجيم تعاهد القوم إذا ما نكصوا على أعقابهم، حتى إنه يجب التسليم أنه امتحان من الله لا مفر منه، فالبيان القرآني يكاد يصرح بهذه الحقيقة، فقال: (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85))،

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 13/ ٨٢٤٣.

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس؛ لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه وهذا ملمح هام، وهو من سنن الدعوة إلى الله، فكان سر التنجيم مقيدا بهذا الملمح تقييدا عظيم الأثر في خارطة التلقي، ثم إن من الأسرار التي تقف من وراء التنجيم في هذا المقطع أن الرسول الداعي إلى الله يجب أن يتحصن ويعتصم من مغبة هذا المزلق الذي ينسف دعوة الحق ويذهب بها في الأخطار والضلال البعيد.[1]

10_ محاورة موسى لأخيه هارون والسامري في شأن الذين عبدوا العجل:

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)) [طه: ٩٠–٩٨].

إن من أسرار التنجيم هنا، بعد مراجعة أسباب الفتنة والتحقيق المتجرد للحق، مجاهدة مفاتيح الشر وتغليقها، ومقاومتها بالحجة البالغة، ومما يلفت النظر أن موسى في تصديه للسامري لم يقتله ولم يغتله، بل تجنبه واعتزله ما دام حيا، وفي هذا بيان إرشادي أن دعاة الفتنة يلزم حيالهم التصدي بمقارعة الحجة بالحجة، والفكر بالفكر، لإزالة الشبهات من طريق المفتونين بهم، وهذه شجاعة وقوة تلزم الدعاة إلى الله في معالجة

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1/ 340.

أسباب الفتن والإضلال، وإثارة حوافز التفكير والتفكر، وإحياء نشاط العقول، وحراستها من الهوى والغوى، والانغماس في مخالطتهم لإصلاحهم.(1)

عاشرًا: سورة المؤمنون، وفيها موضع واحد

_ استكبار فرعون وجزاؤه بعد نزول الآيات والكتاب:

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49)) [المؤمنون:٤٥–٤٩].

ربما يقول قائل: هذا موضع مختصر جدا من قصة موسى، فهل تتوقف عليه فائدة، وهل يجوز لمثل هذا البحث الوقوف عنده، والإجابة على هذا كله، أن فائدته يكفي لبيانها أن البيان القرآني ذكر هذا المقطع، وهو يعطي معنى أن الله تعالى- لا يبالي بمصارع المهلكين المستحقين، تشفية لصدور الدعاة إليه، فالله وفّاهم حقهم من البلاغ المبين، وأرسل لهم رسوله بالكتاب المستبين، فما ظلمهم، بل جعلهم عبرة للأمم.

فقد أبرز البيان القرآني ضعف حجتهم، وسخافة رأيهم، وكما قيل: "وهذه القصص ـ كما ترى ـ تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس على حال الأنبياء على أحوالهم، بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومهاوي النقصان، ومن العجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر، وقَدْ رضي أكثرهم للإلهية بحجر".(2) ثم إن الله بعد إهلاكهم قد مكن لموسى بآلات الإصلاح

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1/ 340.

(2) الألوسي، روح المعاني، 237/9، بتصرّف.

لقومه، ومن ذلك آتاه الكتاب هدى لبني إسرائيل، إشارة إلى أن أهم عقبة في طريق الدعاة إلى الله أهلاك الصادين عن الحق المستكبرين عن اتباعه، المفسدين أتباعه ظلما وعدوا.

الحادي عشر: سورة الفرقان، وفيها مطلب واحد

- عقوبة فرعون وملئه؛ جزاء تكذيبه نبوّة موسى عليه السلام:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36)) [الفرقان:٣٥-٣٦].

هذا موضع موجز إيجازا عجيبا ملخص تلخيصا معجزا، لكن الشيء الذي يجب أن يقف عنده البحث هو أن بناء هذا الموضع جاء سر تنجيمه في أن الدعوة إلى الله هي التي صبغت معناه ومبناه، فهو حديث عن رسولي الله موسى وهارون، ودعوتهما، تعليما وإرشادا لرسول الله محمد وأمته، فالدعوة والتربية عليها واصطناع الدعاة إلى الله هي لب هذا الموضع، هي قلبه وقالبه، ومن ثم فإن الدعوة إلى الله هي سر التنجيم القصة القرآنية، وهي سر التنجيم في هذا الموضع لأن مفرداته كلها إنما هي من حقل الدعوة ومن معجمه اللغوي: كتاب الله، والذين أرسل إليهم، والمرسلين، وموقف القوم، وعاقبتهم، وهذه هي أدوات الإصلاح لكل قوم، الدعاة المرسلين صف واحد، كيان منظم، محكم، متين، أشبه بمؤسسة إدارة حكومية تتدارس شؤون الدعوة، تفحص كل خصائصها، تعنى بأسباب نجاحها، وإبراز معالمها وسننها، كل نبي واجه تحديات فريدة في دعوته للإيمان بالله، مثل صبر موسى عليه السلام أمام فرعون وثبات محمد صلى الله عليه وسلم في مواجهة الشرك.[1]

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 17/ 440.

ومن ثم فإن هذا هو المنهج، والمنطلق الذي به تفسر مفاتيح هذا المقطع المنجم، فالله آتي موسى كتابا، ومكن له بوزارة أخيه، وألف بين أفراد مؤسسة الدعوة إلى الله، وكلفهما الله بالرسالة إلى القوم الذين كذبوا، فكانت عاقبة تكذيبهم التدمير، وهذا هو الإرشاد الذي تتعلمه أمة التلقي، أنها تنال شرف الكتاب، وشرف المؤسسة الدعوية، وشرف الرسالة، وشرف الشهادة على المرسل إليهم، وشرف التبليغ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

الثاني عشر: سورة الشعراء، وتتناول ثلاثة مواضع

1- امتنان فرعون على موسى بتربيته:

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)) [الشعراء: ١٠-٢٢].

فهذا الموضع موضوعه الدعوة بمفرداتها، وسننها، وآدابها، وحقائقها، وعواقبها، وعبرها، وعلمها النظري والعملي، مثال مر به موسى مع القوم الظالمين، ليتعلم منه محمد وأمته، وهذا هو مفتاح خزائن أسرار التنجيم القصصي، مصنع تعليم الدعاة إلى الله، وقوانين اصطفاء الله لهم، وصبرهم الجميل، ألم يقل البيان القرآني هذا المعنى بكلام كاد أن يصرح بحقيقة ما توصل إليه البحث من أن القرآن كتاب بيان لتعليم الدعاة إلى الله: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ

سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) [الأحقاف:35]، وقال أيضا: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ. وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ. إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام:33-35]. ومن ثم فهذا هو موسى في هذا الموضع يتباهى بشرف أنه رسول الله من المرسلين، فقال: (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

ففي هذا المقطع كم حاول موسى بحرص شديد أن يحافظ على نجاح الدعوة وحراسة حقها، فقال: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14))، ثم ها هو يفحم فرعون بهذا التوبيخ الموجّه إليه حين قال: (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، واسم الإشارة (تلك) عائد على التربية المفهومة من قوله: (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) وبجانب تلك النعمة أن اتخذت بني إسرائيل عبيدًا لك تسخرهم لخدمتك، كأنه أراد أن يقوله له: أيّ نعمة وأيّ امتنان تتحدث عنه وأنت بذلك الحال مع أقرب الناس إليك وهم قومك؟! لذا كان هذا الردّ من موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون على سبيل التهكم والإنكار عليه فيما امتنّ به عليه؛ لأن حقيقة تربية موسى إنما مرجعها إلى الله ـ عز وجل ـ كما قال: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) و(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)، وإنما جعل الله فرعون سببًا في أن ينشأ موسى بين هؤلاء؛ لمعرفة أحوالهم ودراسة ما هم عليه من ظلم وطغيان حتى إذا ما بُعث فيهم وأُرسل إليهم كان أعلم الناس بأحوالهم ومحاجتهم ومجادلتهم، وكأنه أراد أن يبين له أن استقباله له في بيته وتربيته له كانت لأسباب خارجة عن إرادته وقدرته، وأن ذلك كان لحكمة وسرّ إلهي أراده الله ـ عزّ وجلّ ـ. وقد ذكر الزمخشري في الكشاف قوله: "ثم كرّ موسى على امتنان فرعون

عليه بالتربية فأبطله من أصله واستأصله من سنخه - أي أساسه - وأبى أن يسمي نعمته إلّا نقمة؛ حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل؛ لأن تعبيدهم وقصدهم بالذبح لأبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته، فكأنه امتنَّ عليه بتعبيد قومه، وتذليلهم واتخاذهم خدمًا له وعبيدًا...". [1] ولذا جعل ابن عاشور جملة (أَنْ عَبَّدْتَ) لزيادة تقرير المعنى مع ما فيه من قلب مقصود فرعون، وأن كلام موسى نقض لامتنان فرعون بقلب النعمة نقمة باستئصاله بني إسرائيل واستعبادهم، وفيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه لا يزيد إلا إحسانًا ولا منّة. [2]

وما هذا إلا لأن موسى صار علما للدعاة إلى الله، ولهذا فقد ذكره الله في الكتاب، وجعله الله مرشدا لهم، به يتأسون أسوة حسنة، وبه يقتدون قدوة طيبة، وعلى هذا كان مدار التنجيم.

2- محاورة موسى وفرعون عن رب العالمين:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف 306/3 بتصرّف يسير.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 15/19 بتصرّف.

السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)) [الشعراء:٢٣-٥١].

إن سر التنجيم هنا لا يعيقه أن فحوى هذا الموضع قد سبق ذكره، أو تكرر بعد الحديث عنه، لكنه ليس تكرارا، إنما هو مرات يتولّى الله بها الأمة التي تتلقى هذا الكتاب، وعليه تتربى، ومنه تتعلم (علم الدعوة)، الأمر الذي يدفع بالبحث إلى أن يقرر أن ذكر المعاني التي سبق ذكرها في هذا المقطع ليس من باب الفضول الذي لا يحتاج إليه، إنما المرجع في ذلك أن المقاطع ذات المعاني الواحدة أو المتقاربة، في القصة الواحدة، فضلا عما بين بعضها من فروق لغوية ودلالية، إذا ما نظر إليها الناظر لا يلبث أن يجد أن بينها حركة تنامٍ تتصاعدُ وتزيد المتلقي منها بلطافة وانسيابية تتغلغل في الوجدان وتؤثر فيه تأثيرها الممتع، بما يقطع أنه لا غنى عن ذكر كل موضع في موضعه بنصه وفصله.

إن هذا المقطع تتجلى فيه براعة الداعي إلى الله، وحسن إدارة الحوار، وإثارة عقول المدعوين بالنظر في آيات الله اليقينية في آفاق الكون والمسلمات البدهية، لبناء سلامة الدين في القلوب والعقول، وتحريرها من جمود الفكر، وتبعية النظر، والتغلب على موانع الفهم، ومخاطبة وجدان القوم، وفتح نوافذ الفقاهة، وسلامة الفطرة، ومن ثم فقد قام بجهود كبيرة في حرب أشبه بمعترك الفكر والثقافة، فقلب دفة الحوار على فرعون، وما إن سأله فرعون عن رب العالمين حتى انهالت الإجابات عليه، والقوم شاهدون، وبهذا يظهر في هذا المقطع أن براعة موسى في الحوار من أهم أسس الدعوة إلى الله، ولقد جاء سؤال فرعون بردا وسلاما

على موسى، سؤال قد تعلم موسى إجابته تلقيا عن رب العالمين نفسه، فتحدث عنه حديثا شيّقا، جلى فيه معالم الدين، وأبرز فيه أحقية الله بالعبادة، والعجيب أن يكون فرعون هو السائل، وموسى هو المجيب.

ولقد تصدى موسى ﷺ لعدول فرعون عن رسالته ﷺ واعتراضه على الدعوة، ولفت أنظار القوم والسحرة بما يموّه به عليهم تمرده وطغيانه؛ لئلا يرجعوا عنه ولا يتركوه؛ ظنًّا منه بالغلبة والنصْرة عليه، فأجاب موسى: (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)، مما يدل على أن ما يهدف إليه فرعون لا يؤثر في نَفْس موسى ــ عليه السلام ــ، بل يزيده صبرًا وثباتًا على إقامة الحجة والتبليغ وحماسة لما يرجوه ويأملهُ، فأعطاهم مثالا حيًّا واقعيًّا من دلائل قدرة الله ووحدانيته في الكون يرونه ليل نهار، فقال: (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) أي ربّ جهة طلوع الشمس والنهار، وجهة غروب الشمس وغروب النهار، وبذلك يكون قد أخرس لسانهم بهذا القول؛ لأن مثل ذلك لا يستطيع فرعون الإتيان به، فأوقفهم عاجزين أمام أنفسهم بما لا يتجرأ أن يأتي أحدهم بمثله، وخص المشرق والمغرب؛ "لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته؛ ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لا يجرؤ ولا يملك ادّعاء تصريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة، والتي لا اختلال فيها ولا اضطراب"،[(1)] والمقصود الانتقال بفرعون إلى ما لا قِبَل لهم بجحده ولا التباسه وهو التصرف العجيب المشاهد كل يوم مرتين.[(2)] ثم يزيد سيدنا موسى من حرصه على إيمانهم وإقبالهم على ربهم، فيقول (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون)، واختيار لفظ "تعقلون" هنا مناسب للمقام والسياق؛ لأن إنكارهم للألوهية وإثباتهم لفرعون الربوبية أمر خطير يحتاج إلى تدبّر وتعقل ونظرٍ، ينتقل بهم من حجة إلى حجة ومن أسلوب إلى أسلوب ومن مثال إلى آخر؛ دعوة منه إلى التفكر والتأمّل والتعقل بذهنٍ واعٍ وقلب حصيف وعقل ثاقب بصير يتبصر الأشياء بحكمةٍ ورويَّةٍ وبصيرة نافذة دون أدنى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 120/19 بتصرّف.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 121/19 بتصرّف.

شكٌّ في قبول رسالة الحق، فجاء قوله: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون) "تنبيهًا لمعاودة النظر فيدركوا وجه الاستدلال؛ كي يُعملوا عقولهم، ومن اللطائف جعل ذلك مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون؛ لأن الجنون يقابله العقل، فكان موسى يقول لهم قولا ليّنًا ابتداء، فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول وعارض قول فرعون... فقال: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون)، أي إن كنتم أنتم العقلاء، أي فلا تكونوا من المجانين".[1]

وقد استطاع موسى عليه السلام بهذا الحوار أن يلجئ فرعون الذي يظهر عجزه البيّن أمام الجميع بقوله لموسى: (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)، وهذا أسلوب يحمل في طياته تهديدًا ووعيدًا لموسى؛ لأن فرعون قد شعر بأن حجة موسى قد أخرسته وألقمته حجرًا لا يستطيع مقاومته، فلجأ إلى هذا الأسلوب الدال على شأن الطاغية عندما يعجز عن دفع الحجة بالحجة.

وثمّة سؤال هنا، لماذا قال الله ـ سبحانه ـ على لسان فرعون: (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) دون: لأسجننك؟ والجواب أن (لأجعلنك) أقوى في النكاية والنكال بمن يريد فرعون تهديده دون السجن المباشر، وكأنه بذلك يعطيه فرصة السماع والمشاهدة عما يفعله بشأن المسجونين عنده من عذاب أليم وطغيان مبين؛ ليكون أدعى للخوف والرهبة مما يرى ويسمع، وأدعى كذلك للردع والزجر والانتهاء عمّا يهمّ المخاطَب بفعله، وفي ذلك يقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ:"وكان من عادة فرعون أن يأخذ من يريد سجنه فيضطره في هوّة ذاهبة في الأرض، بعيدة العمق فردًا، لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشدّ من القتل".[2] وذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ:"أنه سلك في ذلك طريق الإطناب (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)؛ لأنه أنسب بمقام التهديد؛ لأنه يفيد لأجعلنك واحدًا ممن عرفت أنهم في سجني، فالمقصود هنا تذكير موسى بهول السجن".[3]

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 121/19 بتصرّف.

(2) الزمخشري، الكشاف، 309/3.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 122/19.

ثم يظهر سيدنا موسى قوّته أمام فرعون، وأنه غير مبال ولا مكترث بما يقوله، فيقول: (أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ) مما يدل على شجاعة سيدنا موسى وعدم خوفه من التهديد والوعيد، وهذا واضح من خلال هذا الاستفهام، وغرضه: الإنكار، والواو هنا عاطفة على كلام محذوف تقديره: أتفعل ذلك بي والحال أنك تجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيء مبين؟ وكلمة (شيء مبين) هنا كناية عن المعجزة التي يؤيد الله بها نبيّه موسى ـ عليه السلام ـ، وعبّر عنها بالشيء المبين الواضح الذي لا خلل فيه ولا اضطراب؛ لتكون المعجزة بيّنة وعلى مرأى ومشهَد ومِسْمَع من الناس، فلا تكون حجة، ولذلك يقطع عنه الأعذار من كل جهة.

ومراد موسى هنا هو الانتقال بفرعون مرّة أخرى إلى الحديث في شأن الرسالة التي جاءه من أجلها بعدما رآه يحوّل مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد، وتنبيه قومه إلى التعجب مما قاله، وبهذا يكون ـ عليه السلام ـ قد سدّ منافذ الهروب عليه أمام قومه، وإثبات عجزه وضعفه أمامهم، هذا العجز الذي شعر به فرعون حين قال لموسى ـ حيث كان لا يملك إلا ذلك القول وقتئذٍ: (فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، وفي استخدام فرعون "إنْ" الدالة على الشكّ في خطابه لموسى في قوله: (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) دلالة على مَكْرِهِ وكَيْده، وأنه ما زال يراود موسى ويراوغه في شأن الرسالة، فكان الحرف (إن) إيماء إلى: "أن في كلام فرعون ما يقتضي أن فرض صدق موسى فرض ضعيف... فبقي تحقيق أن ما سيجيئ به موسى مبين أو غير مبين".[1]

ولقد نجح موسى في الحوار، وأثمر كلامه في الحاضرين وفيمن بلغهم؛ حتى كان ما كان من السحرة الذين صاروا كراما بررة، فقالوا كلمتهم في وجه الطاغية الأكبر: (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء:51].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 123/19.

3- هلاك فرعون وجنوده وإنجاء موسى والمؤمنين:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)) [الشعراء:٥٢-٦٨].

ويتجلى هنا سر التنجيم في أن هذا المشهد يعد من أهم مشاهد الدعوة إلى الله، حيث يتجلى فيه معية الله، وتبرز فيه يد الله التي تعمل الضدين معا، إنجاء، وإهلاك، ويجعل الله كلا منهما في موضعه المصيب دونما خطأ، حتى إنه يختم المشهد بثنائه على نفسه باسمين عظيمين من أسمائه الحسنى، باصطفاء لهما دقيق، وترتيب بديع، ونظم حكيم.

ثم يأتي حظ المتلقي بصورة صريحة منفصلة فيختم الله ـ سبحانه وتعالى- الموضع بقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)). وقد دلت الآيتان على عظيم قدرة الله وتمام وحدانيته فيما فعله بفرعون وقومه؛ تعليما للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- والمعنى: أن الله ـ تعالى ـ جعل عقاب فرعون من جنس عمله، فكان ذلك العقاب آية عظيمة وعلامة على إخلاص الأمم العبادة والطاعة لله، وعلامة كذلك على كل من تسوّل له نفسُه الخروج عن طاعة الله وجحو نعمه، لكنها طبيعة البشر التي أخبر عنها القرآن (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، لذا قال ـ سبحانه ـ هنا: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)؛ إشارة إلى أنه مع وجود الجزاء العقاب، والمعجزات إلا أنه لم يؤمن بنبي الله موسى إلا عدد قليل.

أما قوله ﷻ: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) فالخطاب . أيضًا . لسيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم .، وإخباره بقدرته . سبحانه .؛ فهو العزيز: أي الغالب المنتقم الذي لا يُقهر .كما قهر أعداءه وأعداء موسى، الرحيم: الواسع الرحمة بأوليائه .كما وسعت رحمته موسى ومن معه .. وفي ختام القصة دليل على أن الملك لله . سبحانه . وأن السلطان سلطانه . سبحانه . وأن القصة برمّتها عظة وعبرة لقوم يؤمنون.

إن سر التنجيم يبدو هنا بملامح عولمة دعوة الأمم، أو ما اصطلح عليه بعض الدارسين وسموه (عالمية الرسالة)، وإنه لبيان بليغ بإحاطة شاملة، واستقصاء تام، وتقديم خارطة عالمية بين يدي الدعاة إلى الله، تبين عاقبة المتقين، وعاقبة المفسدين، وعاقبة الظالمين، وعاقبة المجرمين، وعاقبة المكذبين، وعاقبة الذين من قبل، إنه تاريخ الدعوة، يدرسه الدعاة تبصرا واسترشادا، لأن الدعوة إلى الله علم، وفن، وصنعة، وذوق، وحق، وواجب، وهي السبيل المنجية مع الرسل.

الثالث عشر: سورة النمل، وفيها موضع واحد

- موسيعليه السلام يتلقى أول درس في الدعوة إلى الله:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) [النمل:7-14].

إن هذا الموضع جمعٌ موجَز بمذاقٍ بياني جديد، قد سبق ذكر مضمونه، وتعددت مواضعه، لكن السر الذي يلوح في آفاق النظر أن هذا التعدد للموضوع الواحد موزع بين أحيان وسور، وإن وجوه المعاني التي يرد بها الموضوع الواحد، مع ما بينها من مماثلة أحيانا، أو زيادة، أو نقص، أنساق متجانسة تجانسا ذا خصائص تامة أو ناقصة، إنما تشهد للموضوع الواحد بصدق الحديث في كل مرة، ولعل هذا يحقق معنى قرآنيا لطيف المأخذ يمكن فهمه من نحو قول الله –سبحانه-: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا) [النساء:82]، فكأن كل موضع يشهد لبقية المواضع، لم يختلف منها موضع في مساقه، وهذا لون معجز يجب التنبه له من قبل الباحثين، فهي مواضع شواهد يشد بعضها بعضا، تتآلف، وتتفق، لأنها جميعا من مشكاة واحدة، من عند الله، لا من عند غيره، يأتي كل موضع بسياقه، وبمذاقه، نظرا لحال الدعاة إلى الله.

فها هو جو البرد الذي به بدأ حديث هذا الموضع، حال شديدة يمر بها موسى وأهله، والواقع الذي يريد التنجيم أن يشير إلى سره هو أن موسى لم يتحرك إلا لأجل الدعوة إلى الله، فهذا هو فرعون الذي منه فر موسى هاربا من بطشه قبل، وبعد عقد من الزمان يرجع إليه موسى لأن الله جعله من المرسلين، مع أنه قد بلغ أشده واستوى قبل هذا، لكن لم يكلفه الله بالرسالة إلا بعد أن لبث في مدين سنين.

فيُقبل موسى في خلوة مباركة على ربه الذي اختاره وناداه واصطفاه، وعلمه، وإذا بالنار نورٌ، فيتلقى وحي ربه، ويتعلم أول ما يجب علمه أنه لا إله إلا الله، ويقص الله من قصة موسى هنا ما يفيد وجوب تفقه الدعاة إلى الله والعلم بالله، قبل الرسالة، وأن الرسول قد تلقى من ربه دون واسطة، ثم أَمَّن الله موسى من كل خوف، ودربه على قوة القلب التي تستلزمها الرسالة، وبين له فريضة الصدع بالحق وتغيير المنكر بما يستطيع الرسول.

والبيان القرآني إذ يقص هذا القصص يجلي حقيقة ما كان من موقف القوم الذين أرسل إليهم الرسل، حتى لا يضل المتلقي، وسر هذا إنما هو التسليم بأن هذا الموقف متوقع من كل قوم إلا أن يشاء الله شيئا، بل ويذكر في كل موضع عاقبة القوم، حتى إنه صار من الثابت في قص كل موضع أعمدة لا تسقط ذكر الرسول، والمرسل إليه، والرسالة، وموقف المرسل إليه، وعاقبة موقفه، والعبرة للمتلقي، ربما يكون الحديث في موضع بإطناب، وآخر بإيجاز، لكن الثابت في كل منهما ذكر أعمدة الموضوع، وتجلية أسس القص، وربط التنجيم بسر السياق الذي يقتضي البيان مراعاة للمتلقي الذي يسترشد ويتعلم علم الدعوة إلى الله.

ومن ثم يوجه الله نبيه محمدا –صلي الله عليه وسلم-: «فانظر» كيف كان مصير هؤلاء الذين أنكروا وحدانية الله وجحدوا آياته وأفسدوا في الأرض؛ إذا أغرقهم الله في البحر، وفي ذلك العظة والعبرة لمن تسوّل له نفسه أن ينكر شيئا مما أنزله الله من الكتب والرسل والمعجزات، وأنه لم يعد غريبا ما يمكن أن يكون من قومك إذا دعوتهم إلى الله، وفي ذلك "تعريض بتهديد المشركين يمثل تلك العاقبة". (1)

الرابع عشر: سورة القصص، وتتناول سبعة مواضع

1- بداية قصة موسى وفرعون ونصرة الله للمستضعفين:

(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)) [القصص:١-٦].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 223/19.

إن أول ما يمكن ملاحظته هنا في استكشاف سر التنجيم تقديم ذكر موسى على فرعون، لأن هذا يصب في كون القص تعليما للدعاة علم الدعوة، ثم إيثار كلمة (نبأ) على مرادفاتها نحو (خبر)، دعما لكون الغرض كله منصب في بيان علم الدعوة، والتشويق لبيان العبرة، وإشارة إلى كون علم الدعوة ما كان ليعلم به المتلقي إلا بمنة من الله وفضل، ثم إن هذا الموضع فيه حظ لكل مستضعف، وبيان لمعية الله له حتى يصلح له الدنيا بالدين، وإنما السبيل في ذلك الرسول الذي يتحرك بالدعوة إلى الله لتغيير أكبر المنكر، وأخطر المفاسد، مؤسسة الشيطان الذي اتخذ الكافرين أولياءه قوة له وعونا على مراده من دين الله وعباده.

حتى ذكر ابن عاشور العلّة والغرض من إظهار (الذين استضعفوا) دون إيراد ضمير الطائفة؛ "للتنبيه على ما في الصلة من التعليل؛ فإن الله رحيم لعباده، وينصر المظلومين المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وفي ذلك إشارة إلى أن حقهم الإظهار وليس الإخفاء". (1)

وفي عطف هذه الأربعة المخصوصة بالذكر (جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، ومكّن لهم في الأرض، وأن يكون سلب ملك فرعون على أيديهم دون غيرهم) على قوله: (أن نَمُنَّ)، والمنّ عام، فكان اختصاص هذه الأربعة؛ لزيادة في معنى الانتصار والنعمة والتأييد لهؤلاء المظلومين المستضعفين عن أي نعمة أخرى، وزيادة قهر وذل وهوان لفرعون وإسقاط ملكه، فكأن ذكر هذه الأربعة المخصوصة جاءت نكاية ونكالا ووبالا على فرعون؛ لأنها من جنس إذلاله وطغيانه الذي نشره على هؤلاء أيام القهر لهم واستعبادهم وتسخيرهم لخدمته، ويفسر ذلك ابن عاشور فيقول: "فأما جعلهم أئمة فذلك بأن أخرجهم من ذل العبودية، وجعلهم أمّة حرة مالكة أمر نفسها لها... وأما جعلهم الوارثين فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكمهم فيهم، فالإرث مستعمل مجازًا في خلافة أمم أخرى".(2)

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 70/20 بتصرّف.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 71/20.

ثم إن قوله: (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) راجع إلى مضمون قوله: (وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)؛ فالإرث ملكية وتمليك وتملك للشيء الموروث، وفي الكلمة معنى القهر والذل في نفس فرعون، "يعني أن أملاك فرعون وقومه صارت بين أيديهم، يخلفونهم في مساكنهم"(1) لذا قال ﷻ: (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)؛ حيث إن الذي كانوا يحذرونه هو الخوف من ظهور غلام من بني إسرائيل يكون هلاك فرعون وجنده ودياره ورضه على يده، فكانت حكمة الله أن أهلك فرعون على يد موسى الذي كان يخشاه وأراد قتله، وفي ذلك تمام العظة والعبرة من القصة، وهو أن إرادة الله ـ تعالى ـ كائنة لا محالة مهما احتاط البشر واحترسوا.

وقوله: (فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ) على سبيل الاختصاص؛ "لكونهما أكبر طاغية وقتئذٍ، ففرعون هو المدبر، وهامان وزيره المنفذ، ثم ذكر «جنودهما» ويطلق على العسكر؛ لأن عملهم واحد وهو خدمة أميرهم وطاعته، وظاهر هذه الخدمة والطاعة أنها كانت في الفساد لما يريدانه". (2)

2- نجاة موسى عليه السلام من فرعون ورجوعه إلى أمه ونبوّته:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

(1) البغوي، تفسير البغوي، 522/3.

(2) ابن عاشور، التحرر والتنوير، 73/20.

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)) [القصص:٧-١٤].

وهذا الموضع يتجلى فيه معية الله الفعال لما يريد، فكل شيء في الكون في قبضته، حتى مملكة فرعون، حتى الشيطان وجنده، يقهرهم على عمل ما يريد، ويمكن للحق رغم أنف الباطل، (كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [آل عمران:47]، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]. يقول البقاعي: "ولما كان التقدير: فكان ما أردناه، وطاح ما أراد غيرنا فأولدنا من بني إسرائيل الولد الذي كان يحذره فرعون على ملكه، وكان يذبح أبناء بني إسرائيل لأجله، وقضينا بأن يسمى موسى؛ بسبب أنه يوجد بين ماء وشجر، ونربيه في بين الذي يحذره ويحتاط لأجله، عطف على هذا المعلوم التقدير أول نعمة مَنَّ بها على الذين استضعِفُوا فقال: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى......)".[1]

وهنا مرّت القصة بمراحل عديدة أفصحت عن إنجاء سيدنا موسى وعودته إلى أمّه على النحو التالي:

- تسخير امرأة فرعون للوقوف على ألا يذبح موسى مثل بقية أبناء بني إسرائيل؛ رجاء أن ينفعهم أو يتخذوه ولدًا، وهم لا يشعرون بتدبير الله لهم وتنفيذ مشيئته فيهم، وانتظارهم من الله ما يستحقونه من أليم العذاب، قال ـ تعالى:(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 243/14.

- انشغال قلب أم موسى بموسى وذِكْرِه، حتى كادت أن تظهر حزنها وهمّها عليه لولا أن ربط الله على قلبها بالصبر الجميل لتكون من المؤمنين، قال ـ سبحانه ـ: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)).

- تتبع أخته له؛ لتبصره عن بُعد دون أن يشعر أحد من قوم فرعون؛ اطمئنانًا على موسى وتثبيتًا لفؤاد أمه، قال ـ سبحانه:(فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)).

- تحريم المراضع على موسى من قبل أن يردّه الله إلى أمّه، ومن ثمَّ كانت الحكمة من قوله ـ تعالى ـ: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ....)، أن يعود إلى أمه بعد أن طال انتظارها شوقًا لرؤيته ـ عل4يه السلام ـ، بل كانت هذه الآية (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)) هي عيْن القصة ورأسها والخلاصة للأمور والتخطيط لها بدقّة متناهية والصبر على العاقبة، والعبرة بالخواتيم.

وفي ذلك كله إشارة إلى الأخذ بأسباب الإيمان بالقضاء والقدر والثقة في الله واليقين بوعده وبنصره ــجلّ وعلاــ وانتظار الفرج القريب منه سبحانه.

ويبين ابن عاشور أن موضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أمورًا ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين وموعظة للمشركين، منها:

- إظهار أن ما علمه الله وقدّره هو كائن لا محالة، وأن الحذر لا ينجي من القدر.

- إظهار أن العلوّ الحق لله ـ تعالى ـ وللمؤمنين، وأن علوّ فرعون وفساده جالب لكل عذاب أليم يكون عبرة لجبابرة المشركين في كل زمان ومكان.

– الإشارة إلى حكمة الله ـ تعالى ـ في أن يكون هلاك فرعون ورعيّته على يد موسى ذلك الطفل الذي كان يحذره فرعون ويخشى أن يسلب منه ملكه.

– تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولما قدّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتَّبة، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من القاء موسى في اليمّ إلى ردّه إلى أمه فتكون في ذلك عبرة للمشركين.

– ما في قوله ـ تعالى ـ: (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) من الإيمان إلى تذكير المؤمنين بعاقبة الصبر الجميل والرضا بقضاء الله، هذه العاقبة هي المحققة في نصر الله ووعده لأم موسى بأن يرجع إليها ابنها، وفي الوقت نفسه إشارة إلى وعيد المشركين بأنّ وعيدهم لا مفرّ لهم منه. (1)

فهذا هو التنجيم القصصي وأسراره التي تأسست لبيان علم الدعوة إلى الله، ولعل هذا هو المعنى الذي أشار إليه البيان القرآني في قول الله –عز من قائل–: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف:108]، نعم إنه العلم، والبصيرة التي تمكنت في قلب الرسول، حتى صارت الدعوة لديه ملكة، لأنها أحب عمل إلى الله، وأعظم فعل، وأنفع أجر، ألم يقل البيان القرآني هذه الحقيقة في نحو قول الله –تعالى–: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت:33].

3– هجرة موسى عليه السلام وخروجه من أرض مصر:

---

(1) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 85/20، 86.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)﴾ [القصص:١٥–٢١].

إنه حفظ الله لرسوله، وادخاره لأنسب وقت، فألزمه هجرة في سبيل الله، حتى يأذن له بالرسالة والدعوة، قال البقاعي ـ رحمه الله ـ: "ولما أخبر بتهيئة موسى للنبوة أخبر بما هو بسبب لهجرته فقال: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ.....﴾ [1]، كما تشير هذه الآية إلى نصرة موسى للحق، لذا وكزه موسى فقضى عليه، مما يدل على أن سيدنا موسى كان رجلا قويًّا شديد البُنيان في الحق، وما أرى أن هذا الأمر إلا من تقدير الله ولطفه بموسى ـ عليه السلام ـ وأن ما حمل موسى على هذا الأمر هو الحق؛ نصرةً للمظلومين المستضعفين وغيْرته من أن يجد ظالمٌ من قوم فرعون دون أن يفعل شيئًا، قيل: «كان القبطي من عملة مخبز فرعون، فأراد أن يحمل حطبًا إلى الفرن فدعا إسرائيليًا ليحمله فأبى، فأراد أن يجبره على حمله وأن يضعه على ظهره، فاختصما وتضاربا ضربًا شديدًا، وهو المعبَّر عنه بالتقاتل على سبيل الاستعارة».[2]

(1) البقاعي، نظم الدرر، 255/14.

(2) البقاعي، نظم الدرر، 89/20.

ثم في قوله: (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) إشارة إلى ندم موسى، وفي ذلك دلالة على مفاجأة موسى بالأمر؛ حيث لم يقع في نفسه أن يموت القبطي بسبب وكزة على وجه، لذا قال: (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)؛ دلالة على شدّة غضبه وانفعاله من الموقف، حتى علّل لهذه الشدّة وهذا الغضب قائلا (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)، لأنه (إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) أي ما حمله على ذلك إلا الشيطان الذي زيَّن له ذلك، "وفي هذا دليل على أن الأصل في النفْس الإنسانية هو الخير، وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري وهو تحلل نزغ الشيطان في النفْس".[1]

وهذا دالّ على أن الإنسانية والفطرة في قلب موسى موجودة وهو الجبلة على الخير والفطرة النقية، خاصة وأن من شأن الأخيار أنهم لا يعينون ظالما على ظلمه، بل يمشي مع المظلوم ليعينه على مظلمته، وهذا يشير إلى أن ذلك الحدث كان من تزيين الشيطان لموسى ـ عليه السلام ـ بادئ الأمر؛ لأن سيدنا موسى بإقباله على الله بالتوبة وطلب المغفرة (فاغفر لي) وقوله: (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) دلّ على نقاء روحه وشدّة صلته بربّه وخوفه منه في السرّ والعلن، قال صاحب الكشاف: "قوله: (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) قسم محذوف جوابه، والتقدير: أقسم بإنعامك عليَّ بالمغفرة لأتوبَنّ فلن أكون ظهيرًا للمجرمين، وأن يكون استعطافًا كأنه قال: ربّ اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون ـ إن عصمتني ـ ظهيرًا للمجرمين".[2] وقوله: (فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ) مظهر آخر من مظاهر توبة موسى، أي لن أعين كافرًا على كافرٍ ولا أنصر ظالما على ظالم بمظاهرة إثمهما وجرمهما. وعلى هذا فإن إنعام الله على موسى بعدم

(1) ا البقاعي، نظم الدرر، 90.

(2) الزمخشري، الكشاف، 398/3.

مظاهرته للمجرمين كان تعليمًا من قصة قتل القبطي؛ ليخرج من أرض مصر إلى أرض مدين؛ "جزاء على نعمة الحكمة والعلم بأن جعل شكر تلك النعمة الانتصار لحق وتغيير الباطل". (1)

ثم تأتي اللحظات الحاسمة المهمة في القصة، وهي لحظات التهيئة والتمهيد لخروج سيدنا موسى، والعلّة في ذلك قوله ـ تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)، وهذا ينبئ عن إعلام فرعون وأشرافه بنبأ سيدنا موسى؛ ليجتمعوا على التشاور في قتله، ثم انظر إلى آثار رحمة الله بأن هيّأ له أسباب النجاة بأن جاءه رجل من آل فرعون ليخبره على وجه السرعة: (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ....) والأمر في قوله: (فاخرج) على سبيل النصح والإرشاد والتوجيه؛ لئلا يظفر به قوم فرعون فيقتلوه؛ "لأن هذا الرجل كان معجبًا بموسى واستقامته، وقد قيل: كان هذا الرجل من بني إسرائيل، وقيل: كان ن القبط، ولكنه كان مؤمنًا يكتم إيمانه، لعل الله ألهمه معرفة فساد الشرك بسلامة فطرته، وهيأه لإنقاذ موسى من يد فرعون". (2) وكان من إلهام الله لموسى ـ أيضًا ـ استجابته لنصح هذا الرجل، فخرج من المدينة خائفًا يترقب، فكان يترقب أنظارهم؛ للتخفي منهم.

ومن ثمّ أبرزت الآيات في القصة أن خروج موسى ـ عليه السلام ـ من مصر كان لأسبابٍ هيّأها الله بقدرته على أتقن تدبير، وفيها دليل كذلك على "عناية الله بموسى ورحمته به ونصره على أعدائه ونجاته مما له من المكائد". (3)

وفي تنجيم هذه الآيات المباركة بيان مفصل لمجريات الحركة الدعوية وما يحوطها من لوازم، وتبعات، وصوارف، وأن الدعوة إلى الله هي أكبر هدف، وأجل غاية، وأكبر فريضة، وأثقل أمانة، وأغيظ موطئ يخافه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 93/20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ، 95.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ، 97.

الشيطان؛ لذا فقد قال الله عز وجل: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) [الأحزاب:].

4- تمكين الله لموسى بأهل ووطن ونعم:

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)) [القصص:٢٢-٢٨].

يظهر موسى الكليم رسولا نبيا طيعا لربه، ملكت عليه الدعوة نفسه، لم لا وهو صنعة الله لنفسه، ولدينه، يصلح اله به فساد الأرض، فقد خرج طواعية لموجب دعوة الحق، مع أنه أخرج، لكن في الله طابت نفسه، فترك أمه، وأخته، وأخاه، وقومه، وترك وطنه لله، وفي الله، يستمد توجيه الله وإرشاده له، (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فاستجاب الله له فوفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو (مَدْين)، لا ليكون رسولها،

إنما لتكون ملجأ له حتى حين، فكان ذلك سبب نجاته... ولما دعا بهذا الدعاء أعلم الله ﷻ باستجابته مخبرًا بجهة قصده زيادة في الإفادة فقال: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ). (1)

ويبدو أن واسطة العقد في القصة قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ). وعلى ذلك فإن الغرض المفهوم من القصة هو: اعتماد موسى ـ عليه السلام ـ وتوكله على الله ـ عز وجل ـ؛ ليفتح له باب النجاة من العُسر إلى اليُسر، ويهيئه للتوفيق في أمر الدعوة إلى الله. وسقايته الماء هو السبب الرئيس الذي هداه الله إليه؛ لتذليل الصعاب من قحط الأيام وجدب العيش والجوع الذي حلّ به؛ ليكون جزاء التوكل على الله واللجوء إليه في الشدة والرخاء، ومما يدل على أن حاله وقتئذٍ كان معسورًا، أنه خرج من مصر خائفًا يترقب النظر؛ خوفًا من أن يلحق به فرعون وقومه، فلم يفكر في لوازم السفر من زاد أو طعام، فجاءت هذه الآية: (فَسَقَى لَهُمَا) دليلا على أن السقي كان في وقت اشتدّ فيه الجوع وحلّ فيه التعب والإرهاق بموسى، وهو وقت الهاجرة والحرّ الشديد، بدليل قوله ﷻ: (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)

موسى ﷺ لم يكن على علم بالمكان، بدليل أنه في حال خوفٍ شديد واضطراب وقلق، وحرص على ألا تصله أيدي جنود فرعون، فكأنه أراد أن يخرج من مصر بأقصى سرعة دون أن يأخذ ما يلزمه من الزاد والعدّة للسفر، فكيف له أن يفكر في مثل ذلك في هذه اللحظات الفارقة بين الموت والحياة؟ أو حتى يفكر في أقربائه من مدين؟ إن الأمر أكبر من ذلك، ولهذا دعا الله متوجهًا إليه بكل إخلاص: (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ): وكان هذا الدعاء والطلب منه لأن يهديه الله قصد السبيل أو الطريق الموصل لغايته وهدفه الذي يرجوه ويأمل فيه أن تكون إقامة الدعوة، وفي ذلك إشارة إلى اعتماده على الله من أول

(1) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، 263/14.

الأمر ـ على سبيل الرجاء في فضل الله وكرمه ـ خاصة في هذه الحال التي لا يعلم بها إلا الله ـ عز وجل ـ، "وقد ألهمه الله هذه الدعوة التي في طيّها توفيقه إلى الدين الحق". (1)

ومن موجبات العجب اختيار الله ـ عز وجل ـ لنبيه موسى أن تكون (مدين) هي دار الهجرة؛ لأنها أرض بعيدة عن أرض مصر، ومن ثمَّ لم تكن داخلة تحت إمرة ولا سيطرة ولا قهر فرعون وقومه.

ويظهر في قوله: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ): الفرق (ورد) وبين قوله في أول القصة (توجّه)، ففي الأول لم يكن يعلم سيدنا موسى بتحديد المكان قبل أن يدعو الله ـ عز وجل ـ، وفي الثاني إخبار بالورود وهو تمام وصول موسى ـ عليه السلام ـ إلى أرض مدين، ثم يتبادر إلى ذهن سيدنا موسى يسألهما: (مَا خَطْبُكُمَا) "فالخطب هو الشأن والحدث المهم".(2) فكان الردّ منهما: (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)، وهذا دال على أدبهما وحُسْن تربيتهما واستقامة جوابهما بأسلوب بليغ؛ فهما انتظرتا حتى يصدر الرعاء: "أي يذهب رعاء الإبل بأنعامهم فلا يبقى الزحام".(3) وكأن هذا الجواب منهما علّة على ذودهما الماشية وهو ـ تحديدًا (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) وهو كناية عن عدم استطاعته ورود الماء؛ لكبر سنّه وضعفه وقلّة جُهده وطاقته.

وقوله: (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، دلت الفاء هنا على سرعة موسى في المبادرة إلى معاونة المرأتين؛ ليكون أجره بعد ذلك على إثر هذه الأخلاق الربّانية المباركة التي فطره الله عليها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 98/20.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 100/20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 100/20

ثم في قوله: (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، دالا على أدب موسى مع ربه في الطلب والدعاء، أي "لأي شيء تتركه من خزائن كرمك إليّ من خير جل أو قل فقير، أي محتاج وهو خبر "إن" وعدي باللام؛ لتضمنه معنى الاحتياج... والكلام تعريض لم يطعمه؛ بسبب ما ناله من شدّة الجوع".[1] وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:«لما سقى موسى للجاريتين، ثم تولى إلى الظل فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، وإنه يومئذٍ فقير إلى كف من تمر».[2] وعبّر القرآن في الآية عن الرزق بقوله: "أنزلت"؛ "لما في اللفظ من الثناء والشكر المشعريْن برفعة المعطي، وهو دالّ على الاستعطاف".[3] وذكر البقاعي: "لأنه لما كان الرزق الآتي إلى الإنسان مسببًا عن القضاء الآتي عن العلي الكبير عبّر بالإنزال، وعبّر بالماضي؛ تعميمًا لحالة الافتقار، وتحققًا لإنجاز الوعد بالرزق".[4]

وفي ذلك كله دلالة على توفيق الله لموسى وتهيئة الأسباب المقدّرة له في تفريج الكروب، والنجاة من القوم الظالمين، وتحدّيه المخاطر ومقاومتها في طرق كان لا يعلم توجهها، إلا أنه اتجه إلى طريق الله فهداه الله إلى مَنْ هو سبب في إخراجه من الطرق المحفوفة بالمخاطر والأشواط إلى الطرق الموسومة بالنجاة والخلاص، وذلك لما قال له الشيخ الكبير (نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، وتلك قمة الدلالة على الخروج من التيه إلى الدخول في أوقات كان أحوج ما يكون فيها إلى نعمة الأمن والاطمئنان.

وبناء على ما سبق فإن سر التنجيم يتركز في معية الله لموسى، وتيسير كل عسير وتظهر الأحداث بانسيابية الفطرة المجتمعية دون تكلف ولا ركاكة، ولا إزعاج للعقل المنطقي، فهي أرزاق ميدانية في طوق البشر، ولو أراد الله أن ينقل موسى جوا أو برا أو بحرا بمعجزة لفعل، لكن القصص يراعي أن رسل الله إنما

(1) الألوسي، روح المعاني، 273/10.
(2) الألوسي، روح المعاني، 273/10..
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 102/20.
(4) البقاعي، نظم الدرر، 267/14.

هم بشر من البشر، ومن ثم فإن الهدف هو تعليم أتباع الرسل الدعوة إلى الله، فلا يليق أن تكون الأفعال التي تحفظ الدعاة وتنجيهم خيالية، أو وهمية، أو لا يطيقها عقول البشر، والسر في الوصول إلى هذه النتيجة (نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فيها تعزية للنبي محمد ﷺ ولأصحابه الكرام.

5- رجوع موسى رسولا إلى فرعون مصر:

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32)) [القصص:٢٩-٣٢].

إنه موضع يجدد لدى المتلقي ذلك الدرس الدعوي من أحداث موسى الرسول النبي الكريم الأمين، حيث ظلام الليل، ببرده القارس، راجع للجهاد في سبيل الله، يبلغ كبير الطغاة رسالة ربه، مستعينا ربه، متوكلا عليه، مكنه الله وطمأنه على عدة الإصلاح، وأمده بآيات الله التي تقطع بالحق، وقد اطمأن واستبشر أن الله ناصر الحق لا محالة، دون أن يكلفه الله ما لا يطيق، وأعطاه برهانين يدعو بهما قوما فاسقين.

وسر التنجيم القصصي هنا أن أول درس يتلقاه الداعي إلى الله، هو أن يعلم عن الله ما يجب، وها هو موسى يعلمه الله بنفسه، وصنع له مما هو ميسر في يديه، عصا هي في يد من يديه، ويده الأخرى سوداء يقلبها الله له بيضاء من غير سوء، وكذلك قوي قلبه بربه، فهذا هو الدرس الأول: (العلم بالله)،

يتعلمه الدعاة ويعلمونه، والدرس الثاني هو إصلاح الدنيا بهذا الدين، محسبا على الله الأجر، فهذا هو ملخص الدعوة إلى الله، وهما جناحاها، العلم بالله ودينه، والعمل بدين الله، دين الحق إصلاحا للعباد.

والتعبير بلفظ (برهانان) للإشارة إلى تقوية موسى بالمعجزتين اللتين فيهما إلجام الخصم وإخراس لسانه. وجملة (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) تعليلية لما قبلها "وفي ذلك دلالة على تمكين موسى من المعجزتين الواضحتيْن بحيث يقرعون بالبراهين، وسبب ذلك: تمكن الكفر من نفوسهم حتى كان كالجبلة فيهم". (1)

وفي تقديم جملة (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) على إصدار أمره ـ تعالى ـ لموسى بإلقاء العصا وإدخال اليد في الجيْب ما يدلّ على "أن جميع الخلائق مسخّرة له؛ ليثبّت بذلك قلب موسى من هول تلقي الرسالة". (2)

و سر التنجيم في قوله: (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ)، فيشير إلى تأكيد إزالة الخوف والرعب عن قلب موسى ـ عليه السلام ـ وأنه من عباده المؤمنين المصطفين الأخيار لحمل رسالته وتبليغ دعوته، وفي ذلك إيحاء بأنه لا يوجد من رسل الله مَنْ يخاف؛ وهذا فيه بشرى للمتلقي ليسلك نفسه في سلك الدعاة إلى الله، لأنها تطمئنه، وتذهب خوفه من الله، وهذه شهادة أمان من رب العالمين، أمان في الدنيا من بطش الطغاة، وأما في الآخرة من كل شر، وهل بعد هذا خير يبقى، فقد مع الله للدعاة إليه خيري الدنيا والآخرة، ويا له من شرف وعطاء.

6- نبوّة هارون عليه السلام وتكذيب فرعون:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 115.

(2) البقاعي، نظم الدرر، 112.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)) [القصص:٣٣–٣٧].

إن هذا الموضع يتكاثف فيه التنجيم بمزيد من مؤيدات نجاة رسل الله من شرار الخلق الطغاة الذين يصدون عن سبيل الله، ومن هذه المبشرات قول الله بغرض إزالة الخوف: (فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا)، ولاشك أن من الضروري أن يترسخ في فقه الدعوة إلى الله أن حاجة الدعاة إلى النجاة من القوم الظالمين أولى وأشد من حاجتهم إلى النصر، وهذا هو الاعتبار الذي يؤخذ به في موازين القطع والائتناف، أو الوقف والابتداء، ومن ثم فقد تبشير الدعاة مستأنفا بالنصر في قول الله تعالى: (أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ).

وهنا يجد الباحث أهمية للوقوف عند معنى هام يخص الدعاة إلى الله في هذا المضمار، وهو ضرورة قوة الرسل الدعاة اللغوية للتمكن من استنباط هذه المعاني الدعوية من البيان القرآني، إذ لا يكفي أن يكونوا عالة على العلماء في البلاغة والبيان والفقه وعلوم القرآن، وقد برزت القوة البيانية في مواضع كثيرة عند موسى، وهارون، وهو الذي وجب على أمة التلقي، فلقد كان الرسول ﷺ رسولا، وكان أفصح الناطقين الضاد، حتى قوته البيانية صارت حجة على أمته وأتباعه، وهذه حقيقة لا مطمع في أن يجادل فيها أحد، لأنها أساس محكم من أسس الدعاة إلى الله، وهي قوة الملكة البيانية، لأن دعوة الله قائمة على (البلاغ المبين).

ومما يلحظ في هذا الموضع أن كلام موسى لربه في:

- قوله ـ تعالى ـ:(رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا).

- قوله ـ تعالى ـ:(فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ).

- قوله ـ تعالى ـ:(فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي).

- قوله ﷻ:(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ).

لم يكن هذا الكلام من قبيل جدال ولا اعتراض، ولا شك ولا ارتياب، إنما كان دليلا على غيرة موسى على دعوة الله، وحرصه على نجاحها، ليتعلم منه من يتلقون الدعوة من كتاب الله هذا الحرص الشديد، وأن الدعاة يجب أن يفقهوا متطلبات الميدان الدعوي من وسائل معينة، وأنهم على علم بمحاذير هذه السبيل.

ومن ثم فقد جاء على إثر هذه الأسباب الأربعة تقوية الله لموسى عليه السلام وتأييده وإعانته في وحدته، وعودته بعد غربته سنين طوال، وكان العوْد حميدًا بهذا التوفيق الإلهي الذي وافقه تشريع الله لموسى بإنزال المعجزات الدالّة على صدقه، وأن قتله القبطي المصري كان بأمر الله ومشيئته، وأن الحق مؤيّد به من عند ربه، وأن اتهام فرعون لموسى لا أساس له، بل هو ظلم وافتراء عليه؛ لذا عقب له موسى ـ عليه السلام ـ بالجزاء والعقاب الذي يستحقه.

ثم هذا التذييل في القصة (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) والغرض منه: بيان سنّة الله ـ تعالى ـ التي اقتضت ألا يفوز الظالمون بمطلوبٍ، وأنهم على خطر عظيم جسيم؛ لأن الذين يفوزون بالعاقبة المحمودة هم عباده المخلصون الذين يؤيدهم الله ـ عز وجل ـ بالنصر المكين والفتح المبين، وفي ذلك إشارة إلى تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه السورة الكريمة من خلال قصة موسى ـ عليه السلام ـ بفتح مكة وظفره بنعمة النصر هو وأصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ يوم أن ثبّتَ الله فؤاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام المشركين

الظالمين، كما أيّد موسى ـ عليه السلام ـ برجوعه إلى مصر وتمكينه منها والدخول فيها دون خوف من فرعون وملئه لأن الله ـ تعالى ـ ثبّت قلبه وأيّده بسلطانه وآياته الظاهرة والباطنة، فكان نصر موسى وهلاك فرعون مثالا لنصر الحق وإزهاق الباطل في كل زمان ومكان.

7- محاورة فرعون قومه في شأن دعوة موسى عليه السلام:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)) [القصص: ٣٨ – ٤٣].

وهذا الموضع يتعلم فيه الدعاة التجرد لرب العالمين، فهو الذي يحرس دينه، ويصطفي رسله، وينجيهم، وينصرهم، فالحديث هنا يغلب عليه القص الخبري، لكن غرضه الإنشاء، إنشاء موقف دعوي مصلح حيال هذه الفرعنة التي تستغفل إدراكات قومه، حيث سلط نفسه على نوافذ العلم، (ما علمت).

ومن اللفتات التي لا يجوز الغفلة عنها، وهي لفتة دعوية يجب أن تكون حاضرة في أروقة العمل الدعوي، وإن الذي نبه عليها إنما هو البصر في المعطيات الدعوية من البيان القرآني، وذلك أن الله بعد أن بين أنه أهلك القرون الأولى من الظالمين، وصح الجو، وصفا كدر الأرض، عند هذا وحده صح أن يفعل كتاب الله في الناس فعله، فآتاه الله موسى لهداية الناس، وهذا ملمح خطير الأثر كبير النفع يجب أن يكون في أنفس الدعاة راسخا رسوخ البدهيات.

وإن من الملامح الدعوية التي يجب الوقوف عندها وقوف التدبر والتعجب ما يمكن أن يدركه الناظر بحاسته الدعوية من قول الحق جل جلاله: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)، أي أن الله –وهو على كل شيء قدير– هو الذي أهلك الطغاة، فلم يكن موسى في دعوته مقاتلا قتالا

كبيرا، بل قد انصب عمله في أغلبه على تبليغ الحق، والهجرة من دار إلى دار تمكينا لمؤسسات الدعوة إلى الله، بحيث تنطلق انطلاق الهيأة الدعوية التي لها وزير، (وزيرا من أهلي)، وذلك بيان هام أن الله لا يكلف رسله قتالا إلا إذا مكن الله لهم، وأعانهم، وأمدهم، وما النصر إلا من عند الله.

وتتجلى أسرار التنجيم القصصي في التركيز على العبرة، ففي قوله في ختام الآية: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)، هذه الجملة تضرب في حقيقة الغرض رأسًا، والمقصود: إعلام الناس والأمم بعاقبة هؤلاء العتاة؛ ليكون الهدف والمغزى من القصة: (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، يقول ابن عاشور: «وهذا موضع العبرة من سَوْق هذه القصة؛ ليعتبر بها المشركون فيقيسوا حال دعوة محمد ﷺ بحال دعوة موسى ـ عليه السلام ـ ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه فيوقنوا بأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة".[1]

وفي قوله: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ.....) إلى قوله: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) بيان لعقاب فرعون وقومه، وأن هذا العقاب من جملة الاعتبار والاتعاظ من القصة؛ "ليعتبر الناس بأن شأن أهل الضلالة واحد؛ فإنهم يتلقون دعاة الخير بالإعراض والاستكبار واختلاق المعاذير". [2]

وفي ختام القصة يتبيّن مما مضى أن الهدف والغرض كان في أخذ العظة والعبرة من ذِكْر القرون الأول وما حلّ بهم من الهلاك والاستئصال؛ جزاء تكذيبهم رسل الله ـ عليهم السلام .. والضمير في قوله: (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) عائد إلى الناس المخاطبين بالتوراة بعد هلاك فرعون وقومه، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى ما بعد أمم القرون الأولى، وفي كل ذلك إشارة إلى شيء مهم وهو العمل بالإنذار والتبشير؛ لأن منهما تأتي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 125/20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 126.

الموعظة، والثواب والعقاب، كما تكون التذكرة في أحوال الخير والشرّ عن طريق الترغيب والترهيب، والحث على فعل الشيء أو النهي عنه وهكذا.

وقد جعلت هذه القصة من باب قياس النظير بالنظير؛ بمعنى أن ذِكْر الهلاك والدمار لفرعون وقومه _ مع وجود البعث بالنذارة والبشارة_ كان حجة لكل من يعتبر ويتعظ من مشركي قريش وكفار مكة، وأن قصة إرسال موسى عليه السلام تأييدٌ لإرسال ونبوّة محمد ﷺ وقد بيّن ابن عاشور ذلك بدلالة رسالة محمد ﷺ برسالة موسى عليه السلام(1)، والمقصود من هذا التنظير ذكر ما يجمع بين النبيّيْن الكريميْن من البعثة والإرسال والإنذار والتبليغ والتبشير، مع التنظير كذلك بين الأقوام، بين حال كفار مكة وبين حال فرعون وقومه؛ لتكون العظة والعبرة أشمل وأعمّ في الموازنة بين كلٍّ من الفريقين حالا ومآلا؛ لإتمام معنى العبرة في قلب كل من يتعظ ويعتبر.

(1) ينظر: التحرير والتنوير، 128/20.

الخامس عشر: سورة العنكبوت، وفيها موضع

- العبرة من قصص الطغاة:

(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)) [العنكبوت: ٣٩ – ٤٠].

جاء هذا المقطع القصصي موجزًا، لكن العجب أن يذكر في –على وجازته– صلب الحقل الدعوي بمعانيه الرئيسة، من رسالة ومرسل إليهم ورسول، وعقبة واعتبار. كما أنه مقطع برز فيه حرص البيان القرآني على شفاء صدور الدعاة من قوم ظالمين، أعد الله لهم لكل منهم نصيبه من العذاب في خزي الدنيا، وكان لكل واحد منهم عذابه الأليق جزاء موفورا وفاقا، في الدنيا قبل الآخرة.

وإن هذا الشفاء ما هو إلا رسالة طمأنينة للدعاة إلى الحق أن الله حرس دينه، غالب على أمره، مظهره على الدين كله، يحق الحق ويبطل الباطل.

ويكفي أن يكون سر التنجيم القصصي هنا شاملا اسم السورة نفسها إهانة الكفر والشرك والطغيان، حتى صار مسلك السورة هو «الحث على الاجتهاد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء إلى الله ـ تعالى ـ وحده، من غير تعريج على غيره ـ سبحانه ـ أصلا؛ لئلا يكون مثل المعرّج، مثل العنكبوت؛ فإن ذلك مثل كل من عرج عنه ـ سبحانه ـ وتعوض عوضًا منه، فهي سورة ضعف الكافرين وقوّة المؤمنين، ومن ثمَّ ظهر سرّ تسميتها بالعنكبوت، والله ـ تعالى ـ أعلم. [1]

(1) البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 354/2.

فهذا هو بيان ابتلاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في رسالاتهم، ومنهم سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ؛ تعليمًا للأمة بأن الله نصرهم وأهلك أقوامهم بعد أن أنذرهم وأمهلهم وأرسل لهم الرسل وأزاح عنهم الأعذار وأقام فيهم الحجة والبرهان، ورغم ذلك ظلموا أنفسهم فلم تبق لهم باقية بأن أخذهم الله بما يستحقوه من عذاب أليم ومصير مهين كلٌ على حسب عمله.

كما أن من أسرار التنجيم لهذا المقطع من جهة علم الدعوة بيان أن موسى قد واجه كتائب الكفر ومؤسساته الوزارية العتيدة العميقة، كما أن تقديم قارون على فرعون هنا يجب التنبه له، لأنه يشير إلى خطورة الأموال التي تنفق في الصد عن سبيل الله، فهو عصب الكفر والصد، وهذا ما دلّت عليه الآيتان برمّتهما في القصّة؛ فلقد أوضحت أن الرسالة أمر شاق وتكليف عظيم يحتاج إلى جهدٍ ولأْيٍ وصبر ومثابرة، وكذا لابدّ من حقل تجارب وإدراك معرفة وتعليم وخبرة حياتية ومقاساة، فضلا عن جانب الوحي وإنزال المعجزات والآيات، وهذا بالضبط ما حدث لسيدنا موسى عليه السلام؛ فقد لاقى ابتلاءات عديدة ومرَّ بتجارب كثيرة تعلم وذاق مرارة الحياة من خلالها، وكلها عوامل ساعدت في توجيهه وتربيته بطريقة عملية ونظرة جادّة للحياة، لاسيما وأن رسالته تكليف عظيم وفيها من المشقة الكثير والكثير؛ فهو مرسل إلى فرعون الطاغية ورأس الكفر والضلال والإفساد في زمانه، أرسله الله ـ تعالى ـ إليه؛ إنقاذًا للبشرية التي ذاقت على يديه العذاب أشكالا وألوانًا، ولاريب أن خلاص هؤلاء المستضعفين من يد متجبر كفرعون أمر يحتاج إلى عناء وتحمُّل في سبيل الله؛ نصرةً لدين الله ـ تعالى ـ، فلما لم يستجب هؤلاء له ولدعوته بعد كل هذا الجهد وهذا العناء أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر بيّن فيه شدّة عذابهم؛ ليتناسب مقام هذا العذاب مع ذنب كل واحدٍ ممن ذكرتهم القصة (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ....)؛ ليكون الجزاء من جنس العمل؛ عدلا من الله ـ عز وجلّ ـ كما قال: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

السادس عشر: سورة السجدة، وفيها موضع واحد

ـ فضل الله على بني إسرائيل:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)) [السجدة:٢٣–25].

إن سر التنجيم القصصي الذي ينطلق انطلاقة دعوية يظهر في صدر هذا المقطع، مع وجازته، في إبراز أهمية الكتاب في التمكين لدعوة الحق، حتى إنه بات من المؤشرات الدعوية ما يمكن أن يعد قاعدة دعوية في عوائد البيان القرآني، أن ذكر الكتاب مؤشر إلى أن هذا بعد إزالة الطغاة الصادين عن الحق من طريق الإصلاح.

ومن اللفتات الدعوية في هذا المقطع قول الحق –تبارك وتعالى–: (فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)، وهذا خطاب للمتلقي ﷺ وهذا ربط دقيق التقى فيه الرسولان معا، المعلم والمتعلم، السابق واللاحق، ثم إن مما يشفي أنفس الدعاة الروحية أن في الكلام إشارة إلى أن الله سيقضي بين الفريقين من الأمة الواحدة، أمة بني إسرائيل، فريق الأئمة في الهدى، والفريق الذين اختلفوا معهم، الذي لا همّ لهم إلا أن يوالوا العدو بإشغال أئمة الحق، وإيذائهم.

ولعل في قوله ﷻ: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) إشارة دعوية تعزز أسرار التنجيم من خلال التسوية بين ما لقيه النبي ﷺ من قومه وبين ما لقيه سيدنا موسى عليه السلام من فرعون وقومه، وكأن في الجملة مراعاة نظير تضمنته هذه الجملة. وقوله –تعالى– (آتينا) كناية عن الإرسال؛ إذ إن الإخبار هو الإرسال ثم التلقّي بالوحي المعبِّر عنه بالإتيان، وجاء ذكر الكتاب هنا مقترنًا بموسى، والمراد التوراة؛ لتوحيد المعنى بين الكتابيْن

(القرآن والتوراة) من نظائر دالة على إرسال كل من النبييْن الكريميْن، فقال: (فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ) والخطاب للنبي ﷺ للإدماج بينهما في الشخصية والدعوة والكتاب، والفاء في قوله: "فلا تكن" للتفريع، "وفيها إيذان بأن معرفتك بموسى ـ عليه السلام ـ أوتي التوراة ينبغي أن تكون سببًا لإزالة الريب عنك في أمر كتابك، ونهيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أن يكون في شكّ المقصود منه نَهْي أمّته ﷺ والتعريض بمن اتصف بذلك".[1] إِذَنْ: المراد بالنهي هنا هو التثبت والدوام على انتفاء الشك. وجملة: (فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ) جملة اعتراضية جيء بها؛ لتأكيد النظير والشبه القائم بين النبييْن في الكتاب والوحي والدعوة، أي تثبّت يا محمد ولا تشك في أن موسى لاقى مثل ما تلاقيه الآن من الابلاء والمحنة في الدعوة، لكن أهو لقاء الرسولين في الآخرة، أو أن اللاحق سيلاقي ما لاقى السابق من ابتلاء؟! تحصينا وتنبيها على سنة من سنن الدعوة ليصبر على البلاء؟، والبحث يرى أن المعنى الأخير ليس مستبعدا عن لطافة البيان، ثم إن جملة (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ) واسطة العقد في القصة والغرض منها.

السابع عشر: سورة الصَّافّات، وفيها موضع واحد

- نِعم الله ﷻ على موسى وأخيه هارون _عليهما السلام_:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآَخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)) [الصافات: ١١٤ – ١٢٢].

(1) الألوسي، روح المعاني، 135/11.

ويتجلى في هذا المقطع قيمة دعوية جليلة، إذ إن الله ﷻ يبين أن طريق رسله ومعيته لهم هو أمن منة من الله على عباده. كما أن أدوات الدعوة وعوامل نجاحها متوفرة من حيث الرسالة (الكتاب المستبين)، والمرسل إليهم والرسول، ويلاحظ أن هذا المقطع صورة مشرقة ليس فيه ما ينغص من ذكر الطفر ولا الصد ولا نحو ذلك، فهو مقطع سلم وسلام وسلامة من رب العالمين.

فتشير هذه الآيات إلى منة الله ـ تعالى ـ وفضائله على سيدنا موسى وأخيه هارون ــ عليهما السلامــ وأنهما أكملا واجبهما على الوجه التام بالإيمان والتوكل عليه ـ سبحانه ـ وتحدي الصعاب الفردية والاجتماعية، وأن نجاحهما في هذا التحدّي خاصة مع فرعون وقومه هو سبب سموّهما وعظيم مكانتهما عند ربهما ـ عز وجل ـ، ومِن أظهر هذه المكانة أن جعلهما الله من عباده المخلصين المؤمنين الذين أخلصوا لله في كل شيء، وأخلصوا أنفسهم لدين الله وشريعته، ومن ثمَّ لا تؤثر فيهم عاصفة ولا يؤثر فيهم قلق أو خوف من شيء إلا من الله تعالى طاعة له سبحانه.

ثم ختم الله ﷻ القصة بقوله: (سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122))، وهذا مدح لهما بالسلامة من كل شر في الدنيا قد لحق بهم من فرعون، وهذا هو الجزاء الحسَن لهما، حيث جعلهما الله من عباده المحسنين المخلصين في الإيمان. فالغرض من القصة ـ كما يظهر ـ هو: إتمام رسالة موسى وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ على الوجه الذي أراده الله منهما، فجزاهما بالخلاص من الشدائد والمحن؛ لأنهما من زمرة عباد الله الذين شرّفهم الله بأعلى مقامات الإيمان الحق بالصبر على الشدائد وملاقاة المحن بالدعاء والمناجاة كما هو شأن ودأب موسى ـ عليه السلام ـ مع ربه ـ عز وجل ـ. ولاريب أن هذه الآيات جاءت دالّة على إنعام الله لموسى وأخيه وأنه ـ تعالى ـ أراد أن يجزيهما عن الإحسان إحسانًا وإفضالا وإعظامًا، فجعلهما الله من المحسنين الذين وُفّقوا لإحسان وإتمام ما أُمروا به، فكان الجزاء موافقًا لإحسانهما، وهو إحسان الله عليهما بالخلاص من الشدائد والسلامة

من المحن، وتشريفهما بالإيمان، فقال ـ سبحانه ـ: (سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)). "لذا كان إنجاء موسى وهارون وقومهما كرامة وجزاء لهما ولقومهما، وهذه نعمة إزالة الضر، فحصل لموسى وهارون نوعَا الإنعام، وهما إعطاء المنافع، ودفع المضار". [1]

وهذا الكلام من ابن عاشور دال على الغرض في وحدة السلامة ونزع الضر من قلب الكريمَيْن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ فقال ـ سبحانه ـ: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)، والسلام: الأمن والطمأنينة والجزاء الطيب والنّيْل العظيم، وفي ذلك إشارة إلى تسليم الآخرين على موسى وهارون وذكرهما في الناس بأطيب الأقوال، كما قال ـ سبحانه ـ: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)، والترك دليل وأثر يبقى في الناس على مرّ الأجيال والأزمان، والمراد هداية الدعوة وانتشار الدّين والتوحيد وبقاؤهما في قلوب العباد الصالحين، قال ـ تعالى ـ: (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) أي الواضح البيّن، والسين والتاء في (المستبين) للمبالغة في الوضوح والبيان، كتاب واضح في نفسه، موضح لغيره وهو التوراة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على قلب نبيه موسى عليه السلام.

وقوله: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) وهو رادّ إلى المعنى في قوله: (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)، (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)؛ حيث إن جزاءه ـ تعالى ـ المحسنين دليل إفراج تلك الشدائد والمحن، وهذا إنعام من الله على موسى وهارون؛ فقد نجاهما من يد فرعون وقومه، ولا يكاد يخفى على أحد تلك الصعوبات التي ابتُلي بها موسى في دعوته، حتى يتميز بهذه الصفة وهذا الجزاء وهذه المكانة العالية هو وأخوه هارون ـ عليهما السلام ـ وهو كونهما من عباد الله المحسنين.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 163/23، بتصرّف.

ثم يبين لله ﷻ أن من سنته تثبيت ونصر مَنْ ينصره فقال ـ تعالى ـ: (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) بذكر ضمير الفصل (هم)؛ لإفادة القصر، أي هم الغالبون لغيرهم وليس لغيرهم غلبة عليهم، وهذا تأكيد من الله ـ عز وجل ـ على حُسْن الجزاء والتمتع بالإنعام والإفضال؛ جزاء إيمانهم الخالص لله ـ عز وجل ـ المضمن في قوله آخر القصة: (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) وهو تعليل لما قبله في: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

وإن من معالم وأسرار التنجيم القصصي أن في القصة هنا إجمالا، ومن ثمَّ فإن قوله تعالى: (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ....) الآيات، من قبيل العطف (عطف الخاص على العام)؛ لمزيد اعتناء بهذا الخاص، وأن هذه النعمة من أشرف النعم وأجلّها، ومن أشرف الإحسان الذي ناله موسى وأخوه هارون من رب العالمين؛ أو لما في هذه الجزاءات الطيبات دلائل على صعاب تغلّب عليها النبيّ الكليم وأخوه، فاستحقّا من الله الكثير من الفضائل كانت هذه على رأسها؛ وبهذا يكون هذا المقام الكريم والجزاء العظيم في حق موسى وهارون ـعليهما السلامـ من باب اتحادهما في الدعوة ومواجهة الصعاب والمشاق والتغلب عليها، ووفائهما في الأداء والتبليغ كأحسن ما يكون، كأنهما صف واحد لا يختلف ولا يفترق، ومن ثمَّ جعل الله مقامهما وجزاءهما واحدًا؛ إرضاءً لسيدنا موسى وقربه من ربه ـ تعالى ـ وتشريفًا لإتمام رسالته ـ عليه السلام ـ واستشهادًا بها في كل دعوة وكل رسالة من رسالات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وعلى رأسهم النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان كل ذلك تفصيلا للنعم المذكورة في القصة المباركة من هدايتهما وبقاء أثرهما وذكرهما والسلام لما والإحسان إليهما، وتخصيصهما من جملة عباد الله المؤمنين الذين عملوا وأحسنوا واستقاموا فأخلصوا لله العمل فتقبلهم الله في عباده المحسنين المؤمنين.

الثامن عشر: سورة غافر، وفيها أربعة مواضع

1- تعذيب بني إسرائيل وتهديد فرعون بقتل موسى عليه السلام:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)) [غافر:٢٣–٢٧].

في الواقع أن سر التنجيم هنا يبدو أنه سيكون مثالا من أمثلة التنجيم الشامل لسبك السورة كلها فيه سبكا دعويا لطيفا، كما أن ذكر موسى وفرعون، وشؤون الدعوة فيها له طابع خاص، لأن هذا المقطع يظهر هنا أنه ذو صبغة دعوية في أعلى مستويات البيان القرآني في دعوة الله –تعالى– وقد تصاعدت وتيرة الأحداث، ودخل موقف فرعون في دائرة (أقتل موسى)، وتحدى رب العالمين (ولْيدْعُ ربه)، وموسى يتعوذ بربه الجبار المتكبر من هذا المتكبر المغرور.

هذا وقد أشار بعض العلماء إلى تعلق سر التنجيم في السورة كلها دعويا، فجعل البقاعي مقصود السورة: "الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفيْن وتوفية كل ما يستحقه على سبيل العدل؛ فإن فاعل ذلك له العزّة الكاملة والعلم الشامل، فمن يسلم أمره كله إليه وجادل في آيات الله الدالة على القيامة أو غيرها بقوله فإنه يخزيه ويعذبه ويرديه".[1] ومن ثم يكون الغرض من هذه القصة ـ كما يبدو ـ هو: ردّ وبطلان تدبير فرعون لموسى، وأن قضاءه ﷻ نافذ في الكافرين لا محالة، وأنه يحيق بهم ما يريده، ويظهر هذا المعنى واضحًا جليًّا في قوله ﷻ: (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) وكانت هذه الجملة هي واسطة العقد بين قوله ـ تعالى ـ على لسان فرعون وهامان وقارون: (اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 163/23، بتصرّف.

نِسَاءَهُمْ) وبين قوله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ).

كما أن هذا بيان من الله ـ عز وجل ـ بنصر موسى على هؤلاء الذين يحرضون على قتل مَن آمن من قومه ومضمون معنى الظفر بنعمة النصر نجده في قوله ـ تعالى ـ: (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أي أن كيدهم في بطلان وضياع وأنه رادّ على رؤوسهم، وفي ذلك إشارة إلى إهلاك الكافرين في كل زمان ومكان، وفي الوقت نفسه تعريض بالمؤمنين أن يستمروا في طريق الحق والهدى دون أن يرهبهم عدوّ أو يخيفهم؛ لأن قضاء الله نافذ وكائن لا محالة في هؤلاء الكافرين، وأن كيدهم لا يغني عنهم شيئًا إلا الفتك بمصيرهم وسوء كيدهم، وهذا يفيد أن النصر سيكون في النهاية للمؤمنين الذين ساروا في طريق الحق دون أن تدركهم مكائد الأعداء وتدابيرهم، ودون أن تؤثر فيهم أو توقفهم عن المسير الذي خاضوه لأجل الله ـ تعالى ـ.

ثم تظهر المكيدة الأخرى ومدبّرها فرعون اللعين حين قال: (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)، (ذروني) أي دعوني وشأني في قتل موسى، وأرى أن المعنى في ذلك إشارة إلى الشك والتردد في القتل؛ لأن فرعون مع كونه معترضًا لدعوة موسى إلا أنه أَخْوف من أن يهمَّ بقتله وهلاكه، لكنه قال ذلك؛ ترويجًا لانتباه القوم وإيهامهم لهم وتمويهًا، فينشغل موسى عما يخاطب به فرعون من خصوصيات في شؤون الدعوة، وهذا دأب فرعون مع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ الدال على ضعفه أمام قوة موسى ومعجزاته، وفي ذلك دلالة على أن الحق أبلج والباطل لجلج، كما دلّ على أن هذا منه كان على سبيل التهديد والوعيد.

والعجب من استخدام فرعون مكره وكيده في التظاهر أمام حاشيته بالدهاء والذكاء وبث الفتنة ونشرها في الناس؛ لينقلبوا على موسى حين ذكر الدِّين أوّلا ثم أتبعه بذكر فساد الأرض ثانيًا، "وهكذا

الطغاة الماكرون في كل زمان ومكان يضربون الحقّ بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامّة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية". [1]

ويبين الإمام الرازي العلّة في ذكر فرعون أمر الدِّين أولا فيقول: "والمقصود من هذا الكلام بيان السبب لقتل موسى، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا... ولما كان حبّ الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: (أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)". [2]

ثم خُتمت القصة بقول الله ـ تعالى ـ على لسان موسى ـ عليه السلام ـ: (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)، وهذا كناية عن شجاعة سيدنا موسى وتثبيته على الحق أمام فرعون؛ لأنه لما هدّده بالقتل رأى ـ عليه السلام ـ ان يدفع ضرّ هذا الماكر ويبطل كيده بصدق الإيمان وقوّة اليقين والثقة في الله رب العالمين، وكان هذا القول امام قومه؛ ليبيّن لهم أن تهديداته وتدابيره لا تساو شيئًا أمام قوله: (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ)؛ فمجرد الاستعاذة فقط وهي اللجوء إلى الله والاستجارة به ـ سبحانه ـ كفيلة أن تبطل كيد فرعون وسوء نيته الحاملة لكل حقد وبغض للدِّين والدعوة، لذا اختار سيدنا موسى هذا الدعاء بالاستعاذة؛ ليصرف عنه شرّه حقده وكيده؛ لأنه يعلم أن ما حمل فرعون على تلك الأباطيل إلا كفره وإنكاره ليوم الحساب تكبرًا واستكبارًا فقال: (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (القاهرة: نشر دارق نهضة مصر للطباعة، ط 1، 1998م)، 280/12.
(2) الرازي، تفسير الرازي، 507/27.

يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)، وفي ذلك دلالة على "أن الاستكبار عن اتباع الحق والتكذيب بالبعث من الأسباب التي تعين على قسوة القلب وفساد النّفس".[1]

وذكر صاحب الكشاف أن الاستكبار في الآية "إذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه"، [2] وفي ذلك دلالة على فشل فرعون وردّ كيده في نحره في الدنيا والآخرة.

وفي قول موسى عليه السلام حين تعوذ واستجار بالله ـ تعالى (بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ)، نكتة ولفتة لابدّ من التنويه عنها؛ لأنها تضرب في حق الغرض رأسًا؛ حيث إن الله ـ تعالى ـ استخدم هنا صفة الرّب مضافًا إلى ضمير المتكلم والمخاطب، وفي ذلك ما يشعر بالحماية الربانية والدفاع عن عباده الذين يرعى شؤونهم ويتولّى أمورهم وصلاح أمرهم وتربيتهم.

وفي ذلك دلالة على عناية الله ورحمته بالمؤمنين، وردّ واضمحلال كل كيد ومكر على رؤوس كل من يتجرأ على الله أو على أوليائه من عباده المخلصين؛ لأنهم ـ لا ريب ـ منصورون وغالبون ومؤيَّدون من الله ـ سبحانه بالحفظ والرعاية والدعاء واللجوء إليه والإقبال عليه ـ تعالى ـ في كل وقت وحين.

2- مؤمن من آل فرعون ودفاعه عن موسى عليه السلام:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ

---

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 281/12.

(2) الزمخشري، الكشاف، 61/4.

فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)) [غافر: ٢٨ – ٣٥].

وفي هذا المقطع يتجلى إنتاج عمل دعوي كبير على يد رسل من رسل رسول الله موسى، أيد الله به الحق، ويزيد في العجب أن هذا الرسول من قوم فرعون، بل من آله، ونعته الله بتمكن الإيمان فيه خط للمتلقين أعظم عمل صالح يقوم به مؤمن يتبع رسل الله، ومن ثم فإن الغرض من مقطع هذه القصة مبني على الغرض من سر التنجيم من مقطع القصة السابقة؛ حيث إن فرعون عزم على قتل موسى ـ عليه السلام ـ فردّ الله كيده في نحره بأن استعاذ موسى بالله ـ عز وجل ـ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، ومن ثمَّ جاءت القصة هنا مبيّنة آثار هذا الكيد وهو قضاء الله ـ عز وجل ـ وقدره النافذ في الكافرين؛ أخذًا بثأر سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ، فكانت النتيجة أن طبع الله على قلوبهم، فقال ـ سبحانه ـ: (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)).

وهذا معناه أن الله ـ تعالى ـ استجاب لرسوله موسى بأن هيّا له رجلا من بني إسرائيل يدافع عنه، ويقطع الشرّ، ويخمد نار الفتن بين بني إسرائيل.

فالغرض من هذه القصة ـ كما يبدو ـ هو: توجيه النصح والوعظ لفرعون وقومه وتأنيبهم على كيدهم لموسى ـ عليه السلام ـ والعزم على قتله، وتحذيرهم من بأس الله ـ تعالى ـ فهذا هو المعنى الذي من أجله سيقت القصة؛ لزيادة النكال بفرعون، زجرًا له عما همَّ بفعله من قتل موسى عليه السلام؛ لذا اقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يهيئ لوعظهم ونصحهم مَنْ هو فيهم ومن بينهم وهو (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)، وهذا رزق للعوة في ميدانها، ونصر لها يجب ألا يغيب عن الدعاة إلى الله، لاستثماره متى يسره الله، ولقد كان هذا الرجل رسولا لقومه من قومه؛ ليكون أقرب إليهم في لغة الحوار والفهم والمجادلة، وليكونوا أقرب إليه في الإنصات والاستماع إلى دفاعه؛ حتى يرجعوا عن كيدهم، فلما عاندوا واستمروا في تكبّرهم أخبر الله ﷻ أنه لا فائدة من نصحهم وإرشادهم فقال ـ سبحانه ـ (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)) فكانت هذه الخاتمة على إثر دعوة موسى فيهم (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ).

ويبدو أن الغرض من هذا الأسلوب والتوجيه في القصة سببه هو الدفاع عن سيدنا موسى عليه السلام؛ لإخماد نار الفتنة المشتعلة بين بني إسرائيل وإزالة الشر عن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله.

وقد حمل هذا الغرض في طياته أساليب وتراكيب مختلفة فتارة ترى الترغيب، وتارة ترى الترهيب وتارة ثالثة ترى الوعظ والتأنيب على النحو التالي:

- استنكار قتل موسى عليه السلام المؤمن بربه، المرسَل بالآيات والمعجزات الدالة على صدق نبوّته وصحة رسالته، فقال ﷻ: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ).

- تحذيرهم وتخويفهم من بأس الله في الدنيا من خلال الأمم الماضية التي تحزّبت واجتمعت على محاربة أنبيائهم مثل قوم نوح وعاد وثمود، فقال ﷻ: (وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31)) ٣٠ – ٣١.

- تذكيرهم بما فعل الأولون مع يوسف ـ عليه السلام ـ من تكذيب رسالته والشكّ في دعوته، فقال ﷻ: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ).

وإن براعة هذا لرجل وبلاغته وقوته في الحق، وجهاده وتعرضه للأذى لعمل كبير، وعلم غزير، يجب عكوف الدعاة عليه بالمدارسة وتعلم العمل به.

3- تحدي فرعون لموسى، وإصراره على تكذيبه:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)) [غافر: ٣٦ – ٣٧].

يظهر –جليا– أن الغرض من هذه القصة هو: الإيقاع بفرعون في شرّ عمله وسوء صنعه؛ جزاء إيهامه الناس التحديّ لإله موسى والاستخفاف بعقولهم، فقال ﷻ: (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلاّ في تباب)، وكان لهذا الغرض سببه، وهو صرف فرعون قومه عن الإيمان بموسى عليه السلام والتمويه عليهم من أجل بقائهم في الكفر؛ جهلا منه واستخفافا بعقولهم. وهذا هو الكيد والإيهام بدعوة موسى وصرف الناس عنها، ولهذا الإيهام والتمويه معطياته التي فيها قوله ﷻ: (يا هامان

ابن لي صرحًا)، ثم البرهان الدال على كذب فرعون وإضلاله في قول الله ﷻ: (وما كيد فرعون إلا في تباب)؛ ليكون الجزاء من جنس العمل، فكما أن عمل فرعون ضلال وإضلال فإن جزاءه كذلك البوار والدمار.

إن سر التنجيم في هذا المقطع بشرى للدعاة بهلاك أعداء الله فكريا، واقتصاديا، وسياسيا، ودينيا، واجتماعيا.

4- مؤمن آل فرعون ثبات وفوز:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

وهذا المقطع هو الآخر يتألق فيه هذا الرسول البشري المتبع رسول الله موسى، وإنه لمعنى عظيم أن يذكر البيان القرآني فارسا من فرسان الدعوة بهذا الطعم الجديد، وهمة علية، وفقاهة كأنها فقاهة الأنبياء المرسلين، وغيرة مخلصة، وثبات راسخ، لم يخرم من أسس الدعوة من شيء، لم يكن إلا رسولا بقوة رسل الله، ومن حسن العواقب أن يكرم الله هذا الداعي إلى الله تكريما عظيما صرح فيه برسالة قوية إلى الدعاة، مفادها

قاعدة مطمئنة مبشرة، هي (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45))، إنها الوقاية التي ضيعت جهود الحاقدين المكَرة الوادّين في شماتة الدعاة الأبرار، كما أنه قاعدة تبشر بغيظ الكفار من سوء المصير في الآخرة، إنهما اثنتان معا: خزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وإنهما خسرانِ اثنان: خسران الدنيا، وخسران الآخرة، ويا له من أمر يهيج إلى أنفس الدعاة بقرارة أعين وسريرة قلب وشراحة صدر.

فهذه الآيات توضح استمرار مؤمن آل فرعون نصائحه لهم مرّة أخرى، عندما رآهم يتمادون في الكفر والضلال والتكذيب والإضلال، فنادَى قومه ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى الذي هو طريق الرشاد والحق، ثم حذّرهم من الحياة الدنيا ومتاعها والاغترار بها، ورغّبهم في العمل للأخرة؛ لبقائها ودوامها، ثم قارن بين دعوته لهم غلى طريق الله –تعالى– (طريق النجاة) وبين دعوتهم له إلى عبادة الأوثان والأصنام (طريق النار والهلاك)، فقال: (ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار...). ثم في آخر الآيات بيان عن وقايته وحمايته وحفظه وعصمته له. وخلاصة القصة: أن الله ـ تعالى ـ جعل إيمان هذا الرجل المؤمن سببًا في الدفاع عن موسى ـ عليه السلام ـ من جهةٍ، وسببًا لإذلال وهوان فرعون وقومه من جهةٍ أخرى.

5- العبرة من قصة موسى وفرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

إن سر التنجيم هنا يتلألأ إشراقا، لأن هذا المقطع يجمع ويجمل سعادة الدعاة بنصر الله، فثمة قاعدة تعد هي هنا واسطة العقد، وحبة الدر: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51))، إنه النصر الذي لا يتخلف، ليس معه ضد في طريق رسل الله، فهي بشرى كبرى، وسعادة عظمى لهم بقرارة أعين، وفخارة أنفس، وزكاوة قلب، لأنه وعد الله بنصر الدعاة على الأعداء.

كما أن من ملامح التنجيم الدعوية هنا (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)، إنهما صبر ونصر معا، يبشر الله به الدعاة بهما لأنهما لا ينفكان، إما نصر، وإما صبر، وفي كل واحد منهما الأجر.

التاسع عشر: سورة الزخرف، وفيها موضع

- خيبة مؤسسات فرعون الإعلامية:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُون. وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ) [الزخرف:46-56].

هذا موضع من أهم المواضع التي يتجلى فيها سر التنجيم القصصي، حيث يمثل صورة قوية لانتكاسة القوم المرسل إليهم، فهنا يظهر أن تأثير المؤسسات الإعلامية الفرعونية قد أثرت في قوم فرعون، لم يفلحوا في الاستفادة من الخطاب الإسلامي، وصاروا مثلا وعبرة للأقوام، وهذا ملمح كبير من ملامح الدعوة إلى الله، يجب أن يكون حاضرا في فكر الدعاة.

العشرون: سورة الدخان، وفيها موضع واحد

- العظة والعبرة من إهلاك قوم فرعون وإنجاء بني إسرائيل:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33)) الدخان: [١٧ – ٣٣].

هذا المقطع خطاب دعوي رفيع المستوى، جعل الله البيان القرآني كاشفا لأسرار التنجيم القصصي، حيث تظهر معية الله لموسى رسول الله إلى فرعون وقومه، فقد توفرت آلات الدعوة، ولقد حرص هذا المقطع على إبراز معنى تمكين الله لدعوة الحقن وتجلية حسرات العدو بخزي الدنيا بفوات الملك، وتوريث المستضعفين الأرض ليكونوا سادتها، وهذا ملمح دعوي هام يرغب الدعاة إلى الله في ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

العشرون: سورة الذاريات، وفيها موضع

ــ إعراض فرعون عن موسى واتّهامُه بالسّحر:

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)) [الذاريات: ٣٨ – ٤٠].

وهذا مثال حي لانتصار دعوة الحق ودعاته على أعدائها الصادين، فقد أطاح الله أركان الملك الفرعوني بمؤسساته العتيقة، وقد أبرز البيان القرآني في هذا المقطع سنة من سنن الطغاة المستبدين الإعلامية، وكأنها قالب إعلامي معد جاهز (وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)، لا يسمح لاحتمالية رأي آخر كصادق، أو أمين، وعلى الدعاة أن يوطنوا أنفسهم على ملاقاة هذا الأذى، وليصبروا عليه.

وفي قوله ـ تعالى ـ: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) دلالة على عظمة القدرة الإلهية في إذلال الجبابرة وسوء عاقبتهم؛ جزاء استكبارهم في الأرض بغير الحق وعصيانهم أمر خالقهم ـ عز وجل ـ.

وفي مجيء قصة موسي عقب القصص السابقة ختام لاذع لفرعون وجنوده، وأنه متى غلب الكفر وانتشر الفسق والظلم والطغيان لا بّد من تدخّل الله الذي تولي الأمر بنفسه – عزو جل - فهلاك الكذابين وكسر جبروتهم لا يقدر عليه أحد إلا الله – سبحانه وتعالي -.

وقوله: (بسلطان مبين) يضرب في حق الغرض وهو الانتقام من فرعون بصفة عامة؛ لأن كونه كفر بسلطان الله فقد ناله العذاب في الدنيا والآخرة، ثم كلمة (مليم) التي أفادت قهر فرعون والانتقام منه بصفة خاصة؛ لأن شدّة الانتقام والعذاب والإيلام في حتميَّة المصير المعبَّر عنه بقوله: (فأخذناه) وفي الأخذ شدّة وعدم إفلات، وهو في اللغة المجازاة والمعاقبة.

وفي تسخير الله ﷻ لموسى هذه الآيات وتسخيره البحر لإغراق فرعون وجنوده دليل عظيم على قوّة الله التي لا تُغلب ولا تُقهر، كما أن في ذلك دليلا على عظمته ـ تعالى ـ في القدرة على تسخير كل ما في الكون طوعًا له ـ عز وجل ـ وأنه ـ سبحانه ـ له مطلق الحريّة والتصرّف في كل شيء، ومن ثمَّ لم يستطع فرعون مقاومة هذا العذاب؛ لأنه أضعف من أن يفكر في ذلك أو أن يخطر بباله.

ولاحِظْ العلاقة والصلة بين مطلع القصة والغرض منها في الذكر والحذف، قال ـ تعالى ـ في بداية القصة "وفي موسى" تصريح بذكر سيدنا موسى؛ تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا له ـ عليه السلام ـ وليكون في ذكره هيْبة ووقار وبركة تتناسب مع إنزال الآيات.

وقوله: (فنبذناهم) أي طرحناهم أو ألقيناهم في اليمّ، وهذا دليل آخر على عظمة الله ووحدانيته وقدرته على الانتقام والأخذ والإذلال لهؤلاء المتجبرين المتكبرين، وكما أن في الأخذ شدّة ففي النبذ شدّة كذلك مع مراعاة الفارق اللغوي بين اللفظيْن حيث إن في النبذ طرحًا ورميًا دفعة واحدة، ولذلك تجد في "فنبذناهم" استعارة للإلقاء والرمي، والمراد: طرحناهم غير معتدّين بهم للإهمال والإهانة والتحقير؛ لما في التعبير بالفعل (نبذ) من معانٍ كثيرة، منها شدّة التفاهة والحقارة وعدم الاعتداد بفرعون وجنوده؛ إذ إن الشيء المنبوذ كالحجارة أو الحصاة أو النواة الضعيفة المهملة، ليس لها قيمة ولا وَزْن. (1)

وفي بيان نهاية فرعون وقومه ومصيرهم المحتوم بالذلّ والخزي والدمار وضعف قوتهم وكسر شوكتهم وطوق رقابهم وخضوعهم التام الكامل تحت سيطرة القدرة الإلهية بصفة خاصة، وفي ذلك ما لا يخفى على كل ذي عقل راجح ولبّ حصيف.

---

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (نَبَذَ) بتصرّف.

الثاني والعشرون سورة الصّف، وفيها موضع واحد

- إيذاء قوم موسى له عليه السلام وعقاب الله لهم:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)) [الصف:5].

ويأتي سر التنجيم هنا، وقد سبق مواضع قرآنية كثيرة، والآن في أواخر الكتاب، ومن ثم فقد انصب السياق هنا على علاقة الرسول بقومه بني إسرائيل، لم يعد وقت هنا للحديث عن موسى وفرعون في عهد الصبر حتى النصر، إنما الآن في عهد تمكين بني إسرائيل لينظر الله ما ذا يعملون، وإنما العمل المنتظر منهم قيادة الأرض في مملكة الحق، ونشر العدل في عولمة إسلامية رشيدة تخرج الناس من الظلمات إلى النور، لكنهم هنا زاغوا عن طريق الحق، وقد آذوا رسولهم أذى شديدا، حتى كانت شكواه منهم إلى الله الذي جازاهم بزيغ قلوبهم زيغا لا يهتدون بعده أبدا.

وما يلفت النظر في شأن أسرار التنجيم هنا أن الحديث عن إيذاء قوم موسى له- قد جاء حديثا مجملا، لم يفصل أنواع الأذى، لكنه على كل حال كان أذى في سبيل الدعوة، بالعناد معه، والشقاق والخلاف، والعصيان، كما يفهم من نحو قول الله عز وجل-: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ) [البقرة:93]، و(مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا) [النساء:46]، ومن ثم يتوجه موضع يتعلق بأمة محمد ﷺ حيث يقول الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ

وَجِيهًا) [الأحزاب:69]؛ فهذا الإيذاء إيذاء في طريق الدعوة، ومما يجعله شديدا أنه من قوم الداعي نفسه، وهذا يزيد في ألمه ومعاناته ومشقته ومرارته.

لكن اللفتة الدعوية التي انطلقت في أسرار التنجيم تتلخص في بيان أن الإيذاء أمر متوقع، مع النهي عنه، لكن الذي يبقى ويخص الدعاة أنفسهم أن يدركوا أن أذى أقوامهم سنة من سنن الدعوة إلى الله، وهي التمرد والانقلاب عليه والانتكاسة (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [الأعراف:150].

ففي هذه الآية بيان إلى النبي ﷺ بطبيعة ما يجب أن يوطن الدعاة عليه أنفسهم في طريق الدعوة إلى الله، ليس من أعدائهم فحسب، بل من أقوامهم أيضا، الذين من أجلهم يعانون وفي سبيل هدايتهم يسعون، وفي حوائجهم والاستغفار لهم والصبر عليهم يبذلون، ومن ثم فإن هذا الموضع مع أنه جاء موجزا في آية واحدة ترشد رسول الله إلى سنن الدعوة، وتصّبره على أذى قومه بذِكر قصة سيدنا موسى عليه السلام مع قومه، أي اذكر لقومك يا محمد حين قال موسى لقومه: يا قوم لم تؤذونني بأقوالكم وأفعالكم، مع علمكم أنني رسول الله إليكم؟ فلما حادوا عن طريق الحق والاستقامة – مع علمهم به – وأصرّوا على هذا الطريق صرف الله قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد؛ لأنه – سبحانه – علم أنهم أهل فسق وشرك وضلال، ومن ثمَّ عاقبهم الله – عز وجل – على زيغهم هذا فقال: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)؛ لأنه – سبحانه – لا يهدي القوم الفاسقين أي الخارجين عن طاعة الله وطريقه المستقيم فقال: (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).

ذكَر البقاعي: "ولما كان التخلّف عن أمر الله – تعالى – والغفلة عن شيء يؤدي تركه إلى التهاون به والإخلال بأدب من آدابه موجبًا للكون في صف الشيطان ومفارقة حزب الرحمن فيكون أذى الرسول ﷺ فيوجب ذلك الشقاء كله؛ لأنه جدير بأن يجّر إلى أكبر منه إلى أن تحيط الخطايا فتبيح الرزايا، وكان

للتذكير بالمشاهدات والأمور الواقعات ما ليس لغيره في التأديب ومرجع الترهيب ذكر بما كان لبني إسرائيل ترهيبًا من مثل حالهم حين تقاعسوا عما أمروا به من فتح بيت المقدس من الله – تعالى – غضب عليهم من فعلهم ذلك فسمّاهم فاسقين وضربهم في التّيه أربعين سنة وأمات في تلك الأربعين كل مَنْ توانى منهم في ذلك، فلم يدخل إلى بيت المقدس منهم أحد، فحُرموا البلاد التي تقاعدوا عن فتحها وهي بعد مكة والمدينة خير بلاد الله تعالى –وأنزهها وأبْركها وأكثرها خيرًا فقال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)).[1]

وفي قوله – تعالى –: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) إيماء إلى أن موسى – عليه السلام – لقي أذى كثيرًا من قومه.

وقوله: (لم تؤذونني) سؤال على سبيل الإنكار والتعجب من حالهم، وجاء هذا عقب قوله: (يا قوم) وفي ذلك نوع تودّد وتلطف وعتاب؛ وذلك لأنهم يعلمون صدقه ونبوّته ومع ذلك أعرضوا عنه وحادوا عن طريق الحق والصواب ومالوا إلى طريق الكفر والجهل، بدليل قوله – تعالى –: (وقد تعلمون) بصيغة المضارع بعد (قد) التي تفيد التحقيق هنا، وأفاد ذلك تجدّد علمهم برسالته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه، لكنهم أنكروا ذلك؛ عنادًا، وهذا يشير إلى نقضهم العهد وعدم الوفاء بما قطعوه على أنفسهم حين ألقى الله عليهم العذاب فقالوا: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)) الزخرف:[٤٩ – ٥٠]، فدّل ذلك على فُرقتهم وعصيانهم لله ونبيّه موسى –عليه السلام– فاستحقوا العقاب، قال – تعالى–: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)، والزيغ: الميل عن الحق.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 9/20.

ومن الملحوظ أن (الزيغ) في الآية جاء عقب لفظ (تؤذونني)؛ ليدل على أن الزيغ ضلال وإيذان بالإيذاء الذي هو مخالفة التحذير من الفُرقة والعصيان والخروج عن الطاعة، فسَّره قوله (تؤذونني) قبله؛ لأنهم آذوْا موسى – عليه السلام – فبرَّأه الله مما قالوا وخالفوا، فجاءت لفظة (تؤذونني) هنا على سبيل العموم في الإيذاء، أي كل أنواع الإيذاء، وفي الوقت نفسه أفادت – من الناحية اللفظية – الإجمالي لكل ما تقدم من تفصيلات في القصص السابقة على مختلف أنواع الإيذاء له – عليه السلام–.

الثاني والعشرون: سورة النازعات، وفيها موضع

- استمرار فرعون في غيّه وتكذيبه موسى – عليه السلام – ودعوته:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)) [النازعات:١٥-٢٦].

هذا هو الموضع الأخير الذي يقف عنده البحث في دراسة أسرار التنجيم في القصة القرآنية الواحدة، يخاطب الله فيه أمة التلقي بدءا برسولها وإمامها وقائدها وقدوتها الحسنة، وهو خطاب مستأنف في سورة النازعات، وهي سورة ذات سياق روحي يخلع القلوب، إنها الآخرة التي هي الآن في السياق حاضرة، والناس فجأة بالساهرة، وإن أعظم ما يحب العبد أن يكون قد حصل من الدنيا التي فنت وذهبت أن يكون داعيا إلى الله، ومن ثم فإن البيان القرآني يبدأ بسؤال هو عبرة، فقال: (هل أتاك حديث موسى)، ومن ثم فهو حديث دعوي، لم يقل حديث فرعون، لأنه رمز الفساد، لكن قال (حديث موسى) لأنه رمز الإصلاح المرجو الذي من أجله كان التنجيم القصصي.

إنه حديث، لا خبر، ولا نبأ، والحديث يدل على الحدث الحادث الجديد الآن، وقد جدد الله الكلام عنه للعبرة، وقد اصطفى الله موسى للرسالة، من مكان مبارك، الوادي المقدس طوى، وقد طَوَى في الكلام مطاوي مختصرة، فأسقط التفاصيل الخاصة بتلقي موسى أول درس في الدين عن رب العالمين، وركز على الغرض الأكبر من الرسالة، وأمره ليذهب إلى فرعون، وعلل له السبب، بدعوة من القلب مفتوحة يتجدد فيها المحاولة التي يأس معها، إن البيان القرآني هنا يجلي حقيقة دعوية كبرى هي أن تعدد ذكر رسالة موسى إلى فرعون– مع أن في كل موضع تظهر نتيجة الدعوة، وهي إصرار فرعون على موقفه من موسى، وأنه لا جديد في موقفه في كل مرة، لم يلِن، ولم يتق ربه، لم يشكر لموسى حرصه على هدايته، وقد استوفى فرعون حقه في الدعوة– هذا التعدد يجب أن يبعث على الإقبال على الذين أرسل إليهم مرات وكرات، فلا يأس من دعوتهم وتجديدها، وأنه لا يعرض عنهم رسولهم إلا إذا أذن الله له في الإعراض عنهم، والتولي عن دعوتهم بعد آخر مرة، لأن رسل الله إنما يعملون عند الله بإذنه هو، فلا يتوقفون إلا بإذنه، ولا يعرضون عن أحد إلا بوثيقة شرعية من رب العالمين، وحجة من الله وبرهان، لأن أوامر الدعوة كلها بإذن ربها: (أُدعُ)، (اصبرْ)، (ذكّرْ)، (أَعرضْ)، (تولَّ)، (اِشهَدْ).

ففي هذه الآيات إعلام للنبي محمد ﷺ بدعوة موسى حين ناداه ربه بالوادي المقدس المبارك (طوى)، ويأمره بأن يذهب إلى فرعون؛ لأنه طغى في استمراره على الكفر والضلال وتجاوز الحدّ في التكبر وادّعاء الربوبية، عسى أن يتطهر ويخشى لقاء ربه ويتقيه، فأراه سيدنا موسى الآية والمعجزة الكبرى وهي (العصا واليد) فكذّب فرعون وعصى ربه وأعرض بجانبه وانصرف، ثم دعا قومه وحشرهم أي جمعهم في ساحته وقال لهم –كما أخبر الله على لسانه-: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)) [النازعات:٢٤]، أي أنه زعم وتظاهر أمام قومه بألّا ربّ لهم سواه فانتقم الله منه بالعذاب في الدنيا والآخرة وجعله عظة وعبرة ونكالًا لمن يعمل بعمله وسلوكه؛ زجرًا لهم وردعًا في كل زمان ومكان.

ومن ثم فالغرض من قصة موسى عليه السلام هنا مع فرعون هو: تهديد كفار مكة بأن يصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه؛ لشدّة عنادهم وإعراضهم عن دعوته، كما يفهم غرض آخر من القصة ولعله هو المعنى الأساس والغرض الرئيسي الذي تدور عليه القصة، بل السورة بأكملها من أولها حتى آخرها، وهو إثبات قدرة الله – تعالى – وعظمته على الايجاد بعد العدم، وهي المشار إليها في قول الله – سبحانه –: (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)).

وعلى هذا فإن المعنى الأساسي هنا المأخوذ من القصة نجده في قوله – تعالى –: (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى.....)؛ ليكون الاتعاظ والاعتبار بما حلّ بفرعون وآله من عذاب شديد ووعيد أليم؛ جزاء تكذيبهم الآيات، وتكذيبهم موسى، وتكذيبهم البعث والجزاء، شأنهم في ذلك شأن كل مغرور مكذب ضال – والعياذ بالله تعالى –.

وفي قوله: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15)) وهذا توجيه لمحمد ﷺ في دعوته بذكر حال غيره من الأنبياء؛ عبرة لكل ذي لب وصاحب قلب، وفي الوقت نفسه إيماء إلى كفار مكة بأن يحلّ بهم ما حلّ بفرعون وآله، وتأمل هذا الأسلوب الاستفهامي (هل) والمراد منه: تشويق السامع وإثارة فكره وإعمال عقله نحو الشيء المستَفْهَم عنه، وهو كناية عن أهمية الخبر أو أهمية القصص القرآني لموسى عليه السلام في دعوته؛ فإن فيها من العظات والعبر ما لا يخفى من الخشية والخوف من الله – عز وجل – وهذا ما بيّنته القصة في خواتيمها: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)).

ثم الخطاب في (أتاك) وهو لزيادة التنبيه وأهمية ما يُقال، و(هل) في الاستفهام هنا مثل (قد) في الإخبار، والمعنى: قد أتاك والمراد من الخبر: إثبات إقامة الحجة وتبليغ الناس الدعوة على معنى التحقق المفهوم من تقدير (هل) بـ (قد) والغرض: هو تثبيت فؤاد النبي ﷺ وإدخال السَّكينة في قلبه وازدياد ثقته في نصر الله تعالى.

وقوله: (حديث موسى) جاء على سبيل الإجمال الذي يعقبه إطناب بذكر التفصيل، والغرض من ذلك التفصيل والإيضاح هو إقامة الحجة على فرعون ببيان الفضل والامتنان على سيدنا موسى بإنزال الآيات والمعجزات، وتعهد ربّه سبحانه له بالحفظ والرعاية والتكريم والتشريف المفهوم من قوله: (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16)).

ولعل ذلك تمهيد وتهيئة لحال موسى في الدعوة واصطفائه للرسالة بصفة خاصة، بدليل الآية السابقة: (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) وفي ذلك تخصيص للمنادى وتخصيص للمكان لمبارك من باب التفضل والإنعام وتمام الحجة والبرهان، ولذلك علاقة وطيدة بإنكار فرعون الآيات والإعراض عن رب الأرض والسموات، فضلًا عن ادّعائه الربوبية؛ لأنه لما أنكر كل ذلك ونفاه كأنه أنكر كل شيء من حوله في الكون ما عداه، وهذا هو عيْن الغرور والتكبر والمسّك بالجاه، وهذا ما أكّده اسلوب الأمر في قوله –تعالى–: (اذهب إلى فرعون)، وتخصيص فرعون فيه دلالة على أنه المقصود بالطغيان والظلم والغرور والاستكبار في الأرض بغير الحق.

وقوله: (إنه طغى) جملة تعليلية للأمر بالذهاب إلى فرعون؛ لأنه طغى. واختيار الطغيان؛ لأنه كلمة جامعة لكل خصال الشرّ – عقيدة ومعاملة وسلوكًا– "فالمعنى: أنه طغى على الخالق بأن كفر به، وطغى على الخلْق بأن تَكبّر عليهم واستعبدهم، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلْق، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلْق". (1)

وقوله: (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20))، فهذه الآيات الثلاثة جامعة لأوصاف الرسالة من حيث التبليغ والإنذار، وفيها إقامة للدعوة على

(1) الرازي، تفسير الرازي، 39/31.

هذه الأركان:[تزكّى/أهديك/فتخشىَ]، ثم إرسال ما يُلزم النفْس من إيجاد الإيمان والشعور به عن طريق الإحساس برؤية الآيات، فأراه أكبر برهان على ذلك وهو (فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى (20))، وهذه الآية خصّيصًا؛ ليزيد القلب شعورًا بقدرة الله وحمته في لإيجاد أصول الإيمان المتمثلة في هذه العناصر: الزكاة والطهارة (العقلية والبدنية، بخلوّهما عن كل ما لا يليق بالله –تعالى–) ثم الهداية، ثم الخشية والخوف من عقابه – سبحانه – في الدنيا والآخرة، إذن كانت الآية الكبرى؛ رجاء التفكر بالإيمان؛ فقد أرى الله فرعون ما لم يره أحد قبله، ومع ذلك طغى وتجبَّر؛ ليكون العقاب لك إلى أن تزكى أشدّ وأنكى في الدّارين (في الدنيا والآخرة).

وهذه الجملة (فأراه الله الآية الكبرى) تعدّ في القصة من الإيجاز البليغ في ترتيب وتتابع الأحداث؛ لأن موسى – عليه السلام – جاء برسالته يدعو فرعون إلى الإيمان والتوحيد فكذّب وعصى، فاحتاج إلى دليل على صدق نبوّة موسى وصحته رسالته – عليه السلام – فقال: (فأراه) باستخدام حرف الفاء الدال على السرعة، "والفاء فصيحة تفصح عن جُمل قد طويت تعويلًا على تفصيلها في موضع آخر". [1]

وقوله: (فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25))، هذه الجُمل أتت حكاية عن طغيان فرعون وجبروته، وتحمل في طياتها أخلاقهًا سلبية تنم عن سوء الطباع، ولا ريْب أنها سلوك فرعون الدال على ذميم أقواله وأفعاله وصفاته واعتراضه وإعراضه عن الدعوة، وعندما نتأمل هذه الثنائيات في صفات فرعون وسلوكياته الذميمة نجد (كذب وعصى)، (أدبر يسعى)، (فحشر فنادى) نجد أنها تمثل في فرعون إنسانًا وحشيًّا بهجومه على الدعوة واستيلائه على عقول قومه وحبْس أفكارهم وجمود شخصياتهم، حقًّا إن فرعون –كما صوّره القرآن الكريم – شخص لم يخش الله – عز وجل – بل كان يخشى زوال ملكه؛ حفاظًا على وضعه الاجتماعي

(1) الألوسي، روح المعاني، 230/15.

والاقتصادي والفكري بين الشعوب، فجاءت هذه الآيات ذمًا لفرعون، وفي الوقت نفسه بيانًا لأسباب غروره التي لم يقتنع إلا بها، وفي الآيات وصف غرضه –كما ذكر ابن عاشور –: "أنه ارتقى من التكذيب والعصيان إلى ما هو أشدّ وهو الإدبار والسَّعي وادّعاء الألوهية لنفسه، أي بعد أن فكّر مليًّا لم يقتنع فخشى أنه إن سكت ربمَا تُرَوّج دعوة موسى بين الناس فأراد الحيطة لدفعها وتحذير الناس منها". (1)

وفي السعي استعارة، والمراد: الهمّة العالية المذمومة في الإعراض عن الدعوة، وكلمة (فحشر فنادى) الفاء فيها للتعقيب؛ لبيان إنكار فرعون الذي أعقبه سرعة دلت على غروره وتكبره؛ لتحقيق هدف شخصي في نفسه، من أجل ذلك نادى قومه مما يفهمنا أن الجملة فيها إيجاز بحذف المفعول تقديره: فحشر أي جمع قومه ونادىَ قومه وهو من الإيجاز البليغ الذي عبّر عن غفلة قومه وغيابهم بالذلة التي وضعهم فيها فرعون وكأنهم لا وجود لهم ولا كلمة لهم أمامه، بدليل قوله:" فقال أنا ربكم الأعلى".

ثم يأتي المشهد الأخير من القصة المتمثل في سوء العاقبة والعبرة منها فقال – سبحانه –: (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26))، وهنا تقديم وتأخير في كلمة (فأخذه الله) ثم نلحظ طباقًا يوضح لمعنى ويؤكده في مضمون النكار والعبرة بين (الآخرة والأولى)؛ فالتعبير بالأخذ جاء لمعنى الشدّة والبقاء في العذاب يفسره قوله:(نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى)، عذابهم في الأخرة، قال – تعالى –: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)، ونكال الأولى أي عذابهم في الحياة الدنيا بأقذع وأفظع ألوان العذاب وهو الإغراق في اليمّ، وهذا ما أفادته الآية الأخيرة من القصة، حيث قال – تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26))، فاسم الإشارة عائد إلى ما سبق من النكالَيْن في الدنيا والآخرة المعبَّر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 79/30.

عنهما بقوله:(نكال الآخرة والأولى)، قال ابن كثير:" أي انتقم الله منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالًا لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود...". (1)

ومن الملحوظ هنا العدول عن لفظ العدد (الثانية) إلى لفظ (الآخرة) فلم يقل – مثلا- (نكال الثانية والأولى)؛ لدلالة أن هذه النهاية لفرعون لا تعقبها نهاية، وفي تقديم لفظ (الآخرة) على (الأولى) من حيث الذكر نكتة بلاغية أخرى.

ولعل في التقديم أيضًا سببًا لإدخال الرعب والخوف داخل قلوب هؤلاء المشركين وأمثالهم؛ ردعًا لهم وزجرًا؛ لأنهم أنكروا البعث والقيامة، ومن ثمَّ جاء الآية تعريضًا بعذابهم وإثباتًا لموتهم وبعثهم.

وإن في قول الله عز وجل: (فَأَخَذَهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) حاجة قوية لدى البحث في الوقوف عند معنى عزيز يمكن استنباطه هنا، وهذا من خلال أن البيان القرآني يقصد بالآخرة هنا المرة الثانية والأخيرة التي أغلظ فيها فرعون في القول بادعاء الربّانية بعد ادعائه الإلاهية، فقد مر في سورة القصص (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) [القصص:38-42]، فهذه هي المرة الأولى، أما المرة الأخرى في هذه فَقَالَ (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))، لكن البيان القرآني عدل عن كلمة (الأخرى) إلى (الآخرة)، ولم يقل (الأخيرة)، ثم قدم (الآخرة) على الأولى، لا لتجانس الفواصل

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير، 317/8.

في الآيات، إنما لأن المقام يقتضي بيان أن الآخرة) أشنع وأفظع وأدهى وأمر، وأنها هي السبب المرتقب بعد المرة (الأولى).

ثم تأتي العبرة سلسة بعد أن تمكنت في الأنفس المتلقية، عبرة للمتلقين، الذين يستمعون هذا الخطاب الدعوي، فيتبعوا أحسنه، لا أن يسمعوا ويعرضوا، ولا أن يسمعوا ويعصوا.

وإن مما يجب الوقوف عنده من هذا النقل قوله: (يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب)، لأنه يجلي للدعاة إلى الله حقيقة التزام رسل الله بالتلقين في أداء القول المكلف به، ثم إن من توجيهات التنجيم القصصي هنا أن الدعاة إلى الله ليسوا محاسبين على نتائج ومواقف المرسل إليهم، فمع التزام الرسل بواجبهم لم يستجب المرسل إليه، ومن ثم يقول صاحب الظلال: "لقد بلّغ موسى ما كُلّف تبليغه بالأسلوب الذي لقنه ربه وعرفه، ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة القلب الطاغي الخاوي من معرفة ربه، فأراه موسى الآية الكبرى آية العصا واليد البيضاء، كما جاء في المواضع الأخرى: (فَكَذَّبَ وَعَصى)، وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية في اختصار وإجمال".[1]

وأجد نفسي مضطرا أن أقف لبيان شبهة عرضت لي في كلام صاحب الظلال، إذ يقول: "ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى.. لأنه أشد وأبقى. فهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده؛ ولأنه الأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسي؛ ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقي في القافية بعد اتساقه معنويا مع الموضوع الرئيسي، ومع الحقيقة الأصيلة. ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا، فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان ومجد موروث عريق فكيف بغيره من المكذبين؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين؟ (إِنَّ فِي ذلِكَ

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 3815/6.

لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى)، فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب، حتى يصطدم بالعاقبة اصطداما، وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وكلٌّ ميسر لنهج، وكل ميسر لعاقبة والعبرة لمن يخشى".[1]

فكون صاحب الظلال يوجه النص في كلمة (نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى) على اعتبار أن الآخرة مقصود بها يوم القيامة، فهذا فيه اشتباه، وقد سبق أن كثيرا من المفسرين رأوه رأيا معتبرا، لكن البحث يرد هذا ويبينه على اعتبار أن الآخرة هي المرة الثانية التي أغلظ فيها فرعون أنه رب، وفي الأولى أنه إله، هذا، والحمد لله رب العالمين.

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 6/3815-3816.

2.1 المبحث الثاني: العِبر المستخلصة من الأغراض البيانية في قصة موسى عليه السلام

1. النجاةُ من الهلاك نعمةٌ من نعم الله تعالى على الإنسان:

وهذا مفهوم من قوله -تعالى-: (وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) [البقرة: ٤٩]، وذلك من خلال الاستعارة في " يسومونكم"؛ لأن أصل السوم يكون في البيع والشراء، وفي ذلك بيان بتذكير بني إسرائيل نعم الله عليهم بالنجاة ليؤمنوا.

والحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب. بل يمتن عليهم بقمة النعمة. وهي نجاة الأبناء من الذبح واستحياء النساء. لأنهم في هذه الحالة ستستذل نساؤهم ورجالهم. وإذا قيل: كيف يخاطب الله ﷻ غير من أنعم عليهم؟ فتقول إن ذلك لاتصال أجيالهم بعضها ببعض وصفات أولهم هي صفات آخرهم، فطباعهم واحدة في كل عصر وزمان، ولا عهد لهم ولا ذمة، وهم بذلك عبرة للناس بعامة والمسلمين – بخاصة – حتى لا يسلكوا ما سلكوا من سُبُل.(1)

2. المبالغة في الذم وزيادة التهكم والتقريع ببني إسرائيل:

قال تعالى: (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)) [البقرة: ٥٩]، وذلك بوضع الاسم الظاهر موضع المضمر في قوله: (الذين ظلموا)؛ فلم يقل ﷻ: فأنزلنا عليهم؛ لزيادة التقبيح والمبالغة في تقريع هؤلاء والتهكم بهم. (2)

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1/ ٣٢٤.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه، 672/6.

ومن ذلك المعنى ما جاء في قوله –تعالى-: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ) [الذاريات: ٤٠]؛ فالهاء في "فأخذناه" عائدة إلى فرعون دون التصريح باسمه؛ لصيانة اللسان عن النطق به في هذا المقام واستهجانه وقباحة ذِكْره،(1) والله أعلم.

3. إحاطة العذاب بالطامعين من اليهود:

قال ﷻ: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) [البقرة: ٦١] وفهمتُ هذا المعنى من خلال الاستعارة بالكناية، والمراد: إحاطة وتمكن الذلة والمسكنة من هؤلاء المجرمين كما تحيط القبة بمن تحتها والخيمة بمن فيها.(2)

4. بيان فضل الله على الصالحين وإكرامهم:

وذلك من خلال الاعتراض الموجود في قوله –تعالى-: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)) [المائدة: ٢٣]، والجملة الاعتراضية هي قوله: (أنعم الله عليهما)، وغرضها: إكرام اللهُ الصالحين وبيان فضله عليهم، أنعم الله عليهما أن الله أنعم عليهما بالشجاعة، فحذف متعلق فعل «أنعم» اكتفاء بدلالة السياق عليه.(3)

5. رسل الله لا يقولون إلاّ الحق:

ويظهر هذا المعنى من خلال قوله –تعالى -: (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105)) [الأعراف: ١٠٤ – ١٠٥]، وطريق القصر هنا النفي والاستثناء الدالّ على إكرام الله وتشريفه

---

(1) السامرائي، كتاب لمسات بيانية في نصوص من التنزيل – محاضرات، ص ١٠٢٠.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ ٥٢٩.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/ ١٦٥.

بالرسالة في جانب سيدنا موسى – عليه السلام –، فكان هذا الإنعام والإكرام والتشريف حقًّا يتلوه ويعقبه حق آخر هو إظهار المعجزات في هذا المقام، وأن بيان ذلك وتأييد سيدنا موسى به حق لا مرية فيه ولا جدال.(1)

6. إثبات قدرة الله ﷻ في إظهار المعجزة:

كما في قوله تعالى: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)) [الأعراف: ١٠٧ – ١٠٨]، وقد بان ذلك المعنى من خلال الفعلين الماضيين (ألقى – نزع)، ثم الأداة (إذا)؛ للدلالة على المفاجأة وإفادة السرعة في تحوّل الشيء بقدرة الله – عز وجل–.

وانظر كذلك إلى هذا المعنى تجده شاخصًا في قوله: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117)) [الأعراف: ١١٧].

وقوله: (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69)) [طه: ٦٩].

وقوله: (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) [الشعراء: ٤٥].

ومن الملحوظ أن الفعل "تلقف" في الآيات الثلاث جاء دالاً على السرعة، أي تلتقم وتبتلع بسرعة، يُقال: لقف وألقف الشيء تناوله بالحذق سواء باليد أو اللسان، وقيل: هو الحذق بصناعة الشيء وسرعة تحّوله من شدّة الأخذ إلى الابتلاع.(2)

7. ثبوت الحق وغلبته على الباطل:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 37/9.

(2) ابن منظور: لسان العرب: (لَقَفَ)..

كما في قوله تعالى: (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف: ١١٨]، وذلك من خلال الاستعارة في كلمة (فوقع الحق)؛ حيث استعير الوقوع للظهور والثبوت، وفي الفعل الماضي دلالة على التحقيق، والغرض منه هنا: بيان إظهار الحق ولفت انتباه بني إسرائيل إليه، خاصة وأن وقوع الشيء من أعلى إلى أسفل فيه تنويه بالنظر إلى الشيء المراد، وهو الوصول إلى الحق والحقيقة، يُقال: وقع الشيء وقوعًا سقط، وكذا يُقال: وقع المطر بالأرض، أي سقط المطر مكان كذا –كما حكاه سيبويه –.

ومن المعاني الدالة على وقوع الحق بمعناه اللافت للنظر أن تقول: سمعت وقع المطر وهو شدّة ضربه الأرض إذا وَبِلَ، [1] وبذلك يكون المعنى المراد من الاستعارة هو شدّة الظهور، واليقين بوجود الحق وثبوته.

8. ذمّ آل فرعون بإغفال الآيات وعدم تدبّرها:

قال تعالى: (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136)) [الأعراف: ١٣٦]، والتعبير بالفعل الماضي في (وكانوا عنها غافلين) دلّ على تحقيق غفلتهم عن وجوب النظر في الآيات، وعدم تدّبر المعجزات، فضلًا عن اسم الفاعل في كلمة (غافلين) الدالة على معنى التكثير والمبالغة في الغفلة، وكذا دلّ على أن تلك الغفلة منهم متجدّدة مستمرة، لذا ترى سيدنا موسى – عليه السلام – يذكّرهم بذلك في موضع آخر فيقول – تعالى – حكاية عنه: (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)) [البقرة: ٧٣]، وقوله: (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)) [الزخرف: ٤٨]، وفي مجيء الفعلين (تعقلون/ترجعون) بالمضارع ما يدل

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، (وَقَعَ) بتصرّف.

على الاستمرار في دعوتهم إلى التدبر وفهم الآيات وإيقاظهم من غفلتهم لكنهم أعرضوا عنها فكانوا من الغافلين فطمس الله على قلوبهم.(1)

9. اللجوء إلى غير الله – تعالى – هلاك وتدمير وخسران مبين:

وهذا واضح من خلال التوكيد في قوله –تعالى-: (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139)) [الأعراف: ١٣٩]، ففي التوكيد بـ "إنّ" ثبوت ويقين بأن هؤلاء على جهل وضلال وسفه؛ لأنهم يريدون تعظيم غير الله، وقد طلبوا من سيدنا موسى أن يجعل لهم إلهًا كما لغيرهم آلهة، فكان الردّ عليهم "بإنّ"؛ لإزالة ما هم عليه من شك في تعظيم وقربى غير الله تعالى، وفي الوقت نفسه تأكيد على أن هؤلاء الذين عبدوا الله خاسرون وهالكون، ثم جاء اسم الفاعل في الآية (وباطل ما كانوا يعملون)؛ للدلالة على تأكيد جهلهم وثبوت واستمرار سفههم وباطلهم الذي هم عليه، وهم له زاعمون – عياذًا بالله تعالى.(2)

10. مدح سيدنا موسى بتكريم الله له بالرؤية والاصطفاء برسالته والشكر على أنعمه:

قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)) [الأعراف: ١٤٣ – ١٤٤].

وهذا المعنى مفهوم من خلال الأساليب الإنشائية عن طريق صيغة الأمر المراد به هنا الإيناس والتسلية والتشريف لسيدنا موسى عليه السلام وانظر لترى ذلك في: (أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)، (انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ)، (فَخُذْ

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 327/7.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 332/7.

مَا آَتَيْتُكَ)، (وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)، فضلًا عن التصريح باسم "موسى" في الآيتين، كما في قوله – تعالى -: (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) [الذاريات: ٣٨]، وغير ذلك من الآيات، وفي التصريح بذكر سيدنا موسى تعظيم وتشريف وتكريم ومدح له عليه السلام؛ ليكون في ذكره هيبة ووقار وبركة تتناسب مع رؤية الله تعالى وتلقي الوحي وإنزال الآيات وغير ذلك مما فضّله الله به واصطفاه، ومما يزيد المدح مدحًا وتفضلًا عندما نقرأ الآيتين السابقتين ونجد فيهما التخصيص النسبي الذي جعله الله لموسى عليه السلام خاصة في قوله ﷻ: (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)، بضمير المتكلم في (إني) العائد على الله ﷻ الذي كرّم وفضّل سيدنا موسى بالاصطفاء بالرسالة، ثم بالكلام، ثم بالشكر، يا لها من نعم جليلة ذات مقاصد نبيلة وأهداف جليلة امتدح اللهُ بها نبيَّه موسى عليه السلام.(1)

11. وجوب الغضب والانفعال وحق المعاتبة؛ لأجل الحق ونصرة دين الله تعالى:

ونرى هذا المعنى شاخصًا في غضب سيدنا موسى عليه السلام للحق ولأجل الله تعالى، قال ﷻ: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)) [الأعراف: ١٥٠].

وكان هذا المعنى عن طريق التوكيد في هذه الثنائية اللفظية (غضبان أسفا) فالغضب حزن، والأسف شدّة الحزن، وقيل: الأسف أشّد من الغضب، وعلى إثره جاء المعنى المراد في قوله تعالى: (وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)، أي ألقى موسى الألواح التي فيها التوراة على الأرض حتى تكسرت، وكان ذلك الانفعال والغضب لله –تعالى– فكان معذورًا في ذلك، مما يدل على شدّة الموقف وأن فعل قومه وتأليبهم

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 7/٤٣٤٦.

العجل هو الذي أغضبه، ومن ناحية أخرى جاء العتاب لأخيه هارون عتابًا شديدًا ناتجًا عن ظنه في أخيه وهو التهاون مع القوم وعدم نهيهم وتحذيرهم وتخوينهم من العاقبة، حتى بيّن هارون في اعتذاره لموسى أن القوم استضعفوه وكادوا أن يقتلوه، حينها هدأت نفس موسى وأخذ في طلب المغفرة بالمناجاة والدعاء إلى الله –تعالى-: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)) [الأعراف: ١٥١].

كما بيَّنت هذه الآية بعد ذلك: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)) [الأعراف: ١٥٤]، قبول اعتذار أخيه هارون، وفي ذلك دلالة على أن الغضب أثَّر في نفوس قومه حتى تابوا ورجعوا، وهذا دليل على أن الغضب والشدّة ساعة الدعوة إلى الله تعالى أمر جائز؛ لأنه بذلك قد تحّول مسار القوم إلى وجهة كانت أحب إلى نفس موسى –عليه السلام– وهي الإعراض عن الكفر والإقبال على الله – عز وجل– بالإيمان والحق المبين.

12. إحقاق الحق وإبطال الباطل، وأن الحق أبلج والباطل لجلج:

وهذا المعنى نراه في قوله –تعالى-: (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)) [يونس: 81 – 82].

وذلك عن طريق التوكيد في (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ)، وقوله:(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)، ثم انظر إلى هذا الجناس الاشتقاقي في (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ) ترى كل هذه الأساليب القرآنية تظهر الحق وتمحق الباطل،

وأنه لابد في النهاية من انتصار الحق،[1] مصداقًا لقوله -تعالى- الذي وعد به عباده المؤمنين: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)) [الإسراء: ٨١].

13. جواز الدعاء على الظالمين العتاة الطغاة المستكبرين في الأرض بغير الحق:

وهذا ظاهر في قول الحق -سبحانه- حكاية عن موسى يدعو على فرعون: (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88)) [يونس: ٨].

وما حمل موسى على هذا الدعاء بهلاك فرعون وهلاك أمواله إلا أنه وقومه ضلوا وأضلوا عن سبيل الله فقال في صدر الآية كما أخبر القرآن: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (88) [يونس: ٨٨].

فقوله: (رَبَّنَا اطْمِسْ) أسلوب إنشائي صيغته أمر أُريد منه الدعاء على فرعون وملئه، ثم لاحظ التكرار في قوله: (ربنا)؛ لإثبات أن المقصود عرض كفرهم وضلالهم الذي به استحقوا الدعاء عليهم، ثم تأمل كذلك كلمة (اشدد) فعل أمر، غرضه الدعاء أيضًا، وفيه نكتة بلاغية أخرى هي الاستعارة؛ حيث استعير الشدّ لتغليظ العذاب وشدّة العقاب ومضاعفة الألم في الدنيا والآخرة،[2] كما مرّ بنا في تحليل القصة.

14. التنويه بشأن سيدنا موسى عليه السلام وشأن الكتاب الذي أُنزل إليه:

قال تعالى: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2)) [الإسراء: ٢]، وذلك من خلال الالتفات في قوله: (وَآتَيْنَا)؛ فهو التفات متعلّق بما قبله في: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 10/ ٦١٤٥.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15/ ٩٢٦٤.

الْبَصِيرُ)، التفات من الغيبة إلى الحضور؛ للدلالة على عظم ومكانة سيدنا موسى عند ربه –سبحانه– وعظم ما أُنزل إليه من شرائع وأحكام وأصول وأركان في الكتاب (التوراة)، ومما يدل على ذلك المعنى مجيئ كلمة (هدًى) والتنكير فيها دال على عظم الكتاب وما فيه، فكان إيتاء الكتاب وإنزاله محل فخر وتعظيم وتشريف لموسى –عليه السلام–، ثم وصف الكتاب بـ(هدًى) محل فخر وافتخار بالكتاب وبمن اهتدْوا بهذا الكتاب، والوصف هنا وصف معنوي أُريد منه الشمول والعموم في اهتداء بني إسرائيل وإيمانهم بكل ما جاء في التوراة، ثم ذكر الله تعالى العلّة من كل ذلك فقال:(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2)) [الإسراء:2]، أي جعلتُ فيكم موسى نبيًّا، وأنزلت إليه الكتاب؛ لئلّا تتخذوا من دوني وكيلًا.

15. تشريف الله – تعالى – لأوليائه وعباده الصالحين بالعلم اللَّدُنّيّ:

قال تعالى: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)) [الكهف:65]، فكلمة "عبدًا" تنكير يُراد منه التفخيم والتعظيم، أي هو عبد ذو شأن ومكانة عظيمة. ثم الإضافة في "عبادنا" إضافة تشريف وتعظيم، ثم الجناس الاشتقاقي في "وعلمناه... علمًا" فهو ليس كأي علم وإنما هو علم مخصوص لعباد مخصوصين، فسّره قوله: "من لدنا" أي هو علم لدنّي من لدن الله – سبحانه وتعالى–، وفي الكلمة تخصيص نسبيّ – أي منسوب إلى الله – عز وجل –، وهذا يعني أنه عِلْمٌ أفاض الله به على العبد الصالح (الخضر) عن طريق الإلهام الذي آتاه إياه لحكم جليلة ومقاصد نبيلة.[1]

16. الصبر والتواضع والحِلم حال العلم والتلقّي عن العلماء الربّانيين:

قال تعالى : (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) [الكهف: ٧٥]، فهذا تنبيه من العبد الصالح لسيدنا موسى لكثرة أسئلته واستعجاله في كشف الأسرار وتفسير الأحداث وبيان العلم الذي قام

1 الشعراوي، تفسير الشعراوي، 19/.1161.

به الخضر بأمر من الله – عز وجل – خاصة وأنها في جميعها أمور تتعلّق بالغَيْب وأحداث لم يكن يتوقعها سيدنا موسى، بل كانت نفسه تزداد عجبًا وتتوق شوقًا وتميل فهمًا وتعليمًا، لكنه معذور في كل ذلك؛ لأنه مع كل حدث وكل موقف يثقل فكره وتزيد عزيمته وهمّته نحو التفسير والبيان فصبر؛ لذا قال للخضر معتذرًا: (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)) [الكهف: ٧٦]، مما يدل على وجوب اعتذار طالب العلم لشيخه ومُعلمه إن صدر منه ما يحزنه أو يغضبه من خلُق خاصّ بالعلم والتعليم، والمدارسة بين المعلِّم والمعلَّم، كما اعتذر موسى – عليه السلام– إلى العبد الصالح.

ولذلك وقع هذا الاستفهام من الخضر على سبيل التقرير، وفيه تعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، والمعنى: أتقرّ أني قلتُ إنك لا تستطيع معي صبرًا؟

و "معي" ظرف متعلق بـ "تستطيع"؛ فاستطاعة الصبر المنفية هي التي تكون في صحبته؛ لأنه يرى أمورًا عجيبة لا يدرك تأويلها.

وحُذف متعلق القول؛ تنزيلًا له منزلة اللازم، أي: ألم يقع منّي قول فيه خطابك بعدم الاستطاعة؟ (1)

ومعنى ذلك أن الخضر كان شديد العتاب عن طريق الخطاب في قوله: "لك"؛ تخصيصًا في عتاب موسى وحده دون غيره على سبيل المبالغة والتأكيد.(2)

كما أننا نفهم من هذا الاستفهام الموجَّه من الخضر قلَّة ثبات وصبر سيدنا موسى بادئ الأمر على ما لم يحط به خُبرًا خاصة مع سبق التذكير له بذلك مرة أولى، ولذلك نجد هنا في هذا الاستفهام شيئًا من

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 376/16.

2 الشعراوي، تفسير الشعراوي، 961/14.

الغضب الذي يحمله الخضر تجاه موسى، خاصة وأنه قام بتحذيره وتمهيد ما قد يحدث من موسى مستفسرًا، فقال تعالى على لسان الخضر: (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69)) [الكهف: ٦٧ – ٦٩].

17. صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع بإذن الله تعالى:

وهذا واضح من خلال قوله: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) [الكهف:٨٢].

وهذا المعنى علمناه من خلال التنكير في كلمة "كنز" الدال على عظم وقدْر هذا الكنز الثمين النفيس، ودلالة الكنز هنا تشير إلى صلاح أبيهما؛ لأن الله قد حفظ للغلامين اليتيمين مالهما؛ رحمة بهما.

ولاحظ – أيضًا– مجي: كلمة "يتيمين" وصفا للغلامَيْن، ثم وصف الأب بالصلاح في "صالحًا"؛ لدلالة النفع العميم والصلاح المبين والخلق العظيم الذي عليه اليتيمان اللذان يستحقان العطف والشفقة والرحمة من الله –عز وجل–، كما أن في كلمة " صالحًا " تنكيرًا دالًّا على كثرة صلاح النّفْس وحملها على كل شيء طيب صالح، فأفاد اللفظُ العمومَ، مما يدل على انتشار هذا الخُلُقُ الكريم في نفسه وغلاميْة حتى أثر وأنبع هذا الصلاح صلاحاً في نَفْس هذيْن اليتيميْن بعد موت أبيهما فكان حفظ الثروة لهما من الله تعالى "رحمة من ربك".

18. التوجه إلى الله تعالى بالدعاء ومناجاته حال الشدائد واللجوء إليه:

قال تعالى: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)) [طه: ٢٥ – ٢٨].

فقوله: (اشْرَحْ لِي)، (وَيَسِّرْ لِي)، (وَاحْلُلْ) أساليب إنشائية صيغتها الأمر المراد منه الدعاء والتسلية لسيدنا موسى الطَّيْلاً في شدّة أوقاته التي أُمر فيها بالذهاب إلي فرعون؛ ليدعوه إلي التوحيد؛ لأنه طغى وتجبَّر، ومما لا ريب فيه أن الأمر كان يعكس في نفس سيدنا موسى صعوبة ومشقة؛ خوفاً من أن يرفض فرعون الدعوة، خاصة وأن المرسَل إليه (وهو فرعون) من سادات ورؤساء الظلم والطغيان آنذاك، ومن ثمَّ دعا موسى الطَّيْلاً ربّه أن يقوّيه ويشدّ من لسانه فصاحة ومنطقًا، فيقول: "وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي" وهنا تأتي لحظات الفرج من الله تعالى ؛ ليتمكن سيدنا موسى من الدعوة بكل قوّة وحكمة واقتدار – بإذن الله تعالى–، ومن الملحوظ أن هذا المعنى جاء من خلال الاستعارة المكنية في الجملة؛ حيث شبه عقدة اللسان وحُبسته بالخيط أو الحبل المعقود الذي يحتاج إلي تأنّ وحكمة في الحلّ؛ ليتمكن الإنسان من استعماله، فكذا دعا موسى ربه سلامة لسانه؛ ليكون قادرًا على أداء مراده بأبلغ ما يكون من الكلام وأفصحه وأعذبه؛ ليكون مقبولًا عند فرعون وقومه.

19. الحث علي التعاون والمشاركة والاتّحاد والتكافل في الطاعة وردّ الظلم:

وبان هذا المعنى من خلال الأساليب الإنشائية في قول الله تعالى على لسان موسى يدعو ربه: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34)) [طه: ٢٩ – ٣٤].

والغرض من كل هذه الأساليب الدعاء؛ حتى يستجيب الله تعالى له في الإعانة على أداء مهمة الدعوة، وانظر إلي قوله: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) تجد فيه دلالة على ثقل المهمة وأنها ليست يسيرة سهلة، وفيها استعارة تمثيلية؛ حيث شبه هيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظهر بحزام ونحوه –كما عرفنا سابقاً في تحليل الآية وبلاغتها – وإذا نظرنا إلى هذا التعبير القرآني وجدنا فيه تماسكًا من حيث المعنى والدلالة بين ما قبله وما بعده من آيات دلّت على أسباب إعانة سيدنا موسى وتقويته، في أمور وشؤون الدعوة، ثم يأتي تفسير

ذلك الطلب في قوله: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32))، ثم يبين موسى بعد ذلك فضل التعاون وأهميته في نفسه فيقول: (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34))؛ ليبيّن أن ذِكْر الله – عز وجل- بخصوصه في (نُسَبِّحَكَ) وعمومه في (وَنَذْكُرَكَ) من أسباب رضا الله سبحانه على الإنسان، ومن أسباب النجاح والثبات والقوة في الدعوة إليه سبحانه، وكأن سيدنا موسى أراد أن يبيّن لنا أنه لن يكون هناك انتصار ونجاح ومدد وإعانة إلاّ بذكر الله – عز وجل – وتسبيحه، وانظر كذلك لترى الربط العجيب بين الكريمين موسى وهارون – عليهما السلام – في الدعوة والذكر والتسبيح، مما يدل علي أن في التعاون والمشاركة على فعل الخيرات مددًا وعْونًا مضاعَفًا بكثرة الدعاء وانتشاره وكثرة الألسنة التي تلهج به ابتغاء مرضاته – عز وجل –؛ نصرة للحق ونصرة للدِّين إلي يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

20- الترتيب الدقيق والأخذ بالأسباب والاستعانة بالكتمان على قضاء الحوائج من وسائل النجاح في شتى مجالات الحياة؛ تحقيقاً للمراد دون أدنى مشكلة أو عقبة بإذن الله تعالى:

وأفدنا هذا المعنى وهذه الدلالة من قول الحق – سبحانه- يخاطب موسى – عليه السلام –: (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40)) [طه: ٣٨ – ٤٠].

وهذا المعنى نراه مأخوذاً من أساليب شتّى في الآيات الكريمة، منها:

الإلهام الصادق من الله – عز وجل – لأم موسى – عليه السلام.

رميها له في اليّم بعد وضعه في التابوت أو الصندوق المعَدّ لذلك.

أخذ فرعون لموسى – عليه السلام – في بيته.

إلقاء محبة سيدنا موسى في قلب كل من يراه.

كفالة الله – تعالى – لموسى وحفظه ورعايته له ورحمته به.

تبصرة أخته بمن يكفل موسى في أمر الرضاعة.

النتيجة والخاتمة لكل هذه المقدمات والأسباب، والتي جاء مجملها في قوله: (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)) [طه: ٤٠ – ٤١].

وفي الآيات إيضاح بعد إبهام؛ حيث جاءت جملة (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى) مبهمة تعقبها جملة (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ) مفسّرة ومبيّنة لها عن طريق (أن) المفسّرة، ثم التعبير بـ " ما " في (مَا يُوحَى)؛ للتهويل والتعظيم، وإذا كانت كل تلك الأمور والأسباب والترتيبات الدقيقة بأمر الله – عز وجل- فحتماً ستكون النتيجة ربّانية؛ لأنها على وفق مراد الله، ثم لتحقيق وعد الله لأم موسى كما تحبّ وترضى، كما أخبر القرآن: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ)؛ اطمئنانًا لقلبها وشرحًا لصدرها برجوع وليدها فلذة كبدها عليه السلام ثم تأمل من هذا المعنى أيضاً من خلال هذا الاستفهام في قوله: (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ)؛ للدلالة على عناية الله بموسى من خلال أخته وتبصّرها ومشيها بعيدًا عنه إلا أنها كانت قريبة النظر إليه؛ حتى تدلهم على أمّه في خفية وسّرية تامة مُستعمِلةً في ذلك أسلوب التشويق (هَلْ أَدُلُّكُمْ) إلي معرفة من يكفله ويهتم به من باب اطمئنان فرعون وأهله على أن سيتم أمر كفالته كأحرص وأفضل ما يكون ويحبّون.

21- العجلة في الأمور، وعدم التمهل يؤدي بلا ريب إل الخروج عن جادة الصواب:

وهذا ما فهمناه من قول الله – تعالى –: (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)) [طه: ٨٣ – ٨٥]، وذلك من خلال الاستفهام الإنكاري في قوله – تعالى – (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)؟ أي: ما الذي حملك على أن تتعجل ولا تتمهل يا موسى بخروجك من بين قومك وتركك إياهم في أوقات حاسمة يحتاجون فيها إليك وإلى تقديم النصائح والمواعظ؟

ومن ثمّ كان هذا الاستفهام من الله – عز وجل– على سبيل إلقاء اللوم والعتاب منه ﷻ إلى موسى بسبب عجلته، مما يفيد أن الإنكار كان إنكارًا للعجلة في حدّ ذاتها وليس في تصرفه وخروجه؛ لأنه كان سيخرج بأمر الله عاجلًا أم آجلًا لتلقي الوحي والكتاب؛ لكنه استعجل أمر الله فترتب على هذا الاستعجال قوله –سبحانه–: (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85))، وهو حدوث تلك الفتنة بين بني إسرائيل وبين السامريّ بعد خروج موسى لملاقاة ربه، فكانت بداية الفتنة من هنا وهي عبادة بني اسرائيل العجل؛ فقد أضلّهم السامريّ بسحره وأفعاله الضالة مغتنمًا ذلك الوقت بحجة خروج موسى ليبحث عن معبوده الذي فقده ونسيه، وهذه الحجة الواهية هي نفسها التي حاول أن يضل ويضلل بها القوم، فجاءت الآيات عتابًا على ذلك، كما مرَّ بنا في التحليل سابقًا، ومن ثمَّ نتعلم من هذه الآية – وهذا هو المغزى والمقصد الجليل فيها – أن في الاستعجال غير المصحوب بالفكر الدقيق والترتيب الحكيم ندمًا قد يوقع بصحابه في الهلاك وفيما لا يرضى الله –عز وجل– أو فيما لا يحبه الشخص نفسُه ويرضاه على غير العادة، والله أعلم.

22_ معيّة الله ﷻ سبب لنجاة المؤمنين وهلاك الظالمين:

وتظهر هذه المعية من خلال الأساليب في قوله تعالى على لسان موسى — عليه السلام– حين همّ أصحاب موسى بإدراك فرعون لهم واللحاق بهم: (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)) [الشعراء: ٦٢]،

وكانت لتلك المعية أسبابها ونتائجها، فالأسباب نراها في قول الله (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64)) [الشعراء: ٦٣ – ٦٤] وأما النتائج فنراها في قوله – تعالى-: (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66)) [الشعراء: ٦٥ – ٦٦]؛ لتكون العظة والعبرة من النجاة والهلاك كما أرانا الله إياها وأخبرنا بها في قوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67)) [الشعراء 67].

ففي هلاك غير المؤمنين تعريض بنجاة المؤمنين وفوزهم بمعيّة الله تعالى في الدنيا والأخرة.

ولك أن تتأمل أول الآية في قوله: "كَلَّا " وهذا التعبير دال على الردع والزجر، ويفيد هذا الردع هنا رجوع القوم عما يدور في أذهانهم بما يلحق بهم من أذى أو ضرر يصيبهم من فرعون وجنوده، مؤكداً ذلك بـ "إن" ثم التصريح بالمعيّة في: (مَعِيَ) ثم لفظ "ربّيّ" مع إضافته إلى موسى، كل ذلك أفاد اهتمام ورعاية الله لموسى ومن معه.

ومن الملحوظ أيضا مجيء حرف السين في (سَيَهْدِينِ)، فلم يقل موسى عليه السلام: سوف يهدين؛ للدلالة على قرب الله منهم ومعيته لهم، وأن لهم خلاصهم من يد هؤلاء الظالمين قريب ليس ببعيد، ولذلك أعقب الله تعالى هذه المعية بفاء السرعة الدالة على سرعة الحدث في قوله: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ.....) [الشعراء:63].

23- مشروعية الهجرة؛ لأنها سبيل من سبل النجاة والإصلاح والتحسين الماديّ والمعنويّ والاجتماعي والاقتصادي:

وقد بان هذا المعنى من خلال قصة سيدنا موسى عليه السلام في سورة القصص في الآيات 22-28، قال تعالى: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)) [القصص: 22].

وقال: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) [القصص: 25].

وقال: (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)) [القصص: 25].

وقال: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)) [القصص: 26].

وقال: (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ) [القصص 27].

فكانت هذه الآيات دالّة على ذهاب وهجرة نبي الله موسى عليه السلام من أرض مصر إلى أرض مدين؛ فرارًا من فرعون وملئه؛ لأنهم دبّروا له المكائد وأرادوا قتله، حتى هيأ اللهُ -تعالى- لسيدنا موسى أسباب النجاة من يد فرعون والهجرة إلى أرض مدين عندما جاءه رجل من أقصى المدينة يحب موسى ويخاف عليه ويؤمن برسالته ونبوته فقال له ناصحًا، كما جاء في سورة القصص (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى

الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)) [القصص:20].

ومن ثمَّ كانت الهجرة خير معين على تقوية موسى ماديًّا ومعنويًّا وروحيًّا ونفسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا؛ حيث تحسَّنت كل هذه الأحوال بمجرد انتقاله من مصر إلى مدين فترة معيَّنة قضاها ثم عاد إلى مصر مرّة أخري.

وقد أثرت الهجرة في نفس سيدنا موسى تأثيرًا إيجابيًّا عاد عليه بالنفع، ظهر ذلك من خلال عّدة أساليب وردت في القصة، منها:

أسلوب الإبهام في قوله: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ) لأن كلمة " تلقاء " فيها إبهام تحديد الوجهة، ونظرًا لصعوبة موقف موسى أثناء هذه الظروف القاسية لم يكن يعرف أين يتوجه، وفي ظل هذه الأجواء التي يشعر فيها موسى –عليه السلام– بالقلق أخذ يفسّر لنا ما أخرجه من ذلك الإبهام وهو "الدعاء".

الدعاء والرجاء في قوله تعالى: (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)؛ حيث إن الدعاء والتوجه إلى الله عز وجل وقت الشّدة يعقبه فرج وسعة، مع الإشعار باليقين والثقة فيما عند الله من خلال لفظ " ربي " الذي أفاد الرعاية والعناية بموسى عليه السلام وحُسن التوجيه والهداية إلى "سَوَاءَ السَّبِيلِ".

التأكيد في قوله: (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ)، وكان هذا القول من إحدى الفتاتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام، وما كانت هذه الدعوة من شعيب عليه السلام إلاّ ليخلص موسى من همّه وأن يكون سببًا في فتح أبواب الرزق له.

التعليل لأمر الدعوة في قوله: (لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا).

الأسلوب الإنشائي بصيغة النهي في قوله: (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، والمراد منه: التسلية لسيدنا موسى عليه السلام وحثه على الصبر والشجاعة؛ ليستقر نفسيًّا.

التوكيد بين ألفاظ ثلاثة:" الخير، والقوة، والأمانة " في قوله تعالى (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)، فهذه الأوصاف الثلاثة جاءت مؤكدة لبعضها، ودالّة على حُسْن خلق موسى، هذا الخُلق الرّبّاني الذي كان سببًا في تهيئة موسى للزواج من إحدى ابنتي شعيب –عليه السلام- ليستقر اجتماعيًّا، ثم لأمانته التي كانت سببًا في شغله بقضاء ورعاية مصالح هذا الشيخ الكبير؛ ليستقر ماديًّا ونفسيًّا، ثم القوّة التي هي الصفة الجامعة لكل خصال موسى، فهو قوي في أمانته، قوي شجاع في بدنه، قوي في سلوكه الفردي والمجتمعي، قوي في أدبه وحيائه، قوي في أدبه مع ربه حين يناجيه ويدعوه.

الإيضاح والتفسير لِما أجمل سابقًا في قوله: (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)؛ حيث إن إرادة شعيب عليه السلام هنا فسّرت سبب موافقته على هذا الزواج؛ وذلك لِما علمه في سيدنا موسى من خير، هذا الخير الذي حققه الله لنبيه موسى بعد أن توجه إليه قائلًا: (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) [القصص: ٢٤]، فاستجاب الله تعالى له طلبه ودعاءه، فكان الخير في زواجه من ابنة شعيب عليه السلام، ثم الخير في الإجابة والعمل بالرعي وقضاء مصالح الشيخ الكبير، ثم الخير في زيادة المدّة المتّفق عليها بين الرجلين شريطة موافقة موسى، ولذلك قال سبحانه على لسان شعيب: (فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ) ثم قال له موسى كما أخبر القرآن: (ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) [القصص: 28].

24- تقديم النصح والوعظ للآخرين بأسلوب رقيق؛ لاستمالة قلب المخاطَبين:

ويظهر يظهر المعنى من خلال أسلوب النداء والتكرار في قول الله تعالى على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)) [غافر: ٣٨ – ٣٩]، فالنداء والتكرار في كلمة "يا قوم"، وفي الإشعار بهذا النداء والتكرار ما يدل على رقة الرجل وانتمائه إليهم وأنه ليس غريبًا عنهم، وفي ذلك حث على الترغيب في قبول النصح باستمالة المخاطب لقبول الخطاب، وفي التكرير تعطيف لقلوبهم حتى لا يشكَّ القومُ في إخلاصه لهم في التوجيه وإعطاء النصيحة.

كما يجب أن يكون هذا الأسلوب الرقيق في الوعظ أيضًا حال الدعوة إلى دين الله – عز وجل- كما أمر الله موسى وأخاه هارون – عليهما السلام أن يذهبا إلى فرعون؛ ليدعواه إلى التوحيد والإيمان بالله، فقال ﷻ: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)) [طه: ٤٣ – ٤٤]، وفي ذلك دليل على أن أسلوب الأمر في "اذهبا"، وقوله: "فقولا" غرضه النصح والوعظ لموسى وأخيه أن يترفقا في دعوتهما لفرعون وأن يلينا في قولهما؛ لأن اللين هو مفتاح كل داعية في الدخول إلى قلوب وعقول المدعوين، خصوصًا إذا كان هذا المدعو واحدًا من هؤلاء الطغاة وسادات الظلم أمثال فرعون؛ لأنه عادة يميل هؤلاء إلى العنف والقسوة والغرور والتكبر، فإذا ما أراد أن يكسر هذه الطباع فيه فليأته بأسلوب رقيق يألفه، ويجد فيه الرعاية والرفق؛ ليكون ذلك أدعى إلى الالتفاف حوله وتصديقه والتلقي منه، خاصة في أمور كهذه تتعلق بالديّن والعقيدة والتوحيد.

25- العبرة والعظة من هلاك الأمم إلى قيام الساعة:

ويظهر هذا المعنى من خلال التضاد الخفي "المعنوي" بين قوله: (سلفًا) وبين قوله: (مثلًا) في قول الله – تعالى -: (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ) [الزخرف: ٥٦].

قيل: سلفًا هم المتقدمون من الآباء، ومثلًا: لمن بقي بعدهم إلى يوم الدِّين من أبنائهم وهكذا، وقيل: سلفًا لكفار هذه الأمة إلى النار، ومثلًا لمن يجيء بعدهم. (1)

26- عقاب المخالفة والإعراض عن وَحدة الصف، والخروج عن أسباب نصرة الدِّين:

ويظهر هذا المعنى من خلال ذمّ بني إسرائيل؛ لإيذائهم نبيّهم موسى عليه السلام ومخالفتهم أوامره في فتح بيت المقدس الذي تحدثت عنه سورة المائدة، فقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)) [الصف: ٥]، فجاءت هذه الجملة عقابًا مسبَّبًا عما قبله من الإيذاء إجمالًا، والذي فصّلته سورة المائدة.

وفي كلمة "زاغوا" كناية عن ضلال بني إسرائيل وعدم توخي طاعتهم لموسى عليه السلام ورضاه، فكان هذا الزيغ – أيضًا- مسببًا عن عدم الوفاء، ومسبَّبًا عن خروجهم عن الإتيان بأحب الأعمال إلى الله -تعالى- وهو الجهاد في سبيله سبحانه –، ولعل هذا ما أشارت إليه السورة في مطلعها ومهدت له في قوله -تعالى-: (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف: ٢]، وقوله في خواتيم السورة: (وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۚ) [الصف: ١١]، لكنهم خالفوا، فلما خالفوا ومالوا عن الحق ووَحدة الصف عاقبهم الله جل جلاله.

ثم تأمل هذا العقاب من خلال الجناس الاشتقاقي في قوله: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ)؛ دلالة على المناسبة التي تقتضي نزول العذاب وأنه من جنس ما صنعوا.

ثم يأتي هذا التذييل في قوله –تعالى-: (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) مؤكدًا لمضمون سبب مخالفة بني إسرائيل لموسى – عليه السلام –، وهو " أن فسوقهم لا يسوقهم إلى الهدى، وإنما هو طوع الأسباب

(1) البغوي، تفسير البغوي، 638/27

والمناسبات، وفي ذلك تأكيد على أن العقاب جاء مناسبًا لأسباب المخالفة، وفي الوقت نفسه إيماء إلى أن صفة الفسق سجية فيهم وداخلة في مقومات قوميتهم". [1]

27- فعالية الحوار والمشاركة بين الطرفين:

إن للحوار والمشاركة بين الطرفين ثمرته في بناء الأمَّة وبناء الجيل إلى يوم القيامة؛ فهما يبنيان ولا يهدمان، ويعمّران ولا يخرّبان، ويصلحان ولا يفسدان.

ويظهر هذا المعنى من خلال الحوار الذي دار بين موسى والسحرة في:

قوله تعالى: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)) [الأعراف: ١١٥ - ١١٦].

فكانت ثمرة هذا الحوار هي إيمان هؤلاء السحرة، قال - سبحانه-: (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120)) [الأعراف: ١١٩ – ١٢٠].

ثم نرى ثمرة الحوار وروح المشاركة عن طريق العلم والتعلم والتلقي في قصة موسى والخضر في سورة الكهف.

ثم ترى حوارًا كذلك بين موسى – عليه السلام – وفرعون حول إثبات وجود الله تعالى وربوبيته من خلال قوله – سبحانه -: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)) [طه: ٤٩ – ٥١]؛ لتؤتي ثمرةُ الحوار أكلَها في قول الله:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 179/28.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى) [طه: ٥٤]، وغير ذلك من المحاورات والمجادلات التي دارت بين سيدنا موسى وبني إسرائيل؛ لإثبات وجود الله وحقيقة أنه -سبحانه - واحد لا شريك له.[1]

28- الذم لفرعون وكشف محاولته جاهدًا الحفاظ على وضعه الاجتماعي:

وذلك من خلال الأساليب الثنائية وحروف العطف في قوله -تعالى-: (فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)) [النازعات: ٢١ – ٢٤].

وتأمل أسلوب الجمع بين (أدبر يسعى) وهما نظيران لهدف واحد ومعنى واحد، هو التولي عن الدعوة بالفساد في الأرض، وهذا يعني أن فرعون بعدما أدبر وأعرض أخذ يسعى في الأرض فسادًا، باذلًا قصارى جهده في تحقيق مكايدة موسى – عليه السلام – وإغفال الناس عن دعوته.

ثم انظر كذلك إلى الثنائية في الجمع بين (فَحَشَرَ فَنَادَى)؛ حيث جمع وحشر فرعون قومه مناديًا إياهم بأعلى صوته؛ لإقناعهم بادّعائه الربوبية قائلًا لهم: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)؛ حفاظًا على مكانته فيهم وأنه صاحب الولاية وله حق السلطان عليهم، لكن سرعان ما أتى الجزاء الذي يستحقه في الدنيا والآخرة،[2] فقال تعالى: (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)) [النازعات: ٢٥].

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 288/15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 79/30.

3.1 المبحث الثالث: السمات البيانية الخاصة بالأسلوب والصورة

(1) الجمع بين الأسلوب الحسي والعقلي في القصة

جاءت الصورة التشبيهية خادمة للسياق ومبينة له أكثر من غيرها، أي أن الغرض والمقصد بان من خلالها بصورة أوضح وأظهر، وهذا واضح في إظهار معجزات سيدنا موسى عليه السلام أمام فرعون وقومه، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)) [طه: ٥٦] ومثل قوله تعالى: (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58)) [طه: ٥٨]، ومثل قوله: (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)) [طه: ٦٤]، وقوله: (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66)) [طه: ٦٦]، وقوله: (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66)) [طه: ٧٠]، وقس على ذلك مما فيه الجمع بين الطرفين الحسي والعقلي في السورة، ثم غلبة الحسي على العقلي خاصة في القصص.

وبهذا يكون قد غلب التصوير الحسي على غيره بصورة واضحة جلية لا غموض فيها، وعّلة ذلك أن النفسَ –كما خلقها الله تعالى وجبلت عليه – تأنس بالأشياء وحبّ النظر إليها ورؤيتها عن طريق الحواس والأوصاف فتُقام بينهما الصلة وتحدث الألفة، وكان هذا شان سيدنا موسى – عليه السلام – مع الآيات وإظهارها لفرعون وملئه؛ لتحدث الألفة بينهم وبين ما يرونه من مشاهد فيكون الإقبال على الله وعلى آياته بالإيمان والتوحيد عن اقتناع تام وإثبات دليل مرئي مشاهَد، لكنهم أبوا فأهلكهم الله ﷻ، ولك أن تتأمل هذا الهلاك في كل قصة وما يحويها من حس واضح ملموس؛ ليغوص القارئ داخلها فيعيش معها بكل كيانه وجوارحه؛ لإيقان ما يدركه من صور ومعانٍ يستطيع من خلالها التعبير بالأحاسيس التي تكون النفْسُ في حاجة إليها، خاصة عند التحليل من منظور حسيٍ دال على منظور بلاغي يكشف لنا النقاب عما تخبئه لنا هذه الصورة في طياتها من أجواء نفسية ومعان مطروحة ومعروضة لدى القارئ والمشاهد

فيختار منها ما يتناسب مع مقتضى حال القصة ومقامها وسياقها، وكل ذلك لن نحسه ولن ندركه إلّا إذا تأملنا وتذوقنا أوّلًا ما يعرف بالإدراك الحسي المرهف وذلك بالنظر إلى الأشياء المحسوسة والمعقولة ثم تغليب النظر إلى الأشياء المحسوسة أكثر؛ لتعم المعرفة وتتم الفكرة داخل إطار الصورة، وهذا موجود بكثرة في قصص سيدنا موسى عليه السلام.

وانظر إلى قوله تعالى في التعبير القرآني عن هلاك فرعون وجنده: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66)) [الشعراء: ٦٣ – ٦٦]، تجد ذلك واضحًا بصورة حسّية فيها لذّة نظر ومعايشة مع رؤية هذا الهلاك وكأنه ماثلًا أمام عينيك تراه وتشاهده في كل وقت وفي كل لحظة، وتلك هي العبرة من القصص هنا، هذه العبرة التي تمّت أكثر عن طريق الحسّ والمعرفة بالخبر.

وانظر كذلك لترى هذا التصوير الحسّي في دمار فرعون وقومه في قوله تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا) [العنكبوت: ٤٠].

إِذَنْ: الحكمة من هذا التصوير الحسّي داخل القصة– خاصة رؤية الأشياء مثل المعجزات الخارقة للعادات– هي زوال الريْب والشكّ الذي ربما يستثير نّفْس السامع أو المخاطب من أمثال فرعون وقومه مع موسى عليه السلام–، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: "ومعلوم أن العلم الأول أتى النفْس أوّلًا من طريق الحواس والطباع ثم من وجهة النظر والرؤية، فهو إذَن أمس بها رحمًا وأقوى لديها ذممًا وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة، فإن قلت: إن الأُنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر فإنما يكون ذلك لزوال الريب والشك" [1]

(1) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، أسرار البلاغة، (القاهرة: مطبعة المدني، بدون تاريخ)، ص122.

(2) دقّة التصوير وجمال الوصف القرآني في تنوّع الصورة

لقد رأينا في القصص الأشياء والصور كما نحسها ونشاهدها في الطبيعة عن طريق الوصف بألفاظ غنية ومعبرّة وموحية، ومما يزيد الوصف دقة وحلاوة في الصورة أن أعطانا القرآن أزمنة الصورة ومكانها فاشتملت الصورة على أمور غيبية أخروية جمعت فأوعت، وفي الوقت نفسه جمعت بين صور دنيوية جمعت فأوعت، وكل ذلك جاء مشيرًا إلى الغرض؛ ليكون اللفظ آكد للمعنى فيكون المعنى أمكن وأشدّ تناسبًا وإيحاءً لهذا الغرض، وانظر لترى ذلك في قصة سورة الكهف على سبيل المثال في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60)) [الكهف: ٦٠]، ف "مجمع البحرين" مكان، وقوله: (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا) دال على التوقيت الذي على إثره نسيا حوتهما ليقول فتى موسى: (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)؛ ليكون لقاء موسى بالعبد الصالح (الخضر) في ذلك المكان وذلك الزمان، فقال -تعالى-: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)) [الكهف: ٦٥].

ومن الملحوظ أن كل مشاهد القصة جاءت انتقالًا من مكان إلى مكان ومن وصف إلى وصف ومن مشهد إلى مشهد إلى آخر، وبالتالي حدث كل ذلك في أوقات وأزمنة مختلفة،[1] وانظر لترى ذلك في قوله: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) [الكهف: ٧١]، وقوله: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) [الكهف: ٧٤]، وقوله: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)) [الكهف: ٧٧]، ومن ثمَّ جاءت الأساليب متنوعة ومختلفة؛ لتنوع الأزمنة والأمكنة وتقلب الأحداث في القصة وتباينها من موقف لآخر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 9/16.

داخل السياق، فتارة ترى الأفعال الماضية وتارة أخرى المضارعة، فضلًا عن الأسلوب البلاغي نفسه وانتقاله من استعارة إلى كناية، وتشبيه ومجاز مرسل وهكذا.

(3) الحقول الدلالية (أو التنظير الدلالي أو ما يُعرف بمراعاة النظير)

تمثل الألفاظ في النص القصصي الخيوط في النسيج، والألوان في الصورة الكلية، وكل نسيج ترتبط خيوطه برباط يشكل في النهاية قطعة من اللباس المكتمل، وكذا كل لون في الصورة المرئية يتلاقى مع ما يشبهها ويقترب أو يبعد عن لون آخر، وفي الختام يمثل اللوحة الكاملة.

والأمر لا يبتعد عن القصة في أي سورة من السور؛ فالألفاظ داخل النص تقترب حتى تتحد، وتفترق حتى تختلف، والسياق هو الفيصل والمعين على ذلك كله.

وهذه الألفاظ تقترب من بعضها حتى تتحد؛ لترسم لنا في الختام حقلاً دلاليًّا كليا تجتمع على مائدته هذه الألفاظ.

فمثلاً: نلحظ ألفاظًا مثل قوله: (فَاسْتَكْبَرُوا – الْكِبْرِيَاءُ) في سورة يونس من الآية 75 إلى 78، وكذا ألفاظ (الساحرون – السحرة)، (ألقوا – ملقون)، (ويحق – الحق) في السورة نفسها. وكلها ألفاظ تقترب في الدلالة حتى يتحد أكثرها لتكوّن لنا مفهومًا دلاليًا عامًا شاملًا، فعندما نتأملها نجدها في جميعها دالة على حالة من حالات الوقوف على الحق تارة ثم الإعراض عن الإيمان، وخروجهم عن هذا الحق، ومجيئ الغشاوة والعمى على أبصارهم تارة أخرى، فكان هذا بالضبط دالًا على موقف بني إسرائيل من معجزات سيدنا موسى – عليه السلام – في كل قصة عندما يقدّم لهم الآيات آية آية.

ومثل هذا التنظير نجده في قوله –تعالى-: (وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ)، وقوله تعالى في سورة الذاريات: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)؛ حيث إن "الأخذ" و "والنبذ" لفظان

دالّان على معنى يكاد يكون واحدًا – مع اختلاف معنى كل منهما حسب السياق- من حيث اللغة، فكلاهما دال على معنى الشدة والطرح وإلقاء الشيء، وهما مترتبان على بعضهما ترتيب السبب على المسبب والشرط على الجزاء؛ فالأخذ شدّة وقوّة في جذب الشيء، والنبذ شدّة في الطرح والإلقاء، فهما متفقان في معنى الأخذ بقوّة.

ومثل قوله –تعالى-: (يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، فلو وضعنا " لا تخف" إزاء "لا يخاف" لوجدنا أن المعنى متحدّ، أو فيهما دلالة متقاربة دلّت عليها القصة؛ فسيدنا موسى عليه السلام من المرسلين، والنهي عن الخوف معناه التأمين على أنبياء الله ومنهم سيدنا موسى، ومن هنا نجد في اللفظين حقلاً دلاليًا عن طريق هذا التوكيد، وهو معنى الأمن والأمان لأنبياء الله – عليهم السلام -؛ لأنهم في معية الله وحراسته.

ونجد غير ذلك من الآيات التي نعنى فيها مجيء الأسلوب عن طريق التنظير الدال على التشابه أو الترادف في المعنى غالبًا، "مما يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حالته حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ". (1)

هذا ويعني الإمام السيوطي بأسلوب النظير: أن يكون بين الألفاظ روابط من حيث العموم والخصوص، والعقلي والحسي، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني من الترادف والسبب والمسبب والعلّة والمعلول ونحو ذلك. (2)

---

(1) السيوطي، معترك الأقران في إيجاز القرآن، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، طبعة أولى، 1408هـ/1988م)، 45/1.
(2) السيوطي، معترك الأقران في إيجاز القرآن، 44/1 – 45.

ومثل هذا البناء من حيث العلَّة والمعلول على رأي الإمام السيوطي نجده في قوله تعالى: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)؛ فجملة: " إِنَّهُ طَغَى " ترتبت على ما قبلها من الذهاب وعلّة له فأصبحت الجملتان جملة واحدة، والمعنى: اذهبا إلى فرعون؛ لأنه طغى.

ومثل قوله تعالى: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)) [الذاريات: ٤٠]؛ حيث جاءت كلمة "مُليم" صفة جامعة مجملة لكل ما جاء به فرعون من ذنوب وآثام، وهو كل ما ليمِن عليه من الكفر والضلال والإضلال والغرور والاستكبار في الأرض بغير الحق، وادّعائه الألوهية والربوبية وغير ذلك، فكل تلك المعاني المفصلة في كثير من آيات القصص عبّر عنها هذا اللفظ في هذا المقام، فجاءت كلمة "مُليم" صفة لفرعون، وهي صفةٌ معنيً دالة على تجبّر وطغيان وعتوّ فرعون، وهي اسم فاعل من "لام"، واسم المفعول منه "مَلوم"، يقال: ليم الرجل فهو مَلُوم ويقال: يلومه لومًا وملامة وملامًا فهو ملوم أي استحقّ اللوم، وألام فلانا: أتي ما يُلام عليه، وحكي عن سيبويه: ألام: صار ذا لائمة، ولامه أخبر بأمره، وفي اللوم ذمٌ، يقال: ألامه أي استذمّه، وألام الرجُل فهو مُليم إذا أتى ذنبًا يُلام عليه. (1)

ومن ذلك الأسلوب التنظيريّ أيضًا عن طريق العلّة والمعلول ما نجده في سورة النازعات في قوله تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25)) [النازعات: ١٧ – ٢٥]؛ حيث جاءت الآيات مترتبة على بعضها وآخذة في جميعها بأعناق بعضها البعض من باب ترتيب العلة على المعلول والسبب على المسبب والشرط على الجزاء في المعنى وهكذا.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (لوم).

(4) تآزر الصور واجتماعها في قصة واحدة

ونعني بهذا وجود أكثر من صورة بلاغية في الجملة الواحدة، أو تكرارها في قصة واحدة، مثل اجتماع الكناية مع الإيجاز بالحذف في قول – تعالى-: (لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60)) [الكهف: ٦٠]، فالجملة كناية عن المكوث في المكان، والإيجاز تقديره: حتى أبلغ مكان مجمع البحريْن.

ومن ذلك تآزر الأفعال مع الاستعارة والإيجاز في قوله: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71)) الكهف: ٧١، وقوله: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)) الكهف: ٧٧، وتقدير الإيجاز في الجمل الثلاث:

- فانطلقا يبحثان عن سفينة.
- فانطلقا ينظران إلى الطريق حتى إذا لقيا غلامًا في طريقه.
- فانطلقا يبحثان عن ضيافة حتى إذا أتيا أهل قرية....

ونلحظ أن الآيات كلها جاءت ماضية؛ لدلالة تحقيق تلك الأحداث التي مرّ بها سيدنا موسى – عليه السلام – مع الخضر ذلك العبد الصالح.

ثم نجد الاستعارة جارية في الأفعال الثلاثة في (انطلقا) وهذا راجع إلى معنى الفعل اللغوي؛ فالانطلاق هو الجري والسرعة، والمراد: الانصراف عن مكان إلى آخر على وجه العزم والهمّة في المأمورية التي كُلّف بها الخضر؛ وصولًا إلى تحقيق الهدف وهو الحكمة من تلك الأفعال الثلاثة في القصة وذلك

بأقصى مجهود وجهد، فجاءت الأفعال دالة – إذن – على تلك المعاني والجمل برمّتها جاءت كناية أيضًا عن الهمّة والسرعة في أداء المهمة.[1]

(5) الرمز والإيماء

وأعنى بالرمز والإيماء هنا طريقة الأسلوب على هيئة إيحاء وإشارة تولدّت عن المعنى في الصورة أو السياق في القصة بوجه عام.

وهنا نجد أن الرمزية الواقعية في الوصف داخل القصة من أهم سمات الأسلوب القصصي داخل الصورة الموحية المعبّرة عن نفسها من حيث قوة الظهور وحُسن الدلالة، وخصوصًا في الأمور المتعلقة ببيان حقائق الدين، وهذا دال أن حقيقة السياق في القصة راجع إلى أسلوب القرآن المعجز.

ومثل ذلك النوع نجده كثيرًا في قصص سيدنا موسى – عليه السلام –، ومنه – على سبيل المثال لا الحصر قوله سبحانه: (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)) [طه: ١٠]، ففي الآية لفظان هما (آنست، نارًا) وكلاهما رمز وإيماء إلى الهداية والتوفيق للتمكن من رسالة موسى عليه السلام وبداية تلقي الوحي من الله تعالى بثبات ويقين، وفي الإيناس إيحاء بملاطفة سيدنا موسى وتسليته وتمكنه من المشي نحو الشجرة المباركة؛ لرؤية النار، ولذلك هو آنس نارًا.

ومن خلال هذا الإيناس بالنار كان البلوغ والوصول إلى ما ينفع الناس في الدنيا والآخرة، والمراد إيتاء سيدنا موسى الرسالة وتلقي الوحي من هذا المكان المبارك المقدَّس، وهذا دليل على أن كلمة "نارًا"

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/16.

هنا رمز للوحي والرسالة واصطفاء سيدنا موسى بهما، لينير عقول الناس وقلوبهم بما ينفعهم ويضيئ لهم دربهم وطريقهم ويجعل في قلوبهم نورًا يهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم.[1]

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 16/ ١٩٣.

1

2

1.2 المبحث الأول: موازناتٌ دلاليّة متعلقة بالمتشابهات

للإعجاز القرآني وجوه عديدة، ويعد المتشابه اللفظي واحدًا من وجوه إعجاز النظم القرآني، لما فيه من أسرار ونكات بلاغية في شكلها اللغوي، وفي دلالاتها المتعددة، ولا شكّ أن علم المتشابه اللفظي نشأ في رحاب علوم القرآن وتطور في مجال علوم البلاغة، ويتجلّى إعجاز القرآن في بيانه وفصاحته؛ فقد خوطب به العربُ وأدركوا بحسّهم اللغوي العالي ما فيه من بلاغة وبيان، وقد اعترفوا بعجزهم أمام هذا الصرح اللغوي المهيب، وكان مما دفع العلماء للبحث عن تلك الجوانب البلاغية باب المتشابه اللفظي لما له من أهمية في استجلاء المعاني والدّلالات.

ولعلّ من أول التعريفات الاصطلاحية للمتشابه اللفظي هو ما نقله الطبري (310هـ) عندما أراد أن يفرّق بين المحكم والمتشابه، فعرّف المتشابه بقوله: "هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور، بقصّه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبقصّه باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني". (1)

ونقصد بالمتشابه اللفظي توجيه الفرق بين الآيات المتشابهات والوقوف على أسرار اختيار اللفظ في هذا الموضع، واختلافه في الموضع الآخر، وهذا يتيح لدارس القرآن ومتعلمه أن يتدبّر كلام الله ﷻ والوقوف على الأسرار البلاغية لاختيار اللفظ في سياق معيّن دون غيره، مما يسمح بفهم الآيات فهما صحيحا، وبلوغ مراد الله تعالى.

(1) الطبري، جامع البيان: 178/6.

وقد صنّف العلماء مؤلفات في المتشابه اللفظي، أو أفردوا أبوابا كاملة لهذا العلم قديمًا وحديثًا، ولا يتسع المقام هنا لذكر تلك المؤلفات، حيث أعود إليها كمصادر ومراجع.

يقول الدكتور محمد الصامل: "وإن من أعظم مظاهر إعجازه البياني ذلك التشابه العجيب بين كثير من آياته، فقد تتشابه الآيتان أو الثلاث، أو أكثر من ذلك في معظم ألفاظها وتختلف في بعضها، ويكون الاختلاف على وجوه منها، تقديم بعض الألفاظ في موضع، وتأخرها في موضع آخر، أو ذكر حرف مكان آخر، أو كلمة مكان أخرى، أو مجيء كلمة في مكان وخلو المكان الآخر منها أو غير ذلك من مظاهر التشابه اللفظي". (1)

يشير الدكتور الصايل إلى المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وكيف يعكس إعجاز القرآن البياني، فعندما تتشابه الآيات في معظم ألفاظها وتختلف في بعضها يمكن أن يساعد ذلك على توضيح المعاني والأحكام المختلفة، ويمكن أن يكون الاختلاف في ترتيب الألفاظ، أو في استخدام كلمات مختلفة، أو في غير ذلك من المظاهر، وهذا يعكس قوة اللغة العربية وإمكانية التعبير عن المعاني المختلفة بطرق مختلفة.

وأسوق بعض الأمثلة من المتشابه اللفظي أستعرض فيها بعض الجوانب الدلالية موضحاً جوانبها البلاغية:

1. (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)) [البقرة: 60].

(1) محمد بن علي الصايل: من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: (الرياض: دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ط1، 2001م)، ص5.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)) [الأعراف: 160].

- الشاهد في قوله تعالى: في سورة البقرة (فَانفَجَرَتْ) - وفي سورة الأعراف (فَانبَجَسَتْ) ما الفرق بين المعنيَيْن؟

للإجابة نقول -والله أعلم - في الآية الأولى: مقام سورة البقرة مقام تكريم، وتعداد نِعم على بني إسرائيل، فجاء قوله -تعالى-: (فَانفَجَرَتْ) تدل على انصباب الماء بسرعة؛ لأن موسى -عليه السلام- هو الذي طلب السُقيا من ربه لقومه، فانفجرت عيون الماء بغزارة، والانفجار ناسب التكريم، وفيها أيضا تكريم لنبي الله موسى واستجابة لدعائه.

- وفي الآية الثانية: قوم موسى هم طلبوا السُقيا من موسى -عليه السلام- فكان جريان الماء خفيفا، دون تدفقه فالانبجاس أضيق من الانفجار؛ لأنه يكون انبجاسًا ثم يصير انفجارًا. (1)

ونقول -والله وأعلم-: إن المرة الأولى أسبق من المرة الثانية؛ ففي المرة الأولى: سأل موسى عليه السلام ربه سبحانه: السقيا لقومه، ولما انفجر الماء من الحجارة أمرهم الله -عز وجل-: (وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(1) القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٩٦٤م)، ج1/419.

أمّا في المرة الثانية: في سورة الأعراف فالمقام مقام تقريع، فنرى أن القوم لم يلتزموا أوامر الله ﷻ، فعاثوا فسادًا في الأرض فظلموا أنفسَهم لقوله –تعالى– في ختام الآية الثانية: (ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، فكان انبجاس الماء دون تدفقه فالرزق يقل بالمعصية. (1)

والسؤال ماذا حدث فعلًا هل انفجرت أو انبجست؟ والجواب كلاهما وحسب ما يقوله المفسرون: إن الماء الانفجار أولًا بالماء الكثير، ثم قلّ الماء بمعاصيهم، وهذا أمرٌ مشاهد؛ فالعيون والآبار لا تبقى على حالة واحدة فقد تجفّ العيون والآبار فذكر الانفجار في موطن والانبجاس في موطن آخر، وكلا المشهدين حصل بالفعل. (2)

2 – (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112)) [الأعراف:112].

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)) [الشعراء:36].

الشاهد: الفرق اللغوي بين (أرسل) و (ابعث)، ما الداعي لاستخدام اللفظتين على هذا النحو، وهل يجوز استعمال أحدهما مكان الآخر؟

---

(1) السيد حامد السيد علي، من روائع البيان في القرآن، (مصر: مطابع الولاء الحديثة، 1971م)، ص6.
(2) فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل– محاضرات، (بيروت: ابن كثير، ط2،2018)، ص163.

والجواب الذي نركن إليه ما أورده الخطيب الإسكافي في كتابه (درّة التنزيل): اللفظتان نظيرتان، تستعمل إحداهما مكان الأخرى، وقد جاء: بعث الرسول، وأرسله معًا، إلا أن أرسل يختص بما لا يختص به بعث لأن البعث لا يتضمن ترتيبا، والإرسال أصله: تنفيذ من فوق إلى أسفل.

وأرسل في سورة الأعراف حكايةُ قول العامة للملأ المؤدّين كلامَ فرعون إليهم، فلما تعالى فرعونُ عليهم، ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما استأمرهم فيه واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم به المخاطب، كما فخم في تحميلِهِ ملأَه أن يؤدوا كلامه إلى من دُونَه.

ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاه فرعون بنفسه من مخاطبة قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه، وتسوية قدره، لقوله: (قال للملأ حوله) كان هذا الموضع مخالفا للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم، فخصّ باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم، وهو قوله: ابعث، [1] وأيضا ممكن أن نستنتج الفرق أن أرسل لعامة الناس وابعث للخاصة منهم.

ولما كانت المواجهة والتحدّي في سورة الشعراء أكثر جاء بلفظ بعث ولم يكتفِ بالإرسال إنما المقصود أن ينهض من المدن من يواجه موسى ويهيّجُهم وهذا يناسب موقف المواجهة والتحدي والشدة. [2]

الشاهد الثاني في نفس الآيتين: الفرق بين (يأتوك بكل ساحر عليم)، و (يأتوك بكل سحّار عليم): لنا أن نتساءل لماذا استخدم كلا اللفظين (ساحر) و (سحّار)، وهل تحلّ إحدى اللفظتين محل الأخرى؟

---

(1) الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرة التأويل: دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى آيدين، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط 1، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م)، 155/2.

(2) السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل- محاضرات، ص748.

الفرق بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة:

تغايرت الصِّيغتان **ساحر وسحَّار** في سياقين، الأولى في سياق قوله تعالى: (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) [الأعراف 112]، والثانية في قوله –عز وجل-: (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) [الشعراء 37].

وقد أشار الزَّمخشريُّ لسبب تخصيص كلِّ صيغة في تركيبها بأنَّ قوم فرعون عارضوا قوله: (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) [الشعراء 109]

قولهم: (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) فجاؤوا بصيغة المبالغة سحّار؛ ليطمئنوا نفسه، ويسكِّنوا بعض قلقه. (1)

أي إن حاشية فرعون (الملأ) عندما أخبروا مَن حولهم: أنّ موسى هو ساحر عليم، قال المحيطون بهم: سوف نحضر لكم كل ساحر عليم.

ولكن عندما طلب فرعون من حاشيته (الملأ) المشورة قال هؤلاء المنافقون إنهم سوف يأتوه بكل (سحّار عليم)، كنوع من إرضاء فرعون وزيادة في النفاق والفسق، فإذا كان موسى ساحرًا فسوف نحضر له كل سحّار عليم، أي سنحضر من يفوقه في السحر.

وعلَّل ابن جُمَّاعة مجيء صيغة المبالغة سَحَّارٍ في آية الشُّعراء؛ بتقدُّم بِسِحْرِهِ، في قوله تعالى: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) [الشُّعراء 35]، وأمَّا في الأعراف فلم يأت لفظ بِسِحْرِهِ في قوله سبحانه: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) [الأعراف 110]، فناسب مجيء ساحر. (2)

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 311/3.

(2) أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (ت ٧٣٣هـ)، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ت: الدكتور عبد الجواد خلف، (المنصورة: دار الوفاء، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م)، ص187.

أوضح ابن جماعة الحكمة من تنوع الألفاظ في الآيات المتشابهة بالاستناد إلى السياق والمقصد والمعنى، وقد أشار إلى أن الصيغة المبالغة سَحَّارٍ تدل على شدة سحره وقوة تأثيره على الناس، ولهذا جاءت في سورة الشعراء التي تحكي عن مواجهة موسى مع فرعون وسحرة مصر، أما في سورة الأعراف فلم يكن هناك تحدي بين موسى وفرعون بالسحر، بل كانت دعوة إلى التوحيد والإيمان، فلم يناسب مجيء صيغة المبالغة، بل اكتفى بصيغة اسم الفاعل ساحر.

وحاصل دلالة التَّغاير بين الصِّيغتين في كُلٍّ: جيء بصيغة المبالغة (سحار)، وذلك للمبالغة في الخصومة والاحتجاج، وللدلالة على نفاق الملأ الذين حاولوا أن يهدّؤوا من روع فرعون أولًا وتطمين أنفسهم ثانيًا.

3_ (قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)) [طه:94].

(وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [١٥٠: الأعراف].

الشاهد في هاتين الآيتين الكريمتين: لماذا قُطعت (ابن – أم) في آية الأعراف، ووصلت (يبنؤم) في آية طه؟!

رُسمت (ابن أم) في القرآن الكريم مرة موصولة ومرة مقطوعة، ما دلالة ذلك؟ وأين الحكمة في رسمها على هذا النحو؟

في سورة الأعراف:

يريد هارون من موسى –عليهما السلام– أن يكون قريبًا منه؛ لأنه أبعده عنه بغضبه عليه؛ فقال له: (فلا تشمت بي الأعداء) بقطع الصلة بينهما، (ولا تجعلني مع القوم الظالمين) المبعدين الذين غضب عليهم موسى –عليه السلام–.

ولا يطلب أن يقربه إليه إلا إذا كان مفصولًا مبعدًا عنه؛ فكتبت (ابن أم) مفصولةً على الحال والواقع الذي بين موسى وهارون عليهما السلام بسبب هذا الحادث.

أما في سورة طه، فالوضع مختلف؛ موسى –عليه السلام– يمسك رأس ولحية أخيه ويجرّه ولا ينفكّ عنه، أي إنهما متشابكان، فكان طلب هارون من موسى –عليهما السلام– أن يتركه وينفصل عنه: (لا تأخذ برأسي ولحيتي)؛ فكتبت (ابن – أم) موصولة (ينئوم)، ومعهما أيضًا أداة النداء يا.

فوافقَ الوصل في الرسم الوصل في الواقع؛ فما كان في الواقع موصولاً؛ كتب موصولاً، وما كان في الواقع مقطوعاً؛ كتب مقطوعاً، ففي سورة الأعراف حذف الحرف؛ لأن الموقف جاء ذكره باختصار، أما في سورة طه فالآيات جاءت مفصلة ومبسّطة وذُكرت فيها كل الجزئيات لذا اقتضى ذكر (يا). [(1)]

ونلاحظ أنَّ هارونَ عليه السلام كان له موقفان مع أخيه موسى عليه السلام، تجاه ما كان من موسى إذ أخذ برأسه يجرُّه إليه:

أمّا في المرّة الأولى فحذف مِنْ عبارته أَداة النداء لإِشعارِهِ بأنَّه أكثرُ من قريبٍ بالنسبة إليه، دلَّ عَلى هذه المرّة ما جاء في سورةِ الأعراف، فحذفَ أداة النداء مُستعطِفًا، لأنّه كان قريبًا منه جسديًّا، وأشعرَهُ بزيادة القرب منه نفسيًّا، إذْ هو ابنُ أمه.

---

(1) السامرائي، لمسات بيانية، ص772، بتصرف.

وأمَّا في المرّة الأُخْرَى حين أخذَ موسى –عليه السلام– برأسِ هارون ولحيته محاسبًا، فقد ناداه بحرف النداء "يا" قائلًا لَهُ كما جاء في سورة طه:

أي: ولم تَرقب قولي السّابقَ لك: إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقْتلونَني.

فأنزل هارون أخاه موسى في هذا النداء الثاني منزلة البعيد، لأنّه لم يرقب قوله السّابِق له، أي: لم يضعه موضع المراقبة ليعمل بمقتضاه. (1)

4_ قال الله تعالى: (فَانطَلَقا حَتّى إِذا رَكِبا فِي السَّفينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقتَها لِتُغرِقَ أَهلَها لَقَد جِئتَ شَيئًا إِمرًا) [الكهف: ٧١].

(فَانطَلَقا حَتّى إِذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلتَ نَفسًا زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفسٍ لَقَد جِئتَ شَيئًا نُكرًا) [الكهف: ٧٤].

الشاهد: ما الفرق بين قوله تعالى: (لقد جئت شيئا إمرا)، وبعده: (شيئا نكرا) في سورة الكهف؟

الإمرا: ما يخشى منه، والنكرا: ما تنكره العقول والشرائع.

لذلك جاء مع السفينة قوله: إمرا؛ لأن السفينة لم تَغرق وإنما عابها، وخُشيَ منه، وجاء مع قتل الغلام قوله: نكرا؛ لأنه إعدامٌ له بالكلية، فناسبَ كلُّ لفظٍ مكانَه. (2)

والإمْرُ دون النُكرِ، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب كل فعل، وعن قتادة: "النُكر أشدّ من الإمر"، فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر. (3)

---

(1) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، البلاغة العربية، (دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م)، 244/1.

(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص242.

(3) السامرائي، لمسات بيانية، ص68.

قد يتساءل أحدهم: إن إغراق السفينة ينطوي تحته إهلاك عدد كبير من الأنفس، نجيبه: إن الإغراق غير حاصل؛ لأنه قال: (أخرقتها لتغرق أهلها)، هذه اللام هنا لام العاقبة أو لام النتيجة أو لام المآل، والعبد الصالح عابَ السفينة، ولكن سيدنا موسى –عليه السلام– تخيل عاقبة الخرق.

علاوة على ذلك: إن السفينة لم تكن في عرض البحر، وإنما كانت على الشاطئ، بدليل قوله: (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها)، وإذا كان الخرق قد تمّ على الشاطئ فليس من الممكن هلاك الركاب، ولكن قتل الغلام أمرٌ محقق وقد تم.

5ـ قولهم: (آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى) [طه: ٧٠]

(آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ) [الشعراء: ٤٨].

الشاهد: (رب هارون وموسى) (ربّ موسى وهارون):

هاتان الآيتان كانتا مصدر الجدل والتشكيك من قِبل المغرضين والخصوم؛ إذ تذرّعوا بقولهم: ماذا قال السحرة بالضبط؟ هل قالوا الجملة الأولى أو الثانية؟

ونستأنس بما أورده الإمام الشعراوي حينما وضّح هذه المسألة: ولك أن تتصور جمهرة السحرة الذين حضروا هذه المعركة، فكان رؤساؤهم وصفوتهم سبعين ساحرًا، فما بالك بالمرؤوسين؟ إذًا هم كثيرون، فهل يُعقل مع هذه الكثرة وهذه الجمهرة أن يتحدوا في الحركة وفي القول؟ أم يكون لكل منهم انفعالُه الخاص على حَسْب مداركه الإيمانية؟

لا شَكَّ أنهم لم يتفقوا على قول واحد، فمنهم مَنْ قال: (آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى)، ومنهم من قال: (آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ).

إذن: هذه أقوال متعددة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيري لا تنضبط حركاته، ولا تتفق تعبيراته، وقد حكاها القرآن كما كانت فليس لأحد بعد ذلك أن يقول: إنْ كان القول الأول صحيحًا، فالقولُ الآخر خطأ أو العكس.

وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضية يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها، تُرى أتتفق تعبيراتهم في وصف هذه المباراة؟

نقول: تعددت اللقطات وتعددت الأقوال للقصة الواحدة لينقل لنا القرآن كل ما حدث. [1]

إذن أقول في هذه المسألة: نحن أمام جماهير غفيرة رأت المباراة بين موسى –عليه السلام– وبين السحرة ومن ورائهم فرعون، فلا تتفق الأقوال لكل الناس، وهذا أمر مألوف اختلاف أقوال الناس في التعبير عن موقف معين.

6ـ ما الفرق بين قول الله تعالى:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) [البقرة: 49].

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ) [الأعراف: 141].

(1) محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي – الخواطر، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم، ط1، 1997)، 323/15.

وقوله –جل جلاله– في سورة إبراهيم: (إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ) [إبراهيم: 6].

الشاهد: الاختلاف بين الأولى والثانية هو:

في الآية الأولى: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ). وفي الثانية: (يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ).

(ونجينا) في الآية الأولى: (وأنجينا) في الآية الثانية.

ما الفرق بين نجينا وأنجينا؟

في سورة البقرة: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ) الكلام هنا من الله.

أما في سورة إبراهيم، فنجد (اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ)، الكلام هنا كلام موسى ﷺ ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى؟

إن كلام موسى يحكي عن كلام الله.

إن الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم النعمة، ولا يمتن بالنعم الصغيرة، والله تبارك وتعالى حين امتن على بني إسرائيل قال: (نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُم)، ولم يتكلم على العذاب الذي كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون، إنهم كانوا يأخذونهم أجراء في الأرض ليحرثوا وفي الجبال لينحتوا الحجر وفي المنازل ليخدموا.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب، بل يمتن عليهم بقمة النعمة، وهي نجاة الأبناء من الذبح واستحياء النساء؛ لأنهم في هذه الحالة ستستذل نساؤهم ورجالهم؛ فالمرأة لا تجد رجلًا يحميها وتنحرف؛ كلمة نجَّى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير: كلمة نَجَّى تكون وقت نزول العذاب، وكلمة أنجى يمنع عنهم العذاب.

الأولى للتخليص من العذاب، والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا، ففضل الله عليهم كان على مرحلتين، مرحلة أنه خلصهم من عذاب واقع عليهم، والمرحلة الثانية أنه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب.

وقد يسأل سائل: لم قال يذبحون من غير حرف عطف يربط هذه الجملة بما قبلها مع أن مثل ذلك العطف ورد في مثل هذا المقام في قوله تعالى: على لسان موسى _عليه السلام_ في سورة إبراهيم:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)) [البقرة: 49]

فنقول وبالله التوفيق –جاز الإتيان–هنا – بالفعل (يذبحون) دون عاطف على ما قبله (يسومونكم)؛ لأنه تفسير لبعض ألوان العذاب التي حلت بهم، ويجوز الإتيان بحرف العطف كما ورد في سورة إبراهيم من باب تعداد المحن التي حلت باليهود استجابة لقوله تعالى لموسى قبل ذلك وذكرهم بأيام الله على أن يكون من باب عطف الخاص على العام، فسوم العذاب عام والذبح خاص، فقد مسهم – دون ريب – صنوف أخرى من العذاب غير الذبح لا الذبح وحده فصحّ العطف.

7_ ورد في سورة الأعراف قوله – سبحانه -: (قَالَ فِرْعَوْنُ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123)) [الأعراف: ١٢٣] ، وفي سورة طه: (قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)) [طه: ٧١].

وفي سورة الشعراء: (قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)) [الشعراء: ٤٩]،

يلاحظ أنه في طه والشعراء ذكر اللفظ (آمنتم له)، وفي الأعراف (آمنتم به).

فلننظر كيف تعامل الخطيب الإسكافي –كأحد المفسرين – مع هذه القضية، الهاء في (آمنتم به) غير الهاء في (آمنتم له)، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى.

فالتي في (آمنتم به) تعود إلى رب العالمين، لأنه تعالى حكى عنهم أنهم: (قالوا آمنا برب العالمين) [الأعراف: ١٢١] وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام وأما الهاء في قوله: (آمنتم له) تعود إلى موسى عليه السلام، والدليل على ذلك أنه جاء في السورتين بعدها: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر...) [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، فالهاء في (إنه) هي التي في (آمنتم له) فلا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام.

والذي جاء بعد قوله: (آمنتم به) قولُه: (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة....) [الأعراف: ١٣٢] أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم، أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد، ويجوز أن يكون الهاء في (أمنتم به) ضمير موسى ــ عليه السلام ــ، لأنه يقال: آمن بالرسول، أي أظهرتم تصديقه، وأقدمتم على خلافي قبل أن آذن لكم فيه، وهذا المكر مكرتموه، وسرا أسررتموه، لتقلبوا الناس علي

فاقتضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به.

فأما الإيمان له موضعين الآخرين فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله، ومن أجل ما أتى به من الآيات، فكأنه قال: آمنتم برب العالمين لأجل ما ظهر لكم على يدي موسى عليه السلام من آياته، والموضع الذي ذكر فيه (له) أي من أجله، وعبر عنه باللام هو الموضع الذي قصد فيه إلى الإخبار بـ (إنه

لكبيركم الذي علمكم السحر) فلذلك خص باللام، والأول خص بالباء. وقد تدل اللام على الإتباع فيكون المعنى: اتبعتموه لأنه كبيركم في عمل السحر، وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه، ولا يتبع الدعي إليه.(1)

رأيي في تفسير الخطيب الإسكافي:

أرى أن تفسير الخطيب الإسكافي منطقي ومقبول، ويتفق مع السياق العام للآيات.

ولكن، يمكن أن نضيف بعض التفاصيل إلى تفسيره، وذلك كما يلي:

يمكن أن يكون الاختلاف في اللفظ بين (آمنتم به) و(آمنتم له) بسبب الاختلاف في المخاطب، ففي سورة الأعراف، يخاطب فرعون بني إسرائيل، وفي سورة طه وسورة الشعراء، يخاطب فرعون موسى عليه السلام.

يمكن أن يكون الاختلاف في اللفظ بسبب الاختلاف في السياق، ففي سورة الأعراف، يركز فرعون على اتهام بني إسرائيل بالمكر، وفي سورة طه وسورة الشعراء، يركز فرعون على اتهام موسى عليه السلام بالسحر.

وعلى أي حال، فإن تفسير الخطيب الإسكافي هو تفسير صحيح ودقيق، ويتفق مع السياق العام للآيات.

ويمكن استخلاص النتائج من قضية المتشابه اللفظي ومنها:

أهمية المتشابه اللفظي والتنجيم في قصة موسى عليه السلام تتجلى فيما يلي:

---

(1) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ)، درة التنزيل وغرة التأويل: ت: محمد مصطفى آيدين، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصي بها، ط1، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م) 574/2.

– المتشابه اللفظي يظهر بلاغة القرآن وإعجازه في التنويع والتجديد والتعلق بالسياق والمقصد، فهو يستخدم لفظاً واحداً بمعانٍ مختلفة تناسب الحالة والموقف والمخاطب، ويجعل القصة أكثر حيوية و تأثيراً وجذباً.

– التنجيم يظهر حكمة القرآن وتدبيره في تنزيل القصة بتدريج وتفريع وتناسب مع الأحداث والمواقف التي واجهها النبي محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهو يربط القصة بالسياق الذي نزلت فيه، ويبرز المقصد الذي أريد به، ويوجه المخاطب إلى العبرة والفائدة منها.

– المتشابه اللفظي والتنجيم يتفاعلان معاً في قصة موسى عليه السلام لتحقيق أهداف متعددة، منها: إثبات صدق الرسل وبطلان الكفار، وإرشاد الناس إلى الحق والخير والصلاح، وإيقاظ العقول والقلوب والنفوس للتفكر والتدبر والتأمل، وتنمية القيم والمهارات والسلوكيات الإيجابية.

ـ إن المتشابهات اللفظية تعطي التنوع والجمال والتأثير للقصة القرآنية.

ـ أن المتشابهات اللفظية تحمل الدلالات والمعاني والحكم التي تناسب السياق والمقصد والمستمع.

ـ إن المتشابهات اللفظية تبرز الموازنات والاختلافات بين الشخصيات والأحداث والمواقف في القصة القرآنية.

ـ إن مراعاة السياق القرآني قاعدة مهمة من قواعد التفسير القرآني وقد استعمل المفسرون هذه القاعدة في جوانب مختلفة في التفسير واهتموا بها اهتماما كبيرا ومن هذه الجوانب المتشابه اللفظي في قصص القرآن الكريم.

2.2 المبحث الثاني: موازنات دلالية متعلقة بالحذف والذكر

من مباحث الجملة التي عني بها علماء البلاغة: الحذف، فنرى الجمال والروعة تتجلى في الكلام إذا أنت حذفت أحد ركْني الجملة أو شيئا من متعلقاتها، وإنْ قدّرت ذلك المحذوف وأبرزته صار الكلام إلى غث سفساف ونازل ركيك لا صلة بينه وبين ما كان عليه أولا، (1) وتكلم البيانيون على الحذف في موضعين:

أحدهما: حذف الكلمة سواء أكانت مسندًا إليه أم مسندًا أم مفعولًا.

والأخر: حذف تحدثوا عنه في (باب الإيجاز): وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا مما زاد معناه على لفظه". (2)

كما أنّ بعض من كتب في (علوم القرآن) تحدثوا عن حذف المبتدأ والخبر والمضاف اليه والمفعول وغير ذلك مما نجده في مثل كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي. (3)

قال عبد القاهر الجرجاني- رحمه الله- مبينا بلاغة الحذف: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فأنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون، إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُبن.... ورب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد". (4)

والحذف عند الجاحظ هو إسقاط بعض العناصر من النص لغرض من الأغراض البيانية. (5)

---

(1) ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 89.

(2) ابن الأثير، المثل السائر، 275/2.

(3) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القران 153/3.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز: ص121- 125.

(5) الجاحظ، البيان والتبيين، 210/1

وحدد البلاغيون بعد عبد القاهر سياقات الحذف في شكل إطارات ثابتة تنضوي تحت شرطين أساسيين:

الأول: وجود ما يدل على المحذوف من القرائن.

والثاني: السياق هو القرينة التي تدل على المحذوف، فإذا كان السياق واضحاً وقوياً، فالحذف أحسن من الذكر.

وللحذف أغراض بلاغية كثيرة، سواء أكان المحذوف مبتدأ، أم خبرا، أم مفعولا به، أم فعلا، والقرآن الكريم يعمد إلى حذف بعض الكلمات أو الجمل، لأن الحذف ينطوي على أسرار بيانية ولوجود الدليل على الحذف نفهمه من السياق، أو من التقدير اللغوي، فنصل للمعنى المقصود بالتدبر والتفكر، فهو يعتمد على ذكاء قارئه، فيحذف من الجمل ما يستطيع أن يدركه، لأنّ السياق يستلزمه ويستدعيه وعلى كل الأحوال: "فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به". (1)

سنضرب على ذلك الأمثلة من قصّة موسى –عليه السّلام– في مواضعها المختلفة من القرآن، من حيث السّياق، مظهرين علّة الذّكر وموجباته، وسبب الحذف ومقتضياته، بالاستناد على تفاسير القرآن، وأعاريبه، وأسباب نزوله.

1_ قال تعالى في البقرة: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)).

(1) الجرجاني: دلائل الإعجاز: ص126– 127.

وقال في الأعراف: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161))

والشّاهد: ذكر (لهم) في الأعراف، وحذفها في البقرة.

أما الحذف فجاء نتيجة عدّة أسبابٍ مجتمعةً، من أولاها بالذّكر، أنّ القصّة هنا اختصارٌ لسابقتها في البقرة[1]؛ فقوله –تبارك وعلا– من آية البقرة: "وإذ قلنا...الآية" بذكر الفاعل في قوله: "قلنا..." قاضٍ بحذف المقول لهم للعلم به من سياق الآية، على حين جاء بناء الفعل للمفعول هنا في قوله –جلّ ثناؤه: "وإذ قيل لهم...الآية" للعلم به من فائت القصّة في البقرة، موجبٌ لذكر المقول لهم.

فكأنّ الآيتين تكاملتا في الأداء الدّلاليّ مساقًا؛ فتقارضتا معنًى، فذكر هناك الفاعل وحذف المقول لهم، لدلالة الآية عليهم، فناسب ذلك هنا حذف الفاعل وذكر المقول لهم، هذا من وجهٍ، ومن وجهٍ آخر، يمكن حمل الحذف في البقرة على الضّرورة القاضية بالاعتناء بالمقول وإيلائه مزيد اهتمام، ذلك أنّ المقام مقام الأمر بدخول القرية، هو محلّ الاهتمام لا مقام تصريحٍ بمن أمروا بدخولها؛ لأنّهم معلومون من سياق الآية، أما في آية الأعراف فالمسألة مختلفةٌ، لانقضاء الأمر بالدّخول وفواته بفعلهم له، إلى الأمر بالسّكنى، والأمر بسكنى القرية مغايرٌ للأمر بدخولها، فالأمر بالسكنى مترتّبٌ على الأمر بالدّخول، ففي الأولى أمرٌ بمبدأ الشيء، وفي الثّانية أمرٌ بإتيان ما تسبّب عنه.

---

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1993م)، 406/4.

وعلى ما تبيّن فإنّ الحذف قد جرى مجراه في السّياق؛ للدّلالة به على أنّ مقاصّةً وقعت بين كلٍّ من ذكر الفعل مبنيًّا في الأولى على فاعله، وفي الثّانية جرى لغير فاعله؛ ما استوجب معه ذكر مفعوله – مجازًا واتّساعًا– فالجارّ والمجرور في مثل هذا الموضع بمنزلة المفعول –اتّساعًا–.

ولعلّ الغاية منه هنا محبوسةٌ فيما ذكرناه، إلى جانب طلب الإيجاز على وفق سنن العرب في كلأمهم، وهذا موضعٌ لطيفٌ من مواضع الحذف في قصّة موسى –عليه السلام–.

2_ (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)) [البقرة ٥٨]

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161)) [الأعراف ١٦١].

الشاهد: ذكر الواو، وحذفها.

وليس ثمّة ما يدعو للحكم بالإخلال أو التّناقض بذكر (الواو) في البقرة، وحذفها في الأعراف؛ إذ إنّ ذلك لا يكون إلّا فيما يفضي من سياقات الكلام إلى نقض حكمٍ مذكورٍ في سياقين مختلفين.

وحيث كان مدار الكلام في آية الأعراف على الاستئناف في قوله –تبارك وعلا–: "سنزيد المحسنين" سيق الفعل (سنزيد) غير مسبوقٍ بال(واو) العاطفة؛ لفقد الحاجة إلى أداة الرّبط، فبلاغة الحذف هنا مترتّبةٌ على بلاغة الوصل.

فقد سقط العاطف في هذا الموضع تحديدًا؛ لارتباط الجملة الثانية بالأولى من قول الله تعالى: "نغفر لكم خطاياكم..." و"سنزيد المحسنين" ارتباطًا معنويًّا، وذلك من بواعث إسقاط (الواو) العاطفة؛ إظهارًا لحقيقة اتّصال المعنيين اتّصالًا مباشرًا بلا حاجةٍ إلى رابطٍ يتوسّط بينهما.

والاستئناف في الآية على تقدير: (ثمّ ماذا بعد المغفرة؟) والجواب بقوله: "سنزيد المحسنين"، وهذا ما ذهب إليه الزّمخشريّ في تفسيره على الآية من الأعراف، وأيّده على ذلك أبو حيان في البحر المحيط، وقال به الإمام الشّوكاني في فتح القدير.

أما الذّكر في قول الله تعالى: "وسنزيد المحسنين" فبلغ في موقعه مبلغ فصاحة وبلاغة الحذف، من قوله تعالى: "سنزيد المحسنين"، ذلك أنّ لكلٍّ منهما في موضعه الحالّ به معنًى يزيد وينقص بحسب الموجب.

وعلى ذلك التّقدير، فإنّ الإيراد في هذا الموضع موجبٌ لذكر (الواو)؛ لإرادة الجمع بين المغفرة وزيادة الإحسان، من حيث دلّ الدّخول على سرعة استجابتهم لأمر الله به، فجازاهم عليه بالجمع بين المغفرة وزيادة الإحسان، على حين أنّ السّكنى بوصفها مترتّبةً على الدّخول، فليس من موجباتها ذلك، إلّا من طريق الاستئناف، كأنّه قيل دخلوا فجمع الله عليهم المغفرة والزّيادة في الإحسان، وسكنوا فماذا بعد المغفرة المعقبة للدّخول...؟ فيقال لهم: زيادة الإحسان.

3_ (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)) [البقرة ٥٩].

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)) [الأعراف ١٦٢].

الشاهد: ذكر منهم، في سورة الأعراف، وحذفها من سورة البقرة.

ذلك أنّ السّياق في الأولى ملوّحٌ إلى أنّ الظّلم واقعٌ من بعضهم دون بعضٍ، فنسب التبديل إلى من ظلم منهم، بقوله –عزّ من قائلٍ-: "فبدّل الّين ظلموا قولًا غير الّذي قيل لهم..." وفي الآية في سورة البقرة وجهٌ آخر سوى هذا أشار إليه أبو حيان في تفسيره على تلك الآية سورة البقرة، حيث ذهب إلى أنّ القصد

منعقدٌ على إرادة وقوع الظّلم النّاتج عن التّبديل منهم جميعًا، غير أنّه وضع المظهر موضع المضمر، فكان المراد (فبدّلوا) وكان وضع الظّاهر موضع المضمر هنا مغنيًا عن تقييد الظّالمين بـ(من) الجارّة الّتي جاءت لإفادة التّبعيض، ولإظهار علّة التّبديل.

إلّا أنّ ذكر (من) الجارّة التّبعيضيّة في آية الأعراف، من قوله -تبارك وعلا-: "فبدّل الّذين ظلموا منهم..." دليلٌ على إرادة التّبعيض في سابقتها الّتي حذف منها ما يدلّ على التّبعيض، أعني (من) الجارّة المفيدة لمعنى التّبعيض، على أن تكون علّة الحذف فيها ما في القرآن من الكمال المستفاد من تعدّد مواطن الذكر للحكم الواحد في أكثر من موضعٍ، فيستغنى بتمام المعنى في أحد الموضعين عن الآخر؛ بغرض الإيجاز، أو على أنّ الظّلم في الأولى كان مرتّبًا على الفسق، وهو صادرٌ منهم جميعًا، على حين أنّ دلالة السّياق تشير إلى أنّ الظّلم وقع من بعضهم دون بعضٍ، فجاء السّياق على وفق ما يحقّق ذلك.

3ـ ومن لطيف الذكر والحذف قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن العالمين) [المائدة: ٢٠].

وقوله:(وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ). [إبراهيم: ٦].

الشاهد: زاد في آية المائدة (يا قوم)، ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عَدَّد عليهم النِّعَمَ الجِسام في أنْ جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، فحسن نداؤهم بـ (يا قوم)، وذلك أن الإنسان يحب أن ينتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: (يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ). [المائدة: ٢١]

فناداهم بـ (يا قوم) عطفاً لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليفٌ بأمر، وإنما فيها تذكيرهم بما مر عليهم من محن وعذاب. وفرقٌ بين الحالتين.

ومن جهة أخرى: لما كانت قصة موسى عليه السلام في سورة المائدة أوسع وأشمل منها في سورة إبراهيم، فقد زاد الله تعالى من تكرار كلمة (يا قوم) فيها، ليناسب طول القصة ويعزز من تأثيرها، وهذا من بديع القرآن الكريم في التعبير والبيان، فلم يزد في سورة إبراهيم ما لا حاجة إليه، والله أعلم.

4_ ومنه قوله تعالى: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) [الأعراف ١١٠].

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35)) [الشعراء 53].

الشاهد: ذكر بسحره في الشعراء، وحذفها من الأعراف.

لما كانت الآية الأولى من الأعراف مبنيّةً على الاختصار؛ للعلم بسبب ما يؤول إليه أمرهم من إخراجهم من ديارهم وخلّوها منهم وخراب بيوتهم، اقتصر السياق على المذكور ممّا يدلّ عليه لفظ (ساحرٌ) من السّحر في الآية.

أما القول في آية الشّعراء، فإنه بني على التّفصيل، فكان من لوازم هذا التّفصيل ذكر سبب الإخراج، فزاد السبب الّذي من أجله سيخرجون، بقوله تعالى: "بسحره" أي بسبب سحره، لاسيّما أنّ السّياق لم

يشتمل على ما يدلّ على سبب الإخراج؛ ذلك حيث تقدّم آية الأعراف ما يدلّ على سبب قولهم، من قوله تعالى في سابق تلك الآية: " قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ" فدلّ ذكر (السّاحر) على السّحر، فحذف اختصارًا واقتصارًا، إلّا أنّ تقدّم ذكر السّاحر في آية الشّعراء لم يغنِ عن إعادة السّحر؛ لأنّه من مقول فرعون لملَئِه من حوله، فكأنّه زاده بعد ذكر بصيغة الاسم الصّريح (سحر) طلبًا لتوكيد المعنى في نفوسهم، وتحقيقه؛ ليحملهم بذلك التّوكيد بتكرار الكلمة على أن يأتوا بأفضل ما لديهم حفاظًا على بقائهم في بيوتهم وبلدهم.

5_ (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113)) [الأعراف ١١٣]

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41)) [الشعراء ٤١]

الشاهد: الذكر في سورة الشعراء: (فلما، لفرعون)، والحذف في سورة الأعراف.

فلمّا كان الكلام في الأولى مبنيًّا على حذفٍ وتقديرٍ ناسب السّياق البلاغيّ بين هذا الحذف في جملته وبعض ما فيه من الحذف القاضي به في قوله هنا: "قالوا إنّ لنا لأجرًا..." فكان ذلك إجابة سؤال سائلٍ: فماذا قالوا لفرعون لما جاؤوه...؟

فكان الجواب: "قالوا إنّ لنا لأجرًا..." هذا من وجهٍ، ومن وجهٍ غيره، نورد ما عساه يقف بنا على سبب الحذف هنا لما أثبت في سورة الشّعراء، فإنّ المقام بداءةً كان مقام استفسارٍ عن طبيعة ما سيعطونه من الأجر حالما وفّقوا إلى الانتصار على موسى، فأنْبَأَنا السّياق على الإخبار بـ(إنّ) ومعموليها، مع عدم التصريح باسم مليكهم (فرعون) حياءً من طلب الأجر منه، مع رؤية استحقاقهم له.

أما في الثانية، فلمّا انتابهم الشعور بأنّ في المسألة ما قد يشقّ عليهم من أمر استئصال شأفة موسى، لزمهم من ذلك بناء الخطاب على الاستفهام التّقريريّ الدّاخل على التّوكيد، بقولهم: "أئنّ لنا لأجرًا..."

تأكيدًا لعلوّهم على فرعون في هذا المقام، وإثباتًا لاستحقاقهم الأجر منه خاصّةً، ولذا زادوا في المعنى اسم فرعون تحقيقًا لأنّ الأجر سيكون منه مباشرةً، كزيادتهم ما يدلّ على انتهائهم بالفضل إليه مع ما يوجب له تعظيم المكانة من الاستفهام.

6_ (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) [الأعراف ١١٤]

(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) [الشعراء ٤٢]

الشاهد: حذف إذًا في الاعراف وذكرها في الشعراء.

وحيث كان موضع الدلالة السّياقيّة في آية الأعراف هنا مرتّبًا على الحذف الملمح إلى أنّ الحادثة لم تكن أخذت بعد شكلًا مخوّفًا من تحقّق النّصر لموسى، ونازلًا من نفوسهم منزلة الدّهش والاضطراب، سيق الخطاب فيه على الوجه الّذي يوافق ذلك.

ولطبيعة بناء الخبر من قولهم: "إنّ لنا لأجرًا..." مقرّرين فيه مصيرًا لا يرون حيادًا عنه، طالبوا فيه فرعون بالأجر على صنيعٍ مرتقبٍ لم يقع، جاء جوابه مطابقًا لهذا الخبر: "نعم وأنّكم لمن المقرّبين..." من غير زيادةٍ على ما تطلّبه السّياق.

ولكن لما احتمل كلامُهم في الشّعراء معنى الجزاء من قولهم: "أئنّ لنا لأجرًا..." جاء الكلام مبنيًّا على هذه الدّلالة، ليتطابق السّؤال والجواب معًا سببًا ونتيجةً، فجاء بـ(إذن) لتأكيد هذا المفهوم من الكلام، بتقدير (نعم إن فعلتم، فحين إذ ذاك لكم أجرٌ)، فكان نزول (إذن) من هذا الكلام منزل الجواب من الجزاء.

7_ (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125)) [الأعراف ١٢٥]

(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) [الشعراء:50].

الشاهد: حذف (لا ضير) في الأعراف، وذكرها في الشعراء.

إنّ ممّا هو معلومٌ عند جمهور المفسّرين أنّ قصّة موسى تلك، اتّسعت في الشّعراء بما لم تتّسع به في الأعراف وطه، فكانت في الشّعراء أوفى بالمعاني والدّلالات الّتي لم تذكر في غيرها، ومن ثمّ زيد في الشعراء من المفردات والأحرف الدّالّة على معان إضافيّةٍ ليست في غيرها ما يحكم معه بأنّ هذا الحذف اللّاحق بسياقات القصّة نفسها في مواضع أخر كان على سبيل الاختصار والإيجاز، وهو أحد أوجه الإعجاز في القرآن.

ولكنّ القول بالاختصار والإيجاز مجرّدًا عن بروز دلالةٍ معنويّةٍ ومفهوميّةٍ أخرى قصورٌ غير مغتفرٍ في ميدان التّأويل القرآنيّ لمثل هذا القصص، وما أراه أنّ تحقّق المسألة في الشعراء مع تأخّر ترتيبها بعد الأعراف مؤذنٌ بأنّ الكلام تفرّق في ألسنتهم، فمنهم من كان مأخوذًا بخوفه ممّا قد ينزله فرعون بهم، فاقتصر على القول الأول: "إنّا إلى ربّنا منقلبون..." ومنهم من آثر الفرار بكلّيته إلى الله تعالى ثقةً ويقينًا فيه، فقال متجرّدًا من مخاوفه: (لا ضيرۖ إنّآ إلىٰ ربّنا منقلبون) فزاد في الكلام ما يدلّ على قوّة تثبّته من أنّ الله ناصره لا شكّ في ذلك.

8_ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) [البقرة ٤٩]

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) [إبراهيم ٦].

الشاهد: زيادة الواو قبل الفعل يذبحون، في سورة إبراهيم، وحذفها في سورة البقرة.

فكأنّ تلك الزّيادة المذكورة في آية إبراهيم، معقبة لمعنى ليس في آية البقرة، كما دلّ حذف تلك الواو من البقرة على شيءٍ لم يكن في إبراهيم.

فالمعنى في البقرة على أنّ: "يذبّحون..." في موضع البدل من قوله تعالى: "يسومونكم...".

على حين أنّ الـ(واو) المزيدة في قوله –تبارك وعلا–: "ويذبّحون..." جاءت لمعنى قضى السّياق بإيرادها فيه، ذلك أنّ الفصل أولى بها هنا من الوصل في سابقتها؛ بسبب اختلاف المعنيين، فسوم فرعون لهم العذاب ابتداءٌ، أما التذبيح فمن توابعه.

أو أنّها هنا لمطلق الجمع بين أنواعٍ منوّعةٍ من العذابات الّتي أذاقهم فرعون إيّاها، وهذا أدعى لاستشعار النعمة في هذا المناط، فإنّ الموضع موضع تذكيرٍ بنعمة الله عليهم بتخليصهم من تلك العذابات.

أو أنّ (الواو) للحال، والموضع داعٍ إليها أيضًا بما تجرّه على المعنى من فائدةٍ جديدةٍ تتعلّق بكون السّوم واقعًا عليهم حال تذبيحه لهم.

9_ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96)) [هود ٩٦]

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45)) [المؤمنون ٤٥]

الشاهد: حذف (وأخاه هٰرون) في سورة هود، وذكرها في سورة المؤمنون.

ليس ثمّة اختلافٌ بين العلماء في نبوّة هارون، أخي موسى –عليهما السلام–، كما أنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ نبوّة موسى ورسالته هي الأصل الّذي تفرّع عليه نبوّة هارون، بدليل قول الله ﷻ: "واجعل لّي وزيرًا من أهلي..." وقوله –جلّ شأنّه–: "ردءًا يصدّقني...".

ووجه التّوافق بين هذا الكلام وحذف اسم هارون في آية هودٍ، وذكر اسمه في آية المؤمنون، أنّ رسالة موسى كانت سابقةً على رسالة هارون، وأنّ رسالة هارون مسببةٌ، على حين أنّ رسالة موسى كانت ابتداءً من قبل الله تعالى.

فنصّت الآية الأولى على رسالة موسى وحدها؛ لأصالتها وترتّب رسالة هارون عليها، ومن ثمّ تمّ التّصريح برسالة هارون في صحبة رسالة موسى في الثانية؛ لما لها من أثرٍ في تبليغ الدعوة وتقوية موسى وشد عضده بأخيه.

وذكر اسم هارون هنا مصاحبًا لاسم موسى من تمام إقامة الحجّة على قومهما بأنّ الرّسالة الّتي زعموا كذبها لم تكن مدّعاةً؛ بدليل اختصاص الله تعالى رجلين، بينهما نسبٌ وسببٌ لتبليغها، ولهذا نجد جواب بني إسرائيل على تلك الدّعوة بقولهم: "أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون"، فانتسج ذكر اسمهما معًا في هذا السّياق مع المعنى المراد.

وهكذا نجد أن: الحذف هو إسقاط بعض الكلمات أو الحروف من النص القرآني بحسب ما يفهم من السياق، وهو من أساليب البيان البليغة التي يتميز بها القرآن الكريم، ويكون الحذف في القرآن لأحد الأسباب البيانية، مثل الإيجاز، أو التشويق، أو التنويع، أو التفرد، ويظهر الحذف في القرآن بأشكال مختلفة، مثل حذف حرف، أو فعل، أو اسم، أو تغيير الحركة للدلالة على المحذوف، وكل ذلك يعكس روعة الفن والجمال في القرآن الكريم.

وللحذف علاقة بلاغية متداخلة مع غيرها من العلاقات، ولا يمكن فهمها بمعزل عن الذكر، أو عن العلاقات الأخرى التي تساهم في تشكيل المعنى، فليس من الضروري أن يكون الذكر والحذف متضادين، بل قد يجتمعان في سياق واحد، حسب الحاجة، كما أن بلاغة الحذف لا تظهر إلا إذا تم استحضار الذكر، أو إذا تم مقارنة سياق الحذف بسياق الذكر، بعد استبدال الشريحة المحذوفة، ويسهم الحذف والذكر في الآيات المتشابهات في إبراز العديد من الأغراض سواء كانت أكان المحذوف حرفا أو كلمة أو أكثر.

القرآن الكريم يستخدم الذكر والحذف في سرده للقصص القرآنية، وأن هذا السرد يتوافق مع نزول القرآن الكريم مفرقا ومنجما، أي أن القرآن الكريم يذكر من القصص ما يناسب الموقف والمقام والمخاطب إليه، ويحذف منها ما لا يناسبها أو ما لا حاجة إليه أو ما يعلمه المخاطبون، وأن هذا الذكر والحذف يعكس حكمة الله في تنزيل القرآن الكريم على مراحل وفي أوقات مختلفة، بحسب الحاجة والمناسبة والمصلحة.

3.2 المبحث الثالث: ملامح إحصائية ودلالية متعلقة بالإجمال والتفصيل

أولا: تعريف الإجمال والتفصيل

الإجمال في اللغة: مصدر أجمل، جاء في اللسان " وأَجْمَل الشيءَ جَمَعه عن تفرقة؛ وأَجْمَل له الحساب كذلك، والجُمْلة: جماعة كل شيء بكمال من الحساب وغيره، يقال: أَجْمَلت له الحساب والكلام؛ قال الله تعالى: "لولا أُنزل عليه القرآن جُمْلة واحدة"، وقد أَجْمَلت الحساب إِذا رددته إِلى الجُمْلة.

وفي حديث القَدَر: كتاب فيه أَسماء أَهل الجنة والنار أُجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص؛ وأَجْمَلت الحساب إِذا جمعت آحاده وكملت أَفراده، أَي أُحْصوا وجُمِعوا فلا يزاد فيهم ولا ينقص. (1)

وفي اصطلاح الأصوليين:

قال الإمام الجويني: " فأما المجملات فقد يطلق المجمل على العموم في قولك أجملت الحساب إذا جمعت آحاده وأدرجته تحت صيغة جامعة لها. ولكن المجمل في اصطلاح الأصوليين هو المبهم والمبهم هو الذي لا يعقل معناه ولا يدرك مقصود اللافظ ومبتغاه من قولهم أبهمت البئر إذا سددته وردمته ومنه سمى الكمي: البهمة وهو المقنع المبرقع الذي لا يدري من هو" (2)

أما في علم البلاغة، فقد ذكر البلاغيون المجمل والمفصل من أقسام التشبيه وذكروا أن " التشبيه المجمل ما لم يذكر وجهه؛ فمنه ما هو ظاهر يفهمه كل أحد حتى العامة؛ كقولنا: "زيد أسد"؛ إذ لا يخفى على أحد أن المراد به التشبيه في الشجاعة دون غيرها، والمفصل ما ذكره وجهه. (3)

(1) ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ)، 128/11.

(2) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، البرهان في أصول الفقه ت: صلاح بن محمد بن عويضة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)،175/2.

(3) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح، (القاهرة: مكتبة الآداب، 2005)، 432/3، و434 بتصرف.

أما الإجمال المقصود في هذا المبحث، فمعناه إيراد القصة على نحو مجمل، بذكر أهم عناصرها، أو ما يمكن أن نسميه العناصر المفتاحية للقصة، دون تفصيل لأحداثها، وشخصياتها، وحواراتها.

ولعل المصطلح البلاغي الأقرب لهذا هو إيجاز القصر، وهو ما ليس بحذف، فاللفظ قد يُنظر فيه إلى كثرة معناه بدلالة الالتزام من غير أن يكون في نفس التركيب حذف، فيسمى بهذا الاعتبار إيجاز قصر؛ لوجود الاقتصار في العبارة، وقد ينظر فيه من جهة أن التركيب فيه حذف فهو إيجاز حذف". (1)

والتفصيل في اللغة: مصدر فَصَّلَ، أي: شرح وتوضيح وتفسير." وَالتَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ " (2)

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: " بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ" لَهُ مَعْنَيَانِ: أَحدهما تَفْصِيل آياتِه بالفواصِل، وَالْمَعْنَى الثَّانِي فِي فَصَّلناه بيَّنَّاه. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: " آياتٍ مُفَصَّلاتٍ" بَيْنَ كُلِّ آيَتَيْنِ فَصْل تَمْضِي هَذِهِ وتأْتي هَذِهِ، بَيْنَ كُلِّ آيَتَيْنِ مُهْلَةٌ، وَقِيلَ: مفصَّلات مبيَّنات، وَاللَّهُ أَعلم، وَسُمِّيَ المفَصَّل مفَصَّلًا لِقِصَر أَعداد سُوَرِهِ مِنَ الآية. (3)

فالتفصيل في القصة أي إيرادها كلِّها أو معظم أحداثها أو جزء منها مفصّلًا مبيّنًا بدقّة.

وإذا تأملنا في أسلوب القصص القرآني رأيناه يعتمد على الإجمال والتفصيل في سوْق القصة وتكرارها، وهو في إجمالِه وتفصيلِهِ ينقسم إلى قسمين: كلّي وجزئي.

فالإجمال: قد يكون كليّا، وذلك بأن يجمل السياق العناصر الأساسية للقصة إجمالًا يحمل في طياته كل جوانب القصة.

---

(1) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، الإيضاح في علوم البلاغة، (بيروت: دار الجيل، ط3، بدون تاريخ)، 181/3.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 522/11.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 522/11.

وقد يكون جزئيًّا: وذلك بذكر طرف أو جزء من القصة مجملا دون تفصيل.

والتفصيل كذلك: قد يكون كليّا، وذلك بأن يفصّلَ أكثرَ الأحداث الأساسية للقصة.

وقد يكون جزئيًّا، بأن يسلّط الضوء على حدث واحد من القصة فيفصّلُه تفصيلًا تامًّا.

والمرجع في ذلك كله أمران:

الأول: السياق الزمني لنزول الآيات التي وردت فيها القصة.

والثاني: السياق النظمي للسورة التي وردت فيها القصة.

"ويقصد بالسياق الزمني ترتيب نزول القرآن مفرقًا في أزمان طويلة وأماكن متباعدة، وبالنظمي ترتيب جمعه منسقًا على النحو المجموعِ بين دفتي المصحف.

فالقرآن الكريم له ترتيبان: زمني ونظمي.

أما الترتيب الزمني فهو ترتيب نزوله مفرقًا حسب الحوادثِ والمسائل، في أزمان متباعدة، وأماكن متفرقة، وهذا باب من أبواب إعجازِ جدير بالدراسة المتأنية للكشف عن منهجية التدرج في الدعوة ومراحلها، وما تقتضيه كل مرحلة من ضوابط وأحكام تضبط حركة الدعاة، وواقع الدعوة، وتضمن عدم انحرافِها وتحقيق أهدافها، وقد عني أئمة علوم القرآن بهذا الشأن، فذكروا ترتيب نزوله زمانيًّا، ومكانيًّا،[1] وأما الترتيب النظمي فهو ترتيب جمعه منسقًا بكلماتِهِ وجمله وآياته وسوره على النحو المحفوظ بين دفتي المصحف، الموقوفُ عليه بالوحي القطعي، والموافقُ لما في اللوح المحفوظ.

---

(1) ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، صـ 58، وما بعدها.

ولعل في قوله – تعالى -: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) [هود:1] إشارة إلى هذين الترتيبين.

فالترتيب النظمي هو الترتيب المحكم الذي هو سابق في الأزل في اللوح المحفوظ، والذي عرض به النبي – صلى الله عليه وسلم – القرآن على جبريل – عليه السلام – العرضة الأخيرة، ثم عرضها على الصحابة، ثم جُمِع القرآن وحُفِظ على أساسها.

والترتيب الزمني هو الترتيب المفصل المنزل حسب الحوادث والمسائل في حوالي ثلاث وعشرين سنة.

فالله – جل وعلا – قد أحكم كتابه منذ الأزل، ثم فصله لخلقه، فأنزله منجما حسب الحوادث والمسائل، على ما تقتضيه الحكمة الإلهية، تدرجا في تربية عباده المؤمنين وتثبيتًا لأفئدتهم، وتسلية لهم عما يلاقون في سبيل الله – جل وعلا - وإمعانًا في تحدّي المعاندين وإعجازهم فلا شك أن توالي الآيات وتطاول زمن نزولها أمعن في التحدي، وأمكن في الإعجاز. (1)

وإذا تأملنا قصة سيدنا موسى – عليه السلام - على هذا النحو وجدنا أنها من حيث الترتيب الزمني أول قصص الأنبياء نزولًا في القرآن، وأن أول ما نزل منها كان مجملًا إجمالًا كليًا، وذلك في قوله تعالى:(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16)) [المزمل:15، 16].

---

(1) حسام عطا الله السيد، الكلمات المفتاحية في القرآن دراسة تحليلية في ضوء دلالة المطالع على المقاصد، ص13، بحث مخطوط.

فهاتان الآيتان من سورة المزمل وهي ثالث السور نزولا بعد العلق والقلم (1) ثم تتابعت القصة نزولا في القرآن المكي والمدني، ما بين إجمال في موضع وتفصيل في موضع، وفيما يلي حصر لمواضع الإجمال والتفصيل للقصة.

ثانياً- حقائق إحصائية ودلالات بلاغية حول الإجمال والتفصيل في القصة:

بالتأمل في السياق الزمني والنظمي لقصة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن، يتبين لنا عدة حقائق إحصائية ودلالات بلاغية، منها:

_ أن طابع الإجمال كان هو السائد في أول سياق القصة الزمني، ففي المرحلة الأولى من الدعوة أجملت القصة في ست سور قبل أن تفصل، وهذه السور هي: المزمل – الفجر – النجم – ق – القمر.

_ أن أول تفصيل للقصة في سياقها الزمني كان تفصيلًا كليّا، في سورة الأعراف.

_ أن السياق الزمني للقصة تواتر بعد ذلك بين إجمال تارة وتفصيل تارة أخرى، فبعد تفصيلها في الأعراف أجملت في الفرقان ومريم، ثم فصلت في طه كليّا، والشعراء والنمل والقصص جزئيًّا، ثم أجملت في الإسراء، ثم فصلت في يونس، ثم أجملت في هود ثم فصلت في غافر كليّا، وتفصيلًا جزئيًّا في الزخرف والدخان، ثم أجملت جزئيًّا في الجاثية والأحقاف، والذاريات، ثم فصلت تفصيلًا جزئيًّا في الكهف، ثم أجملت جزئيًّا في النحل، وإبراهيم والفرقان، والأنبياء والمؤمنون، والسجدة، والحاقة، ثم أجملت كليّا في النازعات، وهذا آخر ما نزل منها في القرآن المكي وهو متشابه جدّا بأول ما نزل منها في سورة المزمل.

ثم فصلت جزئيًّا في البقرة، ثم أجملت جزئيًّا في الأحزاب، والنساء، والحج، والصف.

---

(1) ينظر البرهان في علوم القرآن، 193/1.

ثم فصلت جزئيًّا في المائدة، وهو آخر ما نزل منها.

والجدول 1 يبين السياق الزمني لإجمال القصة وتفصيلها في القرآن الكريم:

جدول 1 السياق الزمني لإجمال القصة وتفصيلها في القرآن الكريم

السور التي أجملت القصة		السور التي فصلت القصة	
الإجمال الكلي	الإجمال الجزئي	التفصيل الكلي	التفصيل الجزئي
المزمل	الجاثية	الأعراف	والشعراء
الفجر	الأحقاف	طه	والنمل
النجم	الذاريات	غافر	والقصص
ق	النحل		يونس
القمر	إبراهيم		الزخرف
الفرقان	الفرقان		الدخان
ومريم	والأنبياء		الكهف
هود	والمؤمنون		البقرة
النازعات	والسجدة		المائدة
	والحاقة		
	والنساء		
	الأحزاب		
	والحج		
	والصف		

ملاحظات عامة:

بالتأمل في هذا الجدول يتبين لنا عدة أمور لها دلالاتها في سياق القصة الزمني والنظمي:

أن أول ما نزل من القصة في القرآن المكي يشبه آخر ما نزل منها في القرآن المكي، فأول نزولها كان مجملا كليّا في سورة المزمل، ويركز على تهديد الكفار، وآخر ما نزل منها في مكة في سورة النازعات، وكان كذلك مجملًا كليّا ويركز على تهديد الكفار.

أن أول ما نزل منها في المدينة يشبه كذلك آخر ما نزل منها في المدينة، فكان أول نزولها المدني في سورة البقرة حيث ذكرت بعد قصة آدم عليه السلام، وآخر نزولها المدني كان في المائدة، وذكرت بعدها قصة ابني آدم عليه السلام.

أن أول تفصيل كلي للقصة كان في سورة الأعراف وهي مكية.

أن أول تفصيل جزئي للقصة كان في الشعراء وهي مكية.

أن أول إجمال كلي للقصة كان في المزمل، وهي مكية.

أن أول إجمال جزئي كان في الجاثية، وهي مكية.

أن كل مواضع الإجمال الكلي، والتفصيل الكلي للقصة كان في سور مكية، ولهذا دلالته في سياق القصة، فالإجمال الكلي، والتفصيل الكلي يتناسبان مع أسلوب القرآن المكي الذي كثر فيه القصص لتثبيت العقائد، وبث العبر والعظات، وكأن الأسلوب القصصي إجمالا وتفصيلا هو محور القرآن المكي.

أن مواضع الإجمال الجزئي والتفصيل الجزئي تراوحت ما بين السور المكية والمدنية، فنلاحظ أن الآيات تركز على جزء أو مشهد من مشاهد القصة يتناسب مع السياق النظمي للسورة التي ورد فيها، بحيث يؤكد معنى من المعاني الواردة في السياق.

ثالثاً- نماذج تحليلية للإجمال والتفصيل:

فيما يلي أتناول بالتحليل نماذج من مواضع إجمال القصة وتفصيلها لاستجلاء عناصر القصة.

وللوقوف على أسرار البيان القرآني في عرضها إجمالا وتفصيلا، يطرح البحث هذه الأسئلة محاولا من خلال هذه النماذج التحليلية الإجابة عليها:

لماذا أجملت القصة في هذا الموضع، وفصلت في ذاك؟

ما هي العناصر التي ركز عليها في الإجمال، ولم خصها بالإجمال في سورة دون أخرى؟

ما هي العناصر التي فصلها، ولم خصها بالتفصيل في سورة دون أخرى؟

ما أوجه التشابه بين مواضع الإجمال بنوعيه الكلي والجزئي في مواضع ورود القصة؟

ما السمات العامة لمواطن الإجمال، وما السمات العامة لمواطن التفصيل؟

والآن نبدأ في العرض التحليلي لبعض النماذج من إيراد القصة إجمالا وتفصيلا.

أولا: نماذج للإجمال الكلي للقصة (بين سور المزمل والفجر والقمر والذاريات والنازعات)

الآيات: سورة المزمل:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16)) [المزمل: 15-16].

سورة الفجر:

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)) [الفجر: 10-14].

سورة القمر:

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)) [القمر: 41-42].

سورة الذاريات:

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)) [الذاريات: 38-40]

سورة النازعات:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)).

إذا تأملنا سياق هذه السور الأربع تبين لنا أنها تتشابه في غرض من أغراضها العامة وهو تهديد المشركين ووعيدهم بمآل من سبقهم من المكذبين

فسورة المزمل – كما ذكرت – هي أول السور ذكرا للقصة بأسلوب إجمالي، وترتيبها النظمي 73، وترتيبها الزمني 3 في كثير من الأقوال. (1)

والمتأمل في سياق السورة يجد أن القصة جاءت بعد تهديد المشركين ووعيدهم بالعذاب الشديد يوم الهول العظيم، (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14)).

ثم بعد تهديدهم بهذا اليوم العصيب، هددهم بأن هذا العذاب ليس مؤجلًا فقط إلى الآخرة، ولكن ربما ينزل بكم في الدنيا كما نزل بفرعون الذي تعرفون قصته جيدًا، وهذا واضح من سياقات أخرى، فقد كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون هي أشهر القصص لديهم، لأنهم كانوا يعايشون اليهود، ويساكنونهم في الجزيرة، وهذا واضح من سياقات أخرى، كقوله تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

وهذا يفسر سر نزول هذه القصة قبل غيرها من القصص، لما لها من شهرة بينهم، ولما بلغه فرعون من الطغيان الذي لم يبلغه بشر، فكأنه ضرب المثل به لتهديدهم بهلاك من هو أعتى منهم وأشد قوة.

ومن ثم أجملت السورة أهم عناصر القصة إجمالا كليّا؛ لتؤكد معنى التهديد والوعيد، وهي:

الرسالة " إنا أرسلنا " "كما أرسلنا "

---

(1) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 254/29.

الرسول " إليكم رسولا " "إلى فرعون رسولا"

الإنذار والشهادة على القوم " شاهدا عليكم"

التكذيب والعصيان من فرعون " فعصى فرعون الرسول " وخص فرعون بالذكر هنا دون ملائه؛ لأنه الشخصية الأبرز في القصة وللدلالة على أنهم تبع له.

الإهلاك والتدمير." فأخذناه أخذا وبيلا "

وسياق الآيات يكشف عن أن المقصد الأول من سوق هذه القصة المجملة هو تهديد المشركين وليس تسلية النبي ﷺ ولذلك كان الخطاب للمشركين: (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم)؛ ليؤكد من بداية الخطاب على أنهم هم المعنيون بهذا التهديد، وأنهم إن كذبوا ولم يؤمنوا فسيلحقهم ما لحق فرعون الذي يعرفون قصته، ويتذكرون مآله.

ورغم أن القصة هنا وردت مجملة موجزة غاية الإيجاز، إلا أن فيها لونا من الإطناب، وبذلك يجمع الأسلوب القرآني بين الإيجاز والإطناب، وهذا من أبواب إعجاز القرآن، وهو الإعجاز بنقض العادة، أي: إنه يؤلف بين المتناقضات فتبدو في حلة بديعة، وأسلوب معجز.

فلو تأملنا الآية لرأينا قوله: (فعصى فرعون الرسول) فيه إطناب بوضع المظهر موضع المضمر، فأصل الأسلوب فعصاه فأخذناه، لكن التعبير هنا بالمظهر فيه تأكيد وتنصيص على جريمة هذا الفرعون الذي عصى ذلك الرسول، ولا شك أن هذا الرسول كان معلومًا لديهم، فلم يذكر اسمه ولا قصته مفصلة، ولكن أشار إليه إشارة يفهمونها، ولولا علمهم بهذه القصة لما كان لذكرها على هذا النحو فائدة، ويدل على

علمهم بها أن الله تعالى أمرهم مرتين في القرآن المكي بسؤال أهل الذكر، وهم اليهود والنصارى، وكان اليهود أقرب إليهم مسكنا من النصارى.

وسورة الفجر ترتيبها النظمي في القرآن (89) وترتيبها الزمني في النّزول (10). [1]

ويبدأ سياقها بالقسم ببعض الآيات الكونية، وهو مطلع يوحي بأهمية ما أقسم به، وتأكيد ما أقسم عليه، والمقسم عليه محذوف وهو (ليعذبن) يدل عليه قوله: (أَلَمْ تَرَ). [2]

والسياق هنا سياق تهديد ووعيد كذلك، أي أن الله تعالى أقسم بهذه الآيات الكونية ليعذبن المكذبين من أهل مكة، كما عذب المكذبين من الأمم السابقة، ثم ساق شواهد ممن لحق بهم العذاب، فأجمل قصصهم إجمالًا معجزًا، لأن الغرض هنا التهديد فلا مجال للتفصيل، إذ في الإجمال تركيز على العظة والعبرة، وتأكيد بالغ على الهدف الأساسي الذي سيقت له القصة، وهو التهديد والوعيد.

فأجمل ذكر هؤلاء العتاة على طريق الجمع، وهو أن يجمع بين متعدّد في حكم واحد؛ كقوله تعالى: (الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا)(3) وبدأ بهذا الاستفهام التقريري التعجيبي، لينبّه على أهمية الأمر وشدته، وتسليط الاستفهام على الفعل رأى (ألم تر) يفيد إحضار القصة من غيب الماضي إلى شهود الحاضر، واستحضار تلك الأمم الغابرة بقوتها وحضارتها، وبنيانها وقصورها، ثم استحضار مآلهم جميعا لما عتوا وكذبوا (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي، (دمشق، القاهرة: دار المعراج، دار جوامع الكلم، 2015)، 322/30.

(2) شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣ هـ)، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم)، 421/16

(3) بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (ت ٧٧٣ هـ) ت: الدكتور عبد الحميد هنداوي. (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط1. ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م)، 251/2.

الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)).

ويتجلى الإعجاز القرآني هنا في جمع هذه الأمم وعطف بعضها على بعضها ووصف قوتها ومجدها وحضارتها، ليستحضر القارئ هذه الصورة جلية، ثم يصهم وصفًا واحدًا، بالطغيان والإفساد، ويحكم عليهم حكمًا واحدًا بنزول العذاب الشديد بهم جميعا.

فقوله تعالى: (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ) تعود على عاد وثمود وفرعون هؤلاء الثّلاثة، أي: استكبروا وتجاوز الحد في الظّلم والقهر.

ونلاحظ هنا التركيز على ذكر الشخصية الأهم في هذا السياق التهديدي، من قصة موسى عليه السلام وهو فرعون عليه لعنة الله، ووصف قوته وشدته هنا (وفرعون ذي الأوتاد) يفيد مزيدًا من التهديد للمشركين، كأنه قيل إذا كان فرعون صاحب البنيان العالي، أو ذي الجنود والأعوان الشداد، قد لقي هذا المصير غير مأسوفٍ عليه، فإن نزول هذا المصير بكم – إن أصررتم على كفركم – أهون وأيسر.

فنلاحظ أن السياق هنا ركز على ثلاثة عناصر أساسية من القصة، وهي: شخصية فرعون، وطغيانه وإفساده، ونزول العذاب به.

ولم يتطرق السياق إلى الرسول ولا الرسالة، لفهم ذلك من سور سابقة في النزول.

أما سورة القمر، فترتيبها النظمي 54، وترتيبها الزمني 36، وقد أجملت القصة إجمالا بديعًا، بأسلوب آخر ونمط آخر، يتناسب مع سياق السورة التي بُنيت على ركن الإنذار والتهديد، والتذكير بمآل الأمم السابقة.

قال تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)) [القمر: 41-42].

وهنا يجمع السياق مع فرعون آله وشيعته وأعوانه، الذين تابعوه في الكفر والعصيان، فاستحقوا معه نفس المصير، والعناصر الواضحة في هذا السياق هي آل فرعون (المكذبين)، والنذر (الرسل ولآيات) والتكذيب، والعذاب.

وسورة الذاريات ترتيبها النظمي، 51، وترتيبها الزمني 66، "فقَدْ عُدَّتِ السُّورَةَ السَّادِسَةَ وَالسِّتِّينَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْأَحْقَافِ وَقَبْلَ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ". (1)

ومن أغراضها الأساسية " التَّعْرِيضِ بِالْإِنْذَارِ بِمَا حَاقَ بِالْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ، وَبَيَانِ الشَّبَهِ التَّامِّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أُولَئِكَ ". (2)

وقد عرضت السورة القصة عرضا إجماليّا معجزًا، جمعت فيه كل عناصر القصة الأساسية، مع ظلال كثيفة تنبئ عن أحداث كثيرة، وتطوي مساحات زمانية طويلة.

(وَتَرَكْنَا فِيهَا آَيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37) وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40﴾).

وَالْمعْنَى: أَن فِي قِصَّةَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ آيَةٌ لَلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَجْتَنِبُونَ مِثْلَ أَسْبَابِ مَا حَلَّ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَهِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي مُكَابَرَةِ فِرْعَوْنَ عَنْ تَصْدِيقِ الرَّسُولِ الَّذِي أُرْسِلَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (335/26).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (336/26).

إِلَيْهِ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لَا يَتَّعِظُونَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بِالنَّوَامِيسِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَا يَتَدَبَّرُونَ فِي دَعْوَةِ أَهْلِ الْحَقِّ فَهُمْ لَا يَزَالُونَ مُعْرِضِينَ سَاخِرِينَ عَنْ دَعْوَةِ رَسُولِهِمْ مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهِ، مُكَابِرِينَ فِي دَلَائِلِ صِدْقِهِ، فَيُوشِكُ أَنْ يَحُلَّ بِهِمْ مِنْ مِثْلِ مَا حَلَّ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. (1)

هكذا تحمل القصة كاملة في ثلاث آيات موجزة غاية الإيجاز، ولكنها تحمل في طياتها أحداث القصة وشخصياتها وأبعادها، والعناصر الأساسية في القصة واضحة في هذه الآيات فنرى الرسول والرسالة والمعجزات والمكذب وسبب التكذيب، ومآله ومصيره.

وتمثل كل آية حلقة من حلقات القصة فالآية الأولى تمثل مقدمة القصة: (وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين)، وتستدعي إلى الذاكرة كل ما دار بين موسى وفرعون من حوارات دعوية إيمانية، واستدلالية منطقية من موسى عليه السلام، وجدلية وتهديدية من قبل فرعون لعنه الله.

والآية الثانية تمثل ذروة القصة وعقدتها (فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) والآية الثالثة تمثل ختام القصة وانحلال عقدتها (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم).

سورة النازعات.

أما سورة النازعات فترتيبها النظمي 79، وترتيبها الزمني 81، " فهي مَعْدُودَةٌ الْحَادِيَةَ وَالثَّمَانِينَ فِي تَرْتِيبِ النُّزُولِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ النَّبَأِ وَقَبْلَ سُورَةِ الِانْفِطَارِ". (2)

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 9/27، 10، 11.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 59/30.

والغرض الأساسي للسورة هو التأكيد على وقوع البعث، والنشور، والإنذار بيوم القيامة، والثواب والعقاب، حيث بدأت به، وختمت به، ثم عرضت بين البدء والختام لقصة موسى عليه السلام إجمالا، وجعلتها عبرة لمن يخشى عذاب الله وعقابه.

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)).

والملاحظ في هذا السياق وإن كان قد أجمل القصة، إلا أنه أكثرُ تفصيلًا من المواضع السابقة، حيث ركز على جانب من الحوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام، وبين موسى عليه السلام وفرعون، وتأتي بلاغة الإجمال من حيث اكتنازه لكثير من المعاني، والإيحاءات، وطيه لكثير من الأحداث والأزمان، واستدعائه لمواضع أخرى كثيرة فصلت هذه المعاني وتلك الأحداث الطويلة.

"فالْإِجْمَالُ مَقْصُودٌ لِتَذْهَبَ أَفْهَامُ السَّامِعِينَ كُلَّ مَذْهَبٍ مُمْكِنٍ، فَتَكْثُرَ خُطُورُ الْمَعَانِي فِي الْأَذْهَانِ، وَتَتَكَرَّرَ الْمَوْعِظَةُ وَالْعِبْرَةُ بِاعْتِبَارِ وَقْعِ كُلِّ مَعْنًى فِي نَفْسٍ لَهُ فِيهَا أَشَدُّ وَقْعٍ وَذَلِكَ مِنْ وَفْرَةِ الْمَعَانِي مَعَ إِيجَازِ الْأَلفَاظ". [1]

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 61/30.

وهنا يركز السياق على أحداث أساسية في القصة: نداء الله تعالى لموسى - عليه السلام – ومكان هذا النداء، وإرساله إلى فرعون الذي طغى، لتذكيره ووعظه، ومواجهته بالآية الكبرى وهي معجزة العصا، ثم تكذيب فرعون، وتجبره وادعاؤه الألوهية.

هذه بعض نماذج إجمال القصة إجمالا كليّا، ونلاحظ أنها تركز على العناصر الأساسية للقصة، دون تفصيل للأحداث والحوارات، وقد ارتبط هذا الإجمال بسياق التهديد والوعيد للمشركين، لا سياق التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، والتثبيت للمؤمنين، كما هو الحال في سياقات التفصيل.

ثانيا: نماذج للإجمال الجزئي للقصة: (بين سورتي مريم والصافات، وسورتي الأحزاب والصف)

بين سورتي مريم والصافات:

المتأمل في سياق سورتي الصافات ومريم يجد أنهما يركزان على تعداد نعم الله تعالى على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وتذكير سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بسيرتهم العطرة، ومآثرهم النبيلة، ومن ثم نجد أن ورود قصة موسى عليه السلام في هاتين السورتين قد جاء مجملًا إجمالا جزئيًّا، فسلط الضوء على إكرام الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة وتأييده بأخيه هارون عليه السلام، ونصرهما على عدوهما. ففي سورة مريم يقول الله تعالى:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)).

وفي سورة الصافات يقول تعالى: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117)

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآَخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120)) ونلاحظ هنا التشابه بين السياقين، في التركيز على جانب من جوانب القصة، وهو إنعام الله على موسى بالرسالة، وتأييده بأخيه هارون الذي شد به عضده، إلا أن سياق سورة الصافات كان أطول فذكر إنعامه تعالى عليهما بالنجاة من الكرب العظيم، والنصر والغلبة على العدو.

ولم يذكر فرعون وجنوده هنا صراحة وإنما كنى عنه بالكرب العظيم لبيان فضل الله وإنعامه على موسى وهارون عليهما السلام إذ نجاهما من كرب عظيم، وبلاء مبين.

واضح في سياق السورتين التركيز على جانب واحد من جوانب القصة وإجماله إجمالا بديعا، فالسياق يسلط الضوء على الإنعام والتفضل على موسى وهارون بالرسالة والنبوة.

بين سورتي الأحزاب والصف.

جاءت الإشارة إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام في سورتي الصف والأحزاب، بإجمال حدث من أحداثها وهو إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام. قال تعالى في سورة الأحزاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69)).

وقال في سورة الصف (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ).

وكان الخطاب في سورة الأحزاب للمؤمنين نهيًا لهم أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام.

أما في سورة الصف، فكان تذكيرًا، للنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، بما حدث من بني إسرائيل من إيذاء لسيدنا موسى عليه السلام.

وهكذا يجمل القرآن هذه القصة، ولم يصرح بما آذى به بنو اسرائيل نبي الله موسى عليه السلام، وإنما اكتفى بالتعريض به، للدلالة على النهي عن أي نوع من الإيذاء، ولو صرح به لاقتصر النهي على نوع واحد.

ثالثًا- نماذج للتفصيل الكلي (بين سورتي الأعراف وطه)

سورتا الأعراف وطه من السور المكية وقد نزلت الأعراف قبل طه.

والمتأمل في سياق السورتين يجد موافقات ومفارقات عجيبة، فمن الموافقات:

أن هاتين السورتين هما أول سورتين فصلتا قصة موسى عليه السلام من حيث الترتيب الزمني، فأول تفصيل للقصة كان في الأعراف، بعد إجمالها والإشارة إليها في ست سور، كلها مكية، ثم أجملت في الفرقان ومريم، ثم فصلت مرة أخرى في طه؛ وبذلك تشترك الأعراف وطه في أنهما أول سورتين فصلتا القصة، وقد نزل كل منهما بعد إجمال القصة في سور سابقة عليهما.

وقد بلغ عدد الآيات التي فصلت القصة في الأعراف 70 آية، وفي طه 90 آية، مع اختلاف طول الآية ونظمها وفاصلتها بين السورتين.

أما المفارقات، فنجد أن سورة الأعراف بدأت بقصة آدم عليه السلام، وختمت بقصة موسى عليه السلام، أما طه فعلى العكس بدأت بقصة موسى وختمت بقصة آدم عليهما السلام.

كما أن سورة الأعراف اشتملت على قصص غيرهما من الأنبياء وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، أما سورة طه فلم يرد فيها سوى آدم وموسى عليهما السلام.

ولعل هذا التلازم بين قصتي آدم وموسى عليهما السلام يشير إلى مغزى مهم، وهو أن كلتا القصتين تمثلان مرحلتين فاصلتين في تاريخ البشرية، فقصة آدم عليه تمثل مرحلة البشرية في مهدها وبيان فطرتها وطبيعتها وضعفها، وكيف أخذ الله بيدها، وأقال عثرتها، وقصة موسى عليه السلام تمثل ذروة طغيان البشرية وبلوغها غاية الكفر والعناد، وكيف أخذها الله أخذ عزيز مقتدر.

والسورتان من أطول السور تفصيلا للقصة، وتتشابهان في كثير من فصول القصة، مع اختلاف ترتيب الفصول، وطول بعضها على بعض.

تبدأ القصة في سورة الأعراف من الآية 103، حتى الآية 173.

أما في سورة الأعراف فقد بدأت القصة بإجمال معجز في آية واحدة يقول تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: 103]

هذه الآية الموجزة غاية الإيجاز تحمل في كلماتها المعدودة، ما فصل بعد ذلك في 33 آية، فضمت هذه الآية أطراف القصة وشخصياتها، ومجمل أحداثها، بداية من بعث موسى إلى فرعون وملئه، إلى هلاك فرعون وجنده وتركهم عبرة لمن بعدهم.

ثم فصلت القصة بعد ذلك في ستة فصول، يشتمل كل فصل منها على بعض الأحداث والحوارات، والشكل 1 يوضح فصول القصة:

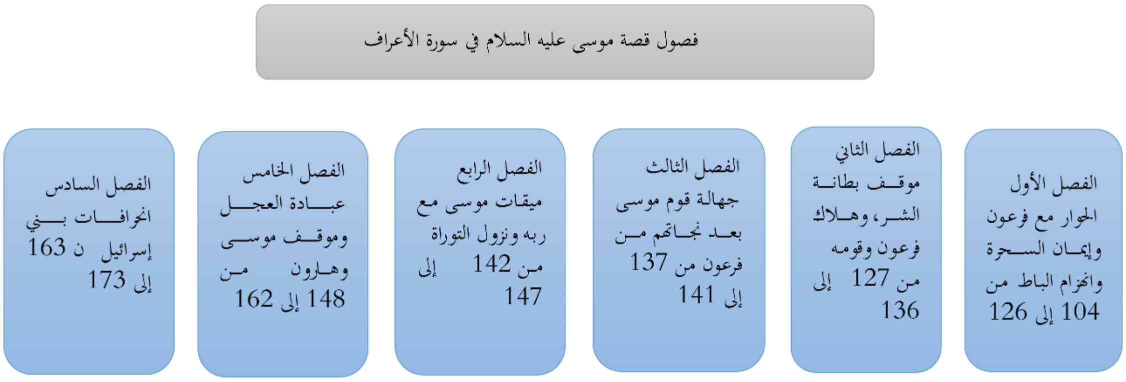

الشكل 1 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف

أما في سورة طه فقد بدأت القصة بالمناجاة بين موسى وبين الله تعالى، في حوار من أجمل وألطف ما يكون، ولم يفصل في سورة غيرها كما فصل في سورة طه.

وقد فصلت القصة في أربعة فصول بيانها في الشكل 2:

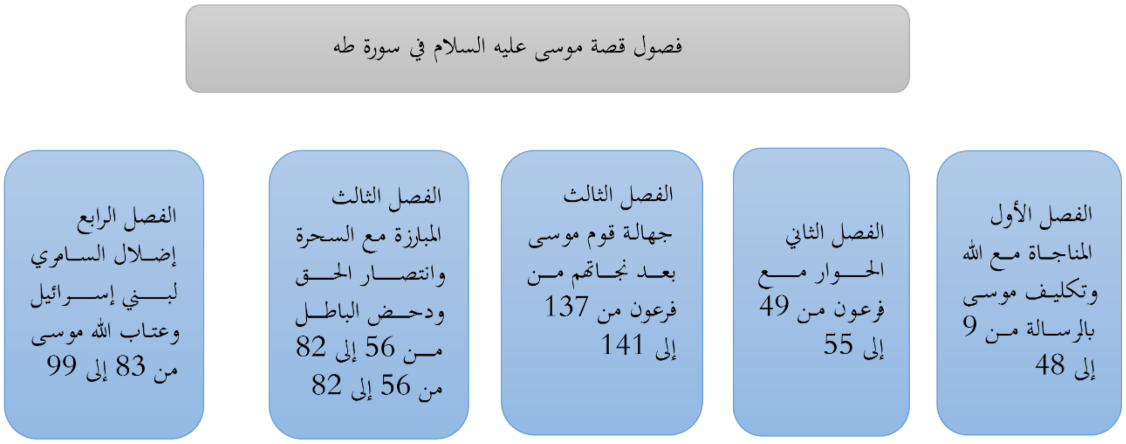

الشكل 2 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة طه

هذه هي فصول القصة في السورتين إجمالا، وقد اشتمل كل فصل على أحداث وحوارات، فصلت جوانب القصة، وكشفت عن أبعادها، وبينت عظاتها.

والمتأمل في سياق القصة بين السورتين يجد تشابهًا كبيرًا في فصول القصة وأحداثها، ورغم ذلك لا يمكن القول بأنه تكرير لأن لكل سورة خصوصياتها في اللفظ والنظم، وأسلوب عرض القصة، وجوانب التفصيل في الأحداث.

فبينما بدأت سورة الأعراف بأسلوب العرض المباشر للقصة من خلال إيجازها في آية ثم تفصيل أحداثها بعد ذلك، بدايةً بالحوار بين موسى وفرعون، نجد أن سورة طه قد بدأت بأسلوب عرض الراوي، (وهل أتاك حديث موسى) بدايةً بحديث المناجاة العذبة بين الله تعالى ونبيه موسى عليه السلام.

ولنأخذ مثالا على التشابه الكبير في تفصيل السورتين لحدث من الأحداث الكبيرة والمفصلية في القصة، وهو حدث عبادة بني إسرائيل العجل، وعودة موسى عليه السلام غضبان أسفًا، معاتبًا أخاه هارون

– عليه السلام –، وكيف برّر هارون – عليه السلام – موقفه، ولنتأمل الآيات ثم نستجلي منها الخصائص واللطائف.

قال تعالى في سورة الأعراف:

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) [الأعراف: 143–151].

وفي طه: (قَالَ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)).

فنلاحظ أنه في الأعراف فصل حديث المناجاة مع الله تعالى وطوى ذكر عتاب الله له لتعجله عن قومه، الذي فصله في طه وطوى ذكر المناجاة.

ثم فصل في طه قصة عبادتهم العجل وتحاور هارون معهم، ومحاولة إنكاره عليهم، ولم يتعرض لها في الأعراف.

ثم فصل تبرير موقف هارون عليه السلام في السورتين، لكن كان التبرير في كل سورة مختلفا عن الأخرى، ففي الأعراف اعتذر لموسى عليه السلام بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه، ثم رجاه ألا يشمت به الأعداء، ولا يعده في القوم الظالمين.

وفي طه اعتذر بأنه خشي أن يقول له موسى إنك فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي في الإصلاح فيهم حين استخلفتك عليهم.

وهنا نستجلي فقه الأنبياء مع الجماعات المتمردة الثائرة على الحق، فهارون عليه السلام نبي وقد رأى أعظم منكر قد وقع في قومه، وهو الشرك بالله وعبادة العجل من دون الله، ولكنه وازن بين هذا المنكر، وبين ما قد يحدث إذا أصر على إنكاره وواجه القوم، وهو ضعيف منفرد في عصابة لا تقوى على مواجهة تلك الجماهير المتمردة، فآثر تركهم على منكرهم حتى يرجع موسى عليه السلام فيتقوى به، وكان اعتذاره عن موقفه هذا مبرر بسببين مشروعين وجيهين

الأول: ضعفه وقوة عدوه.

الثاني: خوف التفريق بين القوم فيقع بعضهم في بعض ويقتل بعضهم بعضا.

وهذا يدلنا على أن محافظة الداعية على نفسه قد يكون هدفًا من أهداف الدعوة في مرحلة من مراحلها، كما أن المحافظة على وحدة المجتمع وإن كان على شيء من المنكر قد يكون هدفا للدعوة في مرحلة من مراحلها. فأين مدعو الجهاد، الذين قتلوا أنفسهم وفرقوا شعوبهم، بدعوى الجهاد وإنكار المنكر، اليوم من هذا الفقه الهاروني الذي أقره القرآن الكريم، وهل هناك منكر أكبر مما تغاضى عنه هارون حفاظًا على نفسه، ووحدة قومه حتى تحين الفرصة المهيأة للتغيير بأقل الخسائر، فإن موسى عليه السلام لما رجع كان مددًا وقوة قطعت عرق الشر، وقضت على الفتنة بأقل الخسائر، ونسف العجل في اليم نسفا.

هكذا تعرض السورتين لحدث واحد، لكن بألفاظ مختلفة ونظم مختلف، وطريقة عرض مختلفة، وركزت كل سورة على جانب في الحدث، لا يمكن فهمه إلا بضم السياقين إلى بعضهما، ولهذا لم يكن تكرير القصة من باب التكرير المخل العاجز، ولكنه من باب التكرير المفيد المعجز.

رابعا: نماذج للتفصيل الجزئي (بين سورتي الشعراء والقصص):

المراد بالتفصيل الجزئي أي تفصيل السياق لحدث واحد أو بعض أحداث القصة، دون التعرض لغيره من الأحداث، أو مع إجمال غيره من الأحداث.

فمن أمثلة التركيز على حدث واحد من القصة دون التعرض لغيره، ما ورد في سورة الكهف، حيث ركزت السورة على حدث واحد من قصة موسى عليه السلام وهو قصته مع العبد الصالح الخضر عليه السلام.

ومن أمثلة تركيز السياق على بعض الأحداث مع إجمال غيرها، ما ورد في سورة غافر، حيث ركزت السورة على الحوار بين موسى وفرعون، ثم الحوار بين مؤمن آل فرعون والملأ، وأجملت السورة باقي الأحداث من هلاك فرعون وجنوده وغيرها.

وسأقف هنا مع نموذج لتفصيل القصة تفصيلا جزئيًّا، بين سورتي الشعراء والقصص.

وسورة الشعراء مكية في رأي الجمهور، وترتيبها الزمني 47، وقد افتتحت السورة بالحروف المقطعة، ثم تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يجد من إعراض المشركين، ثم تهديد المشركين، ولفت أنظارهم إلى نعم الله عليهم لعلهم يؤمنون.

ثم أخذت السورة في عرض قصص الأنبياء عطفا على نفس النسق، وسيرًا على ذات الدرب من تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – وتهديد المشركين.

فبدأت بعرض قصة موسى عليه السلام عرضا مفصلًا تفصيلًا جزئيًّا، والشكل 3 يبين فصول القصة في السورة:

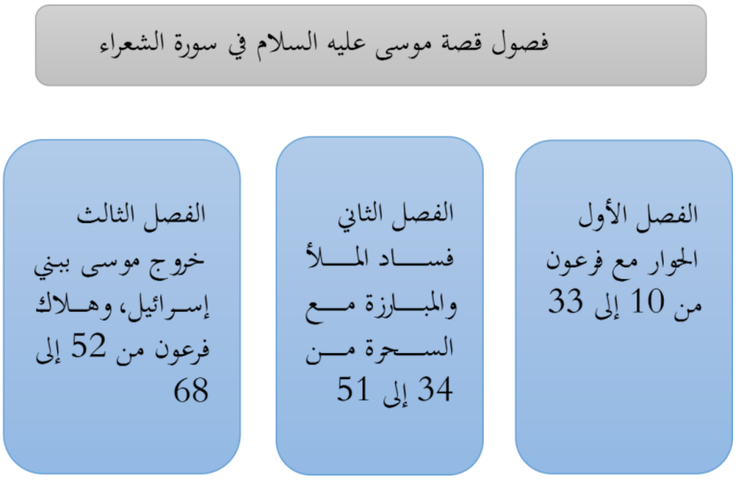

الشكل 3 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء

هذه هي الفصول الأساسية للقصة التي فصلت في سياق سورة الشعراء، وقد أجمل في ثناياها بعض الأحداث الأخرى من القصة، كحدث نشأته في قصر فرعون (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) وحدث قتله لرجل من شيعة فرعون، (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

وتفصيل الحوار مع فرعون وحدث مبارزة السحرة متكرر بالتفصيل في سور أخرى، إلا أن حدث خروج موسى ببني إسرائيل لم يفصل في سورة أخرى كما فصل في سورة الشعراء، لاتساقه مع الغرض الساسي من السورة وهو تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد المشركين.

ولو تأملنا تفصيل هذا الحدث لوجدنا أنه يلخص العبرة من القصة والتي يأتي التعقيب عليها بقوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)، أي عزيز في انتقامه من الكافرين فيزلهم ويهلكهم مهما بلغت قوتهم، رحيم بعباده المؤمنين فيعزهم وينصرهم مهما بلغ ضعفهم.

يقول تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56)

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)).

في هذه الآيات يتراءى أمام أعيننا مشهد ختام القصة بكل تفاصيله، فها هو موسى عليه السلام يخرج ببني إسرائيل ليلا، ويخبره ربه أنهم متبعون وأن فرارهم ليلا ليس هو سبيل النجاة، وإنما هو شرك سيقع فيه فرعون ليتبعهم إلى حيث سيهلك، فلما علم فرعون بفرار موسى وبني إسرائيل، أرسل في المدائن رسلا يجمعون له الجنود والأعوان، وينادي في الناس ليشوه صورة هؤلاء، إنهم شرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لحاذرون منهم، وسبحان الله ما أحمق هذا المنطق الفرعوني الذي ما زال يكرره الفراعين عبر التاريخ إلى يومنا هذا، إذا كانوا شرذمة لا قيمة لهم في المجتمع، قليلين لا أثر لهم في الناس، فكيف أغاظوه وهو من ادعى الألوهية، وكيف أخافوه هو وملأه.!

ثم ها هو فرعون الأحمق يسوقه حمقه إلى تتبع هذه الشرذمة، ويحمله كبره على الخروج في أثرهم فيترك هو وملؤه ما كانوا فيه من جنات وعيون وقصور ونعيم، وهناك عند شاطئ البحر يدرك فرعون ببطشه وجنده وعدده وعتاده موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وهنا يضطرب بنو إسرائيل ويموجون خوفا وفزعا من فرعون الذي أذلهم سنين، وكأنهم تذكروا هذه السنوات التي ذاقوا فيها ويلات الذبح والذل ففزعوا إنا لمدركون، فيقف موسى عليه السلام بيقين ثابت، وإيمان صادق، كلا إن معي ربي سيهدين، فيأتي الأمر الإلهي أن ألق عصاك، فانفلق البحر وجاز بنو إسرائيل، فاغتر فرعون وساقه كبره وحمقه إلى اتباعهم فأغرقه

الله تعالى هو وجنوده، وهنا تلخص الآيات العبرة من القصة بهذا التعقيب الموجز (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)).

هكذا نجد أن سورة الشعراء ركزت على ثلاثة أحداث أساسية، وأجملت بعض الأحداث الأخرى، كما أنها أوردت بعض قصص الأنبياء السابقين، وهم إبراهيم ونوح وهود، وصالح، ولوط وشعيب.

أما سورة القصص، فمكية أيضا وترتيبها الزمني 49، ولم يرد فيها من القصص غير قصة موسى عليه السلام، وقد فصلت القصة تفصيلا جزئيًّا فركزت على جوانب أساسية من القصة، وأجملت جوانب أخرى، والشكل 4 يبين فصول القصة المفصلة في السورة:

الشكل 4 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة القصص

والمتأمل في هذه السورة العظيمة يتجلى له أنوار وأسرار وعجيبة في قصة موسى عليه السلام، فقد خصت هذه السورة باسم القصص، رغم أنه لم يرد فيها غير بعض الأحداث من قصة موسى، للإشارة إلى أن هذه الأحداث فيها من العبر والدروس والأسرار والأنوار ما ليس في غيرها من القصص، وكأنها هي القصص كله، وكأنها هي الجديرة بأن تسمى قصصا.

وقد ركزت السورة على تفصيل بعض أحداث القصة في حين أجملت بعض الأحداث، ولم تتعرض لأحداث أخرى مطلقا.

واللافت للنظر تركيز السورة على مشهد النشأة وتفصيله تفصيلًا معجزًا، يمتلئ بالعديد من الإشارات، ويكتنز الكثير من الأسرار، وكأنه لب القصة الإيماني، ومكمن العبر والعظات فيها.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4))؛ ما أروع هذا المشهد، لبداية قصة تنتهي بهذا العلو التكبر إلى الغرق والإذلال، هذا المشهد الذي يصور لنا جبروت فرعون، وطغيانه وعلوه، يسد أبواب الأمل في الخلاص أمام أعين اليائسين، والقانطين، لذلك لم يكن لينتفع بهذه القصة غير المؤمنين، الذين نزلت القصة لتتلى عليهم، (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)).

وفي مقابل هذا المشهد الطاغي الذي يسد أبواب الأمل ويبعث اليأس في النفوس الضعيفة، يأتي الوعد الرباني: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)).

ليضع ميزانا قويما أمام المؤمنين يزنون به قوى الأرض وإرادة الباطل على حقيقتها، إذا ما واجهت قدرة الله وإرادته.

ثم ينفتح الستار عن مسرح القصة، وأحداثها العجيبة، ويركز العرض على حدث البداية تركيزا، ويفصله تفصيلًا لم يتكرر في سورة أخرى، إلا في سورة طه، لكن بأسلوب أوجز، وعرض مختلف، حيث كان العرض هناك عرض تذكيري، يذكر الله تعالى فيه موسى عليه السلام بما كان من حاله في مهده (وَلَقَدْ

مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40)).

أما في سورة القصص فقد جاء الأسلوب روائيًّا، يروي الأحداث بطريقة مباشرة، فنرى أمًّا فزعة على وليدها، تحاول أن تخفيه من جند فرعون الذين ينقبون عن كل طفل ليذبحوه، ثم تهتدي أن تلقيه في تابوت فتلقيه في النهر، ليلقيه النهر إلى الساحل حيث قصر فرعون، ليلتقطه آل فرعون الذين كانوا يبحثون عنه ليقتلوه، فيربوه وينشأ بينهم عزيزا كريما، ما أعظم هذه المفارقات التي لا يمكن أن تحدث إلا بتدبير حكيم عليم.

ثم تحرم عليه المراضع، فلا يلتقم ثدي امرأة، فيلتمسوا له مرضعا، ليعود إلى أمه، فتكون مرضعته ومربيته، وهكذا يجتمع شمل الأم والأخت بالرضيع الصغير، وينشأ في قصر فرعون وعلى عينه.

ثم تنتقل السورة إلى حدث آخر لم يفصل في غيرها من السور، وهو قتل الرجل، والفرار من مصر، ثم تتابع الأحداث فيدخل إلى مدين، ويكون هناك ما يكون من الأحداث العظيمة التي لم تذكر في غير هذه السورة، ويقضي موسى عليه السلام فيها عشر سنين، ثم يعود بأهله إلى مصر، وفي طريقه تحدث المعجزة، ويتلقى النداء من ربه في المكان المبارك، ويحمله الرسالة، فيتهيب منها، ويدعو الله أن يشد عضده بأخيه هارون، ليكون عونا له على أداء الرسالة، وردءا يقويه في مواجهة فرعون.

ثم تنتقل الأحداث إلى دعوة فرعون والحوار معه، ثم إصراره وعنادهن، ثم تجمل الآيات مشهد إهلاكه، ومن معه: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)).

هكذا نرى كيف فصلت السورتين بعض الأحداث، وأجملت بعضا، وسكتت عن بعض، وكيف ركزت كل سورة على مشهد فأبرزت كل جوانبه، ليبدو وكأنه خاص بهذه السورة، لأنه لم يتكرر في سورة أخرى، بهذا التفصيل، وبهذا الأسلوب.

وهكذا يتبين لنا أن الإجمال والتفصيل في سرد القصص في القرآن الكريم، باب من أبواب الإعجاز القرآني، وأنه جدير بدراسة منفردة، تكشف عن كل جوانبه، وتبين دقائق أسراره.

وأود الإشارة هنا إلى قضية التكرار في القصص القرآني وأجد نفسي موافقًا لما جاء به مصطفى صادق الرافعي الذي يرى أن العرب كانوا يعرفون هذا الأسلوب أي التكرار، فقد استعملوه في حياتهم اليومية، ومع ذلك عجزوا عن معارضة القرآن، يقول: "وهنا معنى دقيق في التحدي ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجزاً: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة... وهذا مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم؛ للتهويل والتوكيد والتخويف والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة، بيد أن ورودَه في القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته وأنهم يختلفون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهماً، ولوصف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة،

وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز.(1)

ونستطيع أن نجمل هنا أهم النتائج التي كشفت عنها الدراسة فيما يلي:

ـ الإجمال في أول سياق زمني للقصة القرآنية في العهد المكي جاء لأسباب عدة، منها:

- إرادة الله تعالى في أن يركز النبي عليه السلام وقومُه على العناصر الأساسية للقصة، وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى.

- صعوبة قبول الرسالة الجديدة في البداية، لذلك كان الإجمال في البداية أسهل على الناس في القبول.

- إرادة الله تعالى في أن يثير فضول الناس للتعرف على تفاصيل القصة، وبالتالي حثهم على البحث عنها والتفكير فيها.

- الإجمال والتفصيل في قصة موسى عليه السلام باب بديع يكشف عن إعجاز القرآن في سرد القصة في مواضع كثيرة دون تكرار للحدث، ففي كل موضع يكشف لنا جانبًا، ويطلعنا على سر لم يكن في الموضع الآخر.

- تنوّع الإجمال والتفصيل في سرد القصة بين إجمال كلي وجزئي، وتفصيل كلي وجزئي.

- يجب أن يدرس الإجمال والتفصيل في إطار السياق الزمني والسياق النظمي للسورة.

---

(1) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 200م)، 2/128.

- تقدم إجمال القصة على تفصيلها في سياق الترتيب الزمني لنزول القرآن، بينما تقدم التفصيل على الإجمال في سياق الترتيب النظمي للقرآن الكريم.

- ارتبط الإجمال بغرض تهديد المشركين أكثر، بينما ارتبط التفصيل بغرض تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم أكثر.

- ركز الإجمال على الأحداث المفصلية في القصة، وهي الأحداث التي تمثل بداية القصة وذروتها ونهايتها.

- ارتبط التفصيل للأحداث بالغرض العام من السورة، بحيث نجد أن أكثر الأحداث تفصيلا في السورة هو ما كان أَمَسَّ رحمًا، وأقربَ نسبا بغرض السورة العام، كما بينا في سورتي الشعراء والقصص.

هذا والله أعلم.

4.2 المبحث الرابع: الخصائص البلاغية المتعلقة بالمسكوت عنه في قصة سيدنا موسى ﵇

تعريف لفظ " سكت " عند أهل اللغة:

جاء في مقاييس اللغة:" السين والكاف والتاء يدل على خلاف الكلام، تقول: سكت يسكت سكوتا، وسكت الغضب بمعنى سكن"، [1] ويقال: " سكت الغضب مثل سكن، ومنه قوله – تعالى – :(ولما سكت عن موسى الغضب)، وهناك فرق بين السكوت وبين الصمت؛ فالسكوت هو ترك الكلام مع القدرة عليه، بخلاف الصمت، فلا تعتبر فيه؛ ولذا قيل: الصامت لما لا نُطق له، وأما إطلاق أحدهما على الآخر فمن باب الإطلاقات اللغوية العامة. [2]

ومن ثم فإن لفظ المسكوت عنه في القرآن جزء من المنطوق به جاء دالًّا على الإعجاز القرآني البلاغي؛ لما له من صلة قوية ونسب قوي بين المنطوق به والمسكوت عنه، لكنهما في النهاية – حسب السياق– كالبُنيان الواحد.

1.4.2 المطلب الأول: المسكوت عنه في القرآن وأغراضه البيانية

سكت القرآن الكريم عن بعض الأشياء والمعاني؛ لأغراض، منها:

---

(1) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩) ، 89/3، (سكت).

(2) أبو نصر بن إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر (بيروت: دار العلم للملايين، ط 4، 1407هـ = 1987م)، (سكت).

(1) الإيجاز؛ وذلك لأن المنطوق به (الملفوظ والمقروء) يحمل في طياته دلالاتٍ شاملةً لم يذكر القرآن تفاصيلها؛ لاهتمام القرآن أولا وأخيرًا بالقضية التي من أجلها سيقت القصة فتكون من باب ذِكر الأهمّ على المهمّ – بغض النظر عن التفاصيل-.

(2) إعمال العقل وفَهم المراد من الفظ المنطوق به وتحرّي الجهد؛ وصولًا إلى مستتبعاته ولوازمه؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب فلا يكون تقصير في الجهد والوصول إلى المقصود بأقصى درجة في الذهن، ولن يكون ذلك إلا من خلال تتبع السياق المنوط به التحري للوصول إلى الغرض الذي قد يكون وراء هذه القصة القُرآنية.

(3) الإعجاز القرآني: فكل موضع في القرآن الكريم مُعجِز في أسلوبه وسياقه؛ " فهو كلام خارج عن المعهود من نظام جميع الكلام ومُباين للمألوف من ترتب الخطاب، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، فهذا إذا تأمله المتأملُ تبين – بخروجه عن أصناف كلام الخَلْق وأساليب خطابهم- أنه خارج عن العادة وأنه مُعجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميّز حاصل في جميعه...". [1]

(4) ومنها: " استخراج مجهول من معلوم يستوجب الانطلاق من مقدمات تصون عن الزلل وتقنع بسلامة النتيجة واستقامة الإنتاج"، [2] وهذا معناه أن الذي سكت عنه القرآن لن يتم استخراجه من المنطوق المعلوم إلا بمراجعة كلام أهل التأويل والتفسير؛ " لأن التفسير هو بيان المعاني التي تُستفاد من وَضع الجملة أو العبارة، والتأويل بيان المعاني، والمسكوت عنه طريق يجمع بين التفسير والتأويل يُستفاد بطريق

---

(1) أبو بكر الباقلاني (ت403هـ)، إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: السيد أحمد صقر، (مصر: دار المعارف، ط5، 1997م)، 1/ص 35.

(2) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، (تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1981)، ص 329.

الإشارة والتلويح الذي لم تصرح به العبارة القرآنية، ومن ثَمَّ تكون ميْزة استخراج اللطائف البلاغية في كتاب الله – عَزّ وجلّ –" (1)

وبهذا يُمكن لنا أن نضع لهذا المصطلح " المسكوت عنه " مصطلحات أخرى تندرج تحته وتحذو حذوه دون الخروج عن المطلوب البتة، والتي يُمكن أن نطلق عليها: (الإيجاز، والتضمين، والكناية، والتلويح، والتأويل، والتفسير، والنظير، والدلالات، والألفاظ، ودلالات المعاني، ودلالات معاني المعاني)، وكلها توصّل إلى أصح المعاني وأقربها إلى السياق – بعد فهمه فهما جيّدًا دقيقًا – الذي يتضمنها اللفظ المنطوق به صراحة، ولا ريْب أن العلاقة بين المسكوت عنه والمنطوق به علاقة تتضمن جانبًا بلاغيًّا كإعجاز من ناحية، ثم جانبا بيانيّا من ناحية أخرى كأسلوب يصوّر لنا المراد عن طريق التلميح لا التصريح في كثير من المواضع، وكلاهما نراه منصَبّا في كبد الإعجاز القرآني؛ إثباتًا لوجود معان مفهومة من المسكوت عنه تزيد عن اللفظ الصريح في مفهومنا البشري من حيث التأويل والتفسير والبحث عن المعنى؛ لتحقيق الفَهم المراد من السياق.

هذا ومما يُعين على فَهم المسكوت عنه: القراءة في إعجاز القرآن الكريم وتتبع معانيه من خلال كتب التفاسير التي كثيرًا ما تبيّن الرحم النابعة والعلاقة الوطيدة بين اللفظ والمعنى من ناحية، ثم بينهما معًا وبين السياق من ناحية أخرى، ولعل هذا هو ما يميز بين قارئ جيّد للقرآن باحث عن بلاغته ومعانيه وبين مَن يقرأ القرآن على جهلٍ ببلاغته؛ لأن الإنسان إذا جهل البلاغة جهل المعنى.

ومما يدل على أن مصطلح المسكوت عنه ضمن فنون بلاغية أساسية ولكنها لم تنل حظها من البحث والشهرة بين الباحثين في العصر الحديث وكثير من العلماء البلاغيين كأكمل ما يكون بحجة أنه

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (السعودية: أم القرى للطباعة والنشر، ط4، 1409هـ = 1988م)، صـ 21.

مصطلح يميل إلى التفسير الموضوعي أكثر من البلاغة ما قاله الزرقاني:" إن القرآن الكريم يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني... فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى"،[1] ولكن مع التأمل فيه نجد أن هذا المصطلح أكثر علاقة وصلة ورحم ببلاغتنا العربية؛ إذ له مترادفات متعددة تقوم مقامه وتنوب عنه في شرح السياق لبيان الغرض منه؛ ولأنه يربط بين اللفظ والمعنى الذي بهما يتم استخراج اللطائف والصور البلاغية، وبهذا تكتمل الفائدة من المسكوت عنه؛ لبيان أسرار المقروء من القرآن الكريم.

وهذا معناه أن القرآن يُنطق بكلماته وجُمله وحروفه وصيغه وتراكيبه وجميع نظمه جملة وتفصيلًا، إيجازًا وإطنابًا، ذِكرًا وحذفًا، ومع ذلك ترك المجال للبحث عن تفاسيره ومعانيه التي توصلنا في الاجتهاد في معرفة أسراره التي يبحث عنها الباحثون وينهل من معينها الربّانيّون.

ومما يدل كذلك على أن للألفاظ التي نطق بها القرآن معاني – قلّت أو كثرت – وأن بينهما وشائج سكت عنها القرآن في بعض الموضع وأشار إليها في الوقت نفسه، وهذا ما ذكره الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه (النبأ العظيم) وخصص له عنوانا أسماه "القصد باللفظ والوفاء بحق المعنى" فيقول: " فإن سَرَّكَ كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بيانا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني(ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن: (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1409هـ = 1988م)، ج2/ص 326 بتصرّف.

لك من كل معنى صورة نقية وافية، لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، ولا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية".[1]

وأفهم من كلام د. دراز أمورًا مهمّة:

(1) وجود علاقة لا تنفصل ولا تتجزّأ بين كل من الصورة التي نطق بها القرآن وبين صورة المعنى الملحقة به على سبيل الفهم، حيث لا زيادة ولا نقصان، وهذا دالّ على تمام وإتمام إعجاز القرآن.

(2) أنه لا إسراف ولا تقتير في اللفظ؛ فألفاظ القرآن يستطيع أن يعبّر عنها كل إنسان شريطة الفهم لكتاب الله – تعالى – ومعرفة استخراج البيان بصورة وافية شافية كافية للنفس النقية التقية الصفية الذكية الرّبّانية التي لا يشوبها غريب أو نقص في الإيمان ولا انقطاع عن قراءة ومدارسة القرآن.

(3) أن المعاني في القرآن لاحقة وتابعة للألفاظ، وذلك من خلال تتبّع السّياق ومتطلبات مقتضى الحال والمقام بين القارئ والمقروء، أي بين نظم القرآن ومتدبّره؛ حتى يكون القصد بالمعنى وافيًا للقصد باللفظ متصلًا به، لا يخرج عن دائرته ولا ينقطع عنه.

---

(1) دراز، النبأ العظيم نظرة جديدة في القرآن الكريم، ص146.

2.4.2 المطلب الثاني: علاقة المسكوت عنه بالخطاب القرآني

إن علاقة المسكوت عنه بالخطاب القرآني علاقة وطيدة لا تتجزّأ ولا تنفصل؛ إذ يتعلّق كل منهما بالآخر في بيان المعاني واستخراج الصور واللطائف والأحكام، وكانت العلاقة بينهما؛ " طلبا للفهم الواعي المدرك للنصوص الدينية؛ بحثا عن قصد الشارع". (1)

ومما يدل على تلك العلاقة وأن للقرآن ألفاظًا مقروءة ومعاني خفية سكت عنها تكون مستنبطة منها وشارحة لها قول بعض العلماء: "واعلم أن للكتب الإلهية تنزيلاتٍ ظاهرةً وهي الألفاظ المقروءة المسموعة ولها تأويلات خفية باطنة وهي المعاني التي سكت عنها المفهومة المعقولة". (2)

لماذا سكت القرآن الكريم عن أشياء لم يذكرها وفي الوقت نفسه دلّنا على المعنى فيها؟

كان المسكوت عنه؛ لوجود عقلية فذّة كعقلية العرب الذين نزل القرآن فيهم وبلغتهم وفصاحتهم وبيان لسانهم حتى صارت لهم القدرة على استخراج المكنون في العبارة جِبلّة وفطرة، جملة وتفصيلًا وهذا لأن أذهانهم كانت تتوقد ذكاء وقدرة على التعبير وممارسة البيان، قال الألوسي: " قد وصل العرب في الفطنة والذكاء وحُسن الفهم إلى ما كاد أن يصل إلى حدّ الإعجاز". (3)

ومعنى ذلك أن أول ما نظر إليه القرآن الكريم نظر إلى عقلية العرب الذين مرّت بهم كثير من مراحل الطبيعة، مما جعل عقليتهم متلازمة تماما لمظاهر وطبيعة الصحراء عندهم في شبه الجزيرة العربية، هذه الصحراء

---

(1) أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، (الإسكندرية: مطبعة دار المعرفة الجامعية، 1988م)، ص 21.

(2) أخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، (بيروت: مطبعة تراث العرب، ط 5، 1975م)، ص 138.

(3) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الحسيني الألوسي (ت 1857هـ)، بلوغ الأرب في أحوال العرب تصحيح وشرح: محمد بهجة الأثري، (مصر: المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٢هـ ١٩٢٤م)، 27/1.

التي زودتهم بالبيان والذكاء، وذلك عن طريق وجود أسواق أدبية وبلاغية تزودوا من خلالها بالمنطق والبيان والنبوغ في أعالي الكلام دون تكلف أو صنعة منهم.

كما سكت القرآن عن أشياء؛ لأن المقروء هو الأصل الذي قدمه الكتاب الحكيم وأَوْلاه على ما عداه، وهذا معناه أن اختيار المقروء كان بدقة وعناية إلهية، لذا فهو الأصل الذي تفرع عنه المعنى والمسكوت عنه بعد ذلك، يقول الجاحظ: " فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية ومواضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى ولها حينئذ دلالات أخرى، فمَن لا يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك". (1)

3.4.2 المطلب الثالث: المسكوت عنه من وجهة نظر البلاغيين

جعل البلاغيون قضية المسكوت عنه من جملة الإعجاز في نظم القرآن الكريم، وهذه مسألة قد أهمّتهم جدا، خاصة مسألة الربط بين اللفظ والمعنى، والتي تشير إلى معنى التضمين البلاغي الذي يربط بين الإعجاز القرآني وبين المعنى والمضمون من حيث الوجهة البلاغية، ومن ثَمَّ كان الإعجاز القرآني عندهم كامنًا في الربط بين اللفظ والمعنى، أو اللفظ ودلالته.

ومن ثَمَّ ألّف كثير من البلاغيين كُتُبًا خاصة في هذا الشأن الذي أعلى من قيمة اللفظ واستخراج ما سكت عنه أو دلالته أو ما أشار إليه عن طريق المجاز أو الكناية أو التلميح أو التضمين...إلخ، ومن ذلك كتاب (مجاز القرآن)، لأبي عبيْدة معمر بن المثنى، وكتاب (نظم القرآن)، للجاحظ، وقد عمل هذان

(1) الجاحظ، الحيوان، تحقيق/عبد السلام هارون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 3، 1996م)، 54/1.

الرجلان العَلَمان على التوافق الشديد بين ألفاظ القرآن وبين ما يستخرجونه من معان هي من معين لغة القرآن، والتي لا تخرج عن دائرة لغة العرب وفصاحتهم،" وأبو عبيدة من أوائل مَن كتب في أسلوب القرآن للموازنة بين خطاب القرآن وبين كلام العرب؛ لينتهي من تلك الموازنة إلى أنه نمط من ذلك الكلام". (1)

وانظر كذلك إلى كتاب (تأويل مشكل القرآن)، لابن قتيبة الذي أشار فيه إلى أن ألفاظ القرآن لا يتأتى منها المسكوت عنه والملموح به والخفي ولا يعرفه إلا من اتسع فهمه وتوقّد عقله وحصف قلبه وسلمت فطرته وجادت قريحته وصَفَتْ سريرته ونمت معرفته وصحّ لسانه، فيقول: "وإنما يعرف فضل القرآن مَن كثر نظره واتّسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب...". (2)

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن دلالة الألفاظ على المعنى الذي أوحى به السياق وسكت عنه المقام كان من جملة ما يتميز به أرباب البيان، وهُم العرب الذين سلكوا في أساليب القرآن وبيان معانيه مسلكًا بديهيًّا ليس بالهيّن، بل مسلكًا أبهروا به كل ذي عقل ولب متمتّع بالفهم واليقظة والتأمل؛ لأن هذا كان حال واقعهم الذي حكت عنه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلماء في إعجاز القرآن الكريم وأساليبه على مرّ العصور والدهور، والذين كانوا هم أوْلى الناس دراية في فهمه واستنباطه واستخراج معانيه؛ لأنه كانت تربطهم بلغة القرآن أواصر نفسية واجتماعية ولغوية جعلتهم متقدمين في توجيه ما أوحَى به السياق واقتضاه الحال وطلبه المآل واستدعاه المقام وطبّقه الواقع، والصحابة الكرام – رضي الله عنهم – هم أعظم دليل على ذلك؛ فكانوا يسألون النبي – صلى الله عليه وسلّم – ويترك لهم الإجابة في كثير من الأوقات يتحرون فيها الدقة والمعاني الصائبة الصحيحة التي تتفق مع ما جاء به القرآن الكريم من أساليب وتوجيهات.

---

(1) سليمان عشراتي، الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمال السرد الإعجازي، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1988م)، ص 91.
(2) ابن قتيبة (ت276هـ)، تأويل مشكل القرآن، (القاهرة: دار التراث، ط2، 1393هـ = 19973م)، ص 78.

4.4.2 المطلب الرابع: مواضع المسكوت عنه في قصة سيدنا موسى ﷺ في القرآن الكريم

1.4.4.2 أولاً: المسكوت عنه في قصة سورة البقرة

(1) قال – تعالى:-(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا.....): [البقرة: 60].

التحليل:

في قوله – تعالى –:(أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت) حُذف المعطوف عليه، والتقدير: فضرب فانفجرت، كما ترى أن القرآن سكت عن وصف الانفجار، أي أنهُ لما أُمر بضرب الحجر بالعصا قام بضربه فكانت الضربة قوية منيعة حصينة حتى انفجرت فجاءتها القوة في الضخ والانفعال والانفجار، وهذا يُعد من باب التأثير والتأثر بين الضرب والحجر حتى تأثر الحجر بهذا الضرب القوي بالعصا فصار الحجر متفجرًا بالماء من قوة تأثير سيدنا موسى على العصا – بقدرة الله – ومن ثمّ كان تأثير القوة على الحجر بالضرب الذي أُمر به موسى عليه السلام.

(2) قال تعالى:(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ): [البقرة:61].

التحليل:

هذا التعبير معناه أن الله – تعالى – جعل بني إسرائيل في ذلة وفقر وعوز وحاجة، فكون القرآن أطلق عليهم صفتي " الذلة والمسكنة " فقط لا يعني الاقتصار عليهما، بل ربما سكت عن أوصاف أخرى دالة على ذمهم تُفهم من السياق مثل شدة طمَعهم، وحرصهم وإسرافهم، وجحودهم نعم الله، وعدم الشكر عليها. ومن ثَمّ نرى أن القرآن اكتفى – فقط – بذكر ما هو على رأس هذه الصفات الدالة على أنهم

بسبب ما سكت عنه القرآن من صفات وقعوا في فقر وعوز وذلّ؛ فهم الذين أفقروا أنفسهم ووضعوا أنفسهم موضع الذلّة والضعف والهوان، فكأن الله – تعالى – مزج في قلوبهم كل خليط يعبّر عن حالهم وسوء عاقبتهم، وجعل الذلة والمسكنة على رأسها.

(3) قال ﷻ:(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) [البقرة: 73].

التحليل:

قوله ﷻ:(فقلنا اضربوه ببعضها) إثبات لما سكت عنه القرآن؛ استغناء عنه بما دل على المحذوف من خلال المقروء، فقيل: سكت القرآن هنا عن أكثر من جملة لم يُصرّح بها لفظا، والتقدير: فقلنا اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة فضربوه ببعضها فصار القتيل حيًّا؛ فضربوه فحَيِيَ فأخبر عن قتله ثم عاد ميتًا كما كان. (1)

وقد دل المسكوت عنه هنا على الاختصار والإيجاز، والاكتفاء بما دل عليه السياق لفظا؛ تحرّيا لما في القصة؛ وصولا إلى الاجتهاد والعقل البشري الذي يتأمل في كلام الله – تعالى – من أي جهة قد يكون فيها المقصد والغرض (ولو ظاهرا)، "والمسكوت عنه في أكثر من جملة مفيدة هو أحسن المحذوفات جميعها وأدلّها على الاختصار، ولا تكاد تجده إلّا في كتاب الله تعالى ". (2)

---

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير، 197/1 بتصرّف.

(2) نصر الله بن محمد، المعروف بابن الأثير (ت637هـ)، المثل السائر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة، 1420هـ)، (77/2) بتصرّف.

والقرآن الكريم كتابُ هداية وإرشاد وتوجيه، فإن كان قد جاء على غاية من الإيجاز وسكت عن بعض التفاصيل فلا يعني ذلك أنه مخل في معانيه وتراكيبه – حاشا للقرآن ذلك –، بل إن ذلك مما يفيد الحصول على الفائدة بصورة أكثر وأوضح في الذهن ويحقق الغاية والوصول إلى المطلوب من خلال تتبع المقروء والمنطوق به من الجمل والتراكيب التي لا توجب مع المعنى لبسًا ولا مع الفهم خلطا ولا تبطل بإيحائه فائدة، والله أعلم.

2.4.4.2 ثانيا: المسكوت عنه في قصة سورة المائدة:

قال ﷻ: (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) [المائدة: 22].

التحليل:

نلحظ في هذه الآية أن القرآن سكت عن وصف الجبارين والأرض المقدسة وأحوال النقباء الذين أرسلهم موسى لدخول إلى تلك الأرض، حتى أصرّ قوم موسى – عليه السلام – على عدم دخول تلك المدينة لقتال هؤلاء الجبارين، وهذا المسكوت عنه تحدث عنه بعض المفسّرين، فقيل: " وكان مما قاله موسى لقومه عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة: " لا تخبروا أحدا سواي عما ترونه"، فلما دخل النقباء الأرض المقدسة واطلعوا على أحوال سكانها وجدوا منهم قوة عظيمة وأجساما ضخمة، فعاد النقباء إلى موسى، وقالوا له: قد جئنا إلى الأرض التي بعثتنا إليها فإذا هي في الحقيقة تدر لبنا وعسلا، وهذا شيء من ثمارها، غير أن الساكنين فيها أقوياء، ومدينتهم حصينة، وأخذ كل نقيب منهم ينهي سبطه عن القتال إلا اثنين؛ فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى – عليه السلام – ولكن بني إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة وأصروا على عدم الجهاد... ومن ثَمَّ حاول موسى – عليه السلام

– أن يصدّهم عما ترددوا فيه من جبن وعصيان، وأن يحملهم على قتال هؤلاء الجبارين، ولكنهم عموا وصموا ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا متنا في مصر أو في هذه البرية، فأوحى الله إلى موسى أن الأرض المقدسة محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ جزاء عصيانهم وجُبنهم". [1]

3.4.4.2 ثالثا: المسكوت عنه في قصة سورة الأعراف:

(1) قال الله تعالى: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ): [الآيتان 110، 111].

التحليل:

نلحظ أولا في مجيء قوله – تعالى –: " يريد أن يخرجكم من أرضكم " دلالة على المسكوت عنه، واضحة في الجار والمجرور " من أرضكم "، والمعنى: يقول فرعون لقومه: يريد أن يخرجكم من أرضكم وغير أرضكم، فما تكون لكم قوة أو سلطان في أرضكم إن اتبعتم موسى في دينه وخرجتم عن ديني، ومن ثمّ يكون هذا خروجا عن الغلبة والقوة في الرأي والمشاورة، كأن فرعون حينئذ أراد أن يقول لقومه: إن اتبعتم موسى في دينه فلا أرض لكم عندي ولا تقربون، ولا مال لكم ولا جاه ولا سيادة، وهذا تصريح منه بالخروج عن كل سيطرة وحُكم، وهذا المعنى ذَكَره القرآن بشيء من الإيجاز فقال – سبحانه – حكاية على لسان فرعون: "يريد أن يخرجكم من أرضكم". ولا ريب أن الخروج من الأرض خروج عن الموطن الذي كانوا يقيمون فيه بناءهم وأموالهم وجميع أحوالهم، وهي الأرض نفسها التي كانوا يتبعون عليها فرعون في ضلاله

(1) طنطاوي، تفسير الوسيط: 103/4 بتصرّف.

وإضلاله واستخفافه بهم، بحجة أن لهم السيادة المشروطة بإمرته وقيادته، ومن ثم فلا يستطيعون الخروج عن حكمه وإمرته وطغيانه.

وفي هاتين الآيتين معًا معنًى سكت عنه القرآن نفهمه من السياق فحوى القصة وهو معنى التشاور وطلب الرأي المفهوم من الاستفهام في قله: "فماذا تأمرون"؟؛ لأن الأمر هنا ليس بمفهومه الذي هو الحث على فعل الشيء على جهة الإلزام والتكليف، وإنما من معنى التآمر والمشاورة في شيء ما، والتفصيل: " أنهم علموا أمره فاجتمعوا جالسين يتشاورون في أمر موسى عليه السلام ويتبادلون الرأي فيما يجب عليهم اتخاذه تجاهه بأقصى سرعة؛ لأن مادّة أمر لا تعني دائما الإيجاب والفرض، بل تأتي أيضا بمعنى التشاور، لكن على جهة السرعة والتنفيذ والقضاء في الأمر".[1]

ولا ريب أن التشاور استلزم إخبارهم فَرْدًا فَرْدًا، وأن فرعون أخذ يطوف في قومه دارًا دارًا يحثّ فيهم أمر التشاور والتآمر على قتل موسى – عليه السلام – وهذا من العجب العجاب الذي دلّت عليه القصة؛ حتى يجتمعوا في جلسة واحدة وفي وقت واحد وفي مكان واحد؛ للتآمر على شخص واحد، وهو سيدنا موسى – عليه السلام –الذي فرّق شملهم وفَصَل جمعهم وردّ اجتماعهم وأبطل كيدهم وأفسد عليهم تشاورهم؛ بقدرة الله – تعالى– الذي أيّده بالمعجزات البينات؛ لتكون حُجّة في إبطال ما كانوا يزعمون، وإثباتا لصحة دينه وآياته الواضحات، كما قال – سبحانه –: (وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين): [الذاريات، آية 38].

---

(1) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، (بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 1، 2007م)، 145/5 بتصرّف.

(2) قال – تعالى -: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)): [آية 149].

التحليل:

أفادت هذه الجملة القرآنية هنا معنًى مسكوتًا عنه أبدى من خلاله أبدى هؤلاء ندمهم وحسرتهم على ضلالهم وإضلالهم تجاه موسى – عليه السلام – ودعوته إلى الحق؛ حيث إنهم ندموا على ما كانوا يحذرونه؛ " فقد سكتت الجملة عن معنى التنبه لما ذهلوا عنه والتبصر بما أغفلوه كأنهم عملوا شيئا فقدَّموه إلى ما عملوا له فردَّه إليهم ورمى به نحوهم فتناولوه بأيديهم فسقط فيها فرأوا من قريب أنهم ضلوا فيما زعموا وأهملوا فيه أمرا ما كان لهم أن يهملوه وفات منهم ما فسد بفوته ما عملوه". (1)

ومن ثَمَّ كان المسكوت عنه في الآية هو المعنى الدلالي والتوجيهي لكلمة "سُقط"، والله أعلم.

وصورة "السقوط" في اليد هنا صورة كلية دلت على شدة الندم والحسرة؛ بسبب عبادتهم العجل، أما الصورة الجزئية للسقوط في اليد هنا فسكت عنها القرآن، وهي من المقَدَّرات المحذوفة التي أشار إليها الزمخشري – رحمه الله – فقال:" أي اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غمّا فتصير يده مسقوطا فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها، و"سقط" مُسنَد إلى "في أيديهم" فدلت الآية على ندمهم أشد الندم؛ حيث إن سقوط الأيدي لازم له، ومن ثَمَّ عبّر باللازم وسكت عن الملزوم". (2)

---

(1) الطبطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص 252-255.

(2) السيد محمد جسين الطبطبائي، الميزان في تفسير القرآن، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 1، 1417هـ، ينظر: الزمخشري، الكشاف، 126/2 بتصرّف. 1997 م، (255/8 بتصرّف).

فالإمام الزمخشري – رحمه الله – بيّن لنا هنا (من خلال نظرته الثاقبة للآية، خاصة لفظ "سُقط") أنه لفظ سكت عن مُراده ودلّ على فحواه بصورة محسوسة ملموسة فيها وَجَعٌ وإيلامٌ وندمٌ وقع من هؤلاء عندما علموا الحقّ ورجعوا إليه.

ومن الممكن أن تكون الآية دالّة على حالةٍ نفسيّةٍ مرئيَّةٍ لم يصرّح بها القرآن، ولكن أعطانا الدلالة عليها من خلال هذا اللفظ المنطوق وهو "سُقط في أيديهم" وقد فهمنا ذلك من خلال صورة السقوط في اليد، وهي صورة أخرجها لنا القرآن؛ لتعبّر عن مكنون ووجدان الإنسان، وهي صورة تنظر إليها العين ويتأثر بها الحس والضمير الحي والعقل الفطن والقلب الحصيف والوجدان الراجح، وكأن سقوط الندم في أيديهم انعكاس تام للنفس الممتلئة بالحزن وشدّة الكرب، وكل ذلك يُشير إلى الندم والتحسّر وما يحمله اللفظ من تبعات جرّاء عبادتهم العجل بصورة سياقية لطيفة وميزة بلاغية شافية ناسبت السياق والمقام في الآية، وهي الكناية التي دلّ عليها الكلام في الآية، ثم دلنا على ما تحت الكناية من خواصّ للفظ؛ لأن في لفظ "سُقط" إيحاء بالمعنى الحقيقي أولا للكلمة، وهو السقوط من أعلى إلى أسفل، فكأن في ذلك تعبير عن السقوط النفسي المندرج تحت وطأة الإحساس بالندم، والمَيْل إلى الرجوع إلى الحق بالبصر والبصيرة بطريقة فيها إيحاء سكت عنه المنطوق والملفوظ به ودلّ عليه السياق والمقام.

ومن ثَمَّ كانت الآية دالّة بجملتها على ما سُكت عنه وهو السقوط والهبوط النفسي في قلوب وضمير هؤلاء، حتى وضح ذلك بصورة جليّة ، ليس فقط على بصرهم، بل على كل جارحة من جوارحهم، فكانت صورة السقوط فقط تجسيدًا لما بدر من هؤلاء بعد ذلك، وكأن عبادتهم لغير الله أسقطتهم في الهاوية من أعلى أسفل، وهذه سخرية مزعومة منهم نظير ما زعموه من عبادة غير الله – تعالى –، وهذا مناقض لإيمانهم الذي كانت تأباه عقولهم وترفضه قلوبهم حتى أدركوا سخرية العجل منهم وإذلالهم بعبادتهم له بعد

أن تدبّروا الأمر وعلموا الحق، وأن العجل لا يملك لهم حياة ولا نشورًا، ولا هداية ولا ضرا ولا نفعًا، فكانت هذه كلها معان إضافية مفهومة من المنطوق به في الآية خاصّة في لفظ "وسُقط" التي أوحت لنا بكثير من المعاني النفسية والصور الحسية المتقاربة في الوقت نفسه لما كان عليه هؤلاء أثناء عبادتهم العجل وبعد عودتهم إلى الحق ظاهرًا وباطنًا، وكل ذلك هدَف إليه القرآن وأشار إليه والله أعلم.

4.4.4.2 رابعًا: المسكوت عنه في قصة سورة "يونس":

قال ﷻ:(فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ): [يونس: 83].

التحليل:

جاءت هذه الآية مبنية على حذفٍ سكت عنه القرآن، لكن دل عليه السياق في القصة، والتقدير: جاء موسى – عليه السلام – بالآيات التي أيّده الله — تعالى — بها، وعلى رأسها إلقاء العصا التي تلقف ما كان يفعله السحرة، ومع ذلك لم يؤمن به – عليه السلام – إلا ذرية من قومه.

ومن ناحية أخرى لم نجد وصفًا صريحًا لهؤلاء "الذرية" في القرآن، لكن بالرجوع إلى المعاجم اللغوية وكتب التفاسير نستطيع أن نقول: إن هؤلاء الذرية عدد قليل من الشباب الذين يُرجَى فيهم الخير الكثير ويتحقق فيهم الإيمان بعد أن تخلّف عن الإيمان أصولُهم (وهم آباؤهم وساداتهم وكبراؤهم)، وفي ذلك يقول

الألوسي: "الذرية من قومه هم أولاد بعض بني إسرائيل؛ حيث دعا – عليه السلام – الآباء فلم يجيبوه؛ خوفًا من فرعون، فأجابته طائفة من شبابهم، وهم الذرية من الشبان لا من الأطفال". (1)

كما جاء في وصف هؤلاء الذرية الذين لهم ذِكْرٌ في القصّة: أنهم هم من آمنوا بموسى – عليه السلام – وما جاء به من آيات دالّة على صدقه، " وهم عدد قليل من شبان قوم بني إسرائيل الذين كانوا يعيشون في مصر والذين كان فرعون يسومهم سوء العذاب...". (2)

وجاء في تفسير ابن كثير ما ذَكَرهُ العوفي عن ابن عباس: " إن الذرية التي آمنت لموسى من قوم فرعون منهم امرأته، ومؤمن من آل فرعون، وخازنه، وامرأة خازنه". (3)

ومن ثَمَّ كان في لفظ "الذرية" نوع خفاء في وصفهم لم يصرّح به القرآن، إلا أن بعض العلماء رجّح ان يكون هؤلاء هم المذكورين عن ابن كثير في تفسيره؛ " لأنهم أكثر مَن عرفوا موسى وآمنوا واستبشروا به؛ فقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به". (4)

ومن ثَمّ كان لهؤلاء شرف الذِّكر في القِصة؛ لأنهم هم الشباب وهم صحوة الأمة في كل زمان ومكان، وهم الذين يرتقي بهم الإيمان ويُرجَى فيهم الخير، ولعل ذِكرهم هنا كان لهذا الغرض وتفضيلهم على غيرهم من باب تقديم خواصّ الإيمان في الإيمان، وترتيب الأَوْلَى في الذِّكر؛ نظرًا لما قدَّموه لموسى – عليه السلام – من إجابةٍ للدعوة واتباعٍ لدين الله – تعالى — وتوحيده.

---

(1) الألوسي، تفسير الألوسي "روح المعاني": 157/6.
(2) طنطاوي، تفسير الوسيط: 117/7.
(3) ابن كثير، تفسير ابن كثير، 250/4.
(4) طنطاوي، تفسير الوسيط، 118/7.

5.4.4.2 خامسًا: المسكوت عنه في قصة سورة "إبراهيم":

قال – تعالى –:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ): [إبراهيم: 5].

التحليل:

الظاهر أن المقصودين في قوله ﷻ:" قومك" هم بنو إسرائيل، ولكن المراد بالقوم معهم —كما أرى والله أعلم — فرعون وآله أيضًا؛ لأن رسالة موسى عليه السلام كانت خاصّة وعامّة، خاصّة لفرعون وملئه، وعامّة لبني إسرائيل قومه، بدليل قوله — تعالى –: (اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى): [سورة طه، الآيتان:43،44].

ومن ثَمّ جاء كلمة " القوم " هنا من باب التعميم في اللفظ الذي تبعه تعميم في المعنى دون تخصيص؛ لأن موسى – عليه السلام – أُرسل إلى فرعون وغيره؛ ليتبعوا دين الله — عزّ وجلّ — وتوحيده.

وثمّة سؤال: ما المراد "بأيام الله" في الآية؟

نرى أن القرآن الكريم ذَكَرَ الأيّامَ ولم يُحدّدها تفصيلًا من حيث المراد بها، أو أنه أعطى شيئا من وصفها، فقيل: هي نعمه وآلاؤه على بني إسرائيل، وقيل: أياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوّهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنّ والسّلوَى. (1)

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 224/1 بتصرّف.

وأرى أنه لا تعارض في فَهم هذه الآية هنا – من حيث المراد بالقوم فرعون ومَن معه أيضًا – وبين الآية في قوله سبحانه في سورة يونس: (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) آية 88؛ لأن من نعم الله تعالى على فرعون أن أعطاه زينة الدنيا وأسباب الترف والأموال والجاه؛ علّه يرجع إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم. وكذلك لا تعارض في الفَهم أيضًا بين الآية التي معنا في سورة "إبراهيم" وبين الآية في سورة الزخرف، وهي قوله تعالى:(فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون): [آية 50] ؛لأن المعنى في سورة الزخرف أن هؤلاء - فرعون وقومه – طلبوا من موسى – عليه السلام – أن يمهلهم فترة؛ لعلهم يهتدون، فلما لم يرجعوا عما في أذهانم كشف الله عنهم العذاب، وأفهَمُ من هذه الفترة التي أمهلهم سيدنا موسى إياها بحجة طلبهم الرجوع إلى الحق المبين أنها كانت ضمن نعم الله - تعالى - عليهم، أي على فرعون وقومه، بدليل قوله - سبحانه -:(وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون): [الزخرف، آية 49].

إذَن: شملت هذه الأيام هنا في سورة "إبراهيم" القوم جميعًا دون ذِكْرٍ للتفصيل، كما سكت القرآن الكريم عن الإفصاح بتفسيره هذه الأيام؛ لإطلاقها على أيام النعمة وأيام النقمة - على حدّ سواء -؛ لأن الفاعل للأمرين واحد وهو الله - عزّ وجلّ -؛ لتكون العظة والعبرة من النعمة بعد زوالها في حال النقمة.

وقيل: سكتت الآية عن الكشف عن هذه الأيام؛ للتهويل والإنذار والتخويف، والمراد: وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود، ومن أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار. [1]

6.4.4.2 سادسًا: المسكوت عنه في قصّة سورة " الكهف ":

(1) قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا): [الكهف60].

التحليل:

في قوله تعالى: "أو أمضي حقبًا" سكت القرآن عن الغاية الزمنية، بينما ذَكَرَ الغاية المكانية في قوله: "مجمع البحرين"، ويبدو من ذلك أنه – عليه السلام – استغرق في الوصول إلى ذلك المكان زمنًا طويلًا، والكلام على سبيل المبالغة في الوصول بعد جهد وتعب ومشقة، أي أنه لا يبرح مكانه ولا يفارقه مهما كلفه ذلك من تعب أو مرض أو شدّة أو جوع أو هلاك، والمعنى: أنه – عليه السلام – أبى في قرارة نفسه (ظاهرًا وباطنًا) إلا أن يصل إلى المكان، أما تحديد الزمان فجاء مبهما؛ "فحقيقة الحقب وقت من الزمان مبهم يكون لتمييز سنة أو أقل أو أكثر.[2] ونفهم من ذلك أن المعنى المسكوت عنه والمدلول عليه من المنطوق به في الآية ما ذَكَرَه أبو السعود في تفسيره: "أسير زمنًا طويلًا أتيقّن معه فوات المطلب".[3] يا له من تفسير ممتاز تميل إليه النفس وتقبله؛ لأن معناه الدوام على الثبات والحرص على المطلوب والمبتَغَى

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 540/2.

(2) أبو جعفر النحاس (ت338هـ)، إعراب القرآن: ت عبد المنعم خليل إبراهيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1421هـ)، 300/2.

(3) أبو السعود، تفسير أبي السعود، 232/5.

حتى يبلغ منتهاه في التعب، والغرض من ذلك: حرص سيدنا موسى - عليه السلام - ألا يفوته المعاد كما لم يفته المكان، مما يدل على عناية الله به، وأن الله – تعالى - صانع به كل خير، وكيف لا؟! والله تعالى هو القائل: (ولتصنع على عيني)، [سورة طه: آية 39]. وقال:(واصطنعتك لنفسي)، [طه، آية 41].

وهذا منه عليه السلام دالٌّ على قوته وشدة حرصه على أنما عند الله آتٍ، كأنه جعل يأخذ في تنفيذ الأسباب التي توصله إلى مراد الله، كأنه جعل لسان حاله يقول: لن أهدأ ولن يغمض لي جفن حتى أصل إلى "مجمع البحرين" أو أهلك دونه، أي ولو طالت دونه أحقاب، ثم شاءت قدرة الله وحكمته وتمام علمه في التقاء موسى - عليه السلام - بالخضر ذلك العبد الصالح.

(2) قال - تعالى -:(قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا). [الكهف: 63].

التحليل: السكوت هنا جاء مُقَدَّرًا في إحياء الحوت واضطرابه ووقوعه في البحر مرّة أخرى، ثم اتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا!! وهذا دال على قدرة الله – تعالى – وخَلْقه أسباب النجاة؛ ليبين لموسى – عليه السلام – أسباب سبل العلم في إتاحة المقابلة بينه وبين الخضر في المكان المحدد "مجمع البحرين" وكان ذلك هو المبتَغَى بغض النظر عن التفاصيل التي سكتت عنها القصة؛ لأن أسباب ذِكر السياق أوْلى من أسباب ذِكر التفاصيل ومُقَدَّمَة عليها، ولذلك نرى قوله - تعالى - بعد ذلك: (ذلك ما كنّا نبغ) طوى كل ما عداه من تفاصيل يُمكن الرجوع إليها بالتأمل والتدقيق في دلالات الألفاظ؛ فلم يذكر أسباب اللقاء وأسباب النجاة من الحوت وأسباب العلم وأسباب العمل وأسباب الصحبة بين موسى والخضر وما دار بينهما من حديث طويل، كل ذلك معلوم من خلال الأحداث في القصة في هذه السورة وما بينها وبين باقي الأحداث في قصص أخرى في سور أخرى متعددة، نستطيع من خلالها إجمال وحصر تلك الأسباب

كلها، لكن هنا في سورة "الكهف" دلتنا لفظة واحدة هي النقطة المركزية التي جمعت بين موسى والخضر؛ لتكون الأسباب في تحصيل العلم وتحصيل الأدب وتحصيل الصحبة المباركة بين الشيخ وتلميذه ثم تحصيل المعرفة والعلم اللَّدُنّي بقدرة الله – عزّ وجلّ – ثم تحصيل الفهم لهذا العلم والعمل بمقتضاه؛ لإتمام الفائدة والثمرة المرجُوّة – بإذن الله – من هذه القصة، وهذه النقطة المركزية هي قول الله ﷻ: (مجمع البحرين)؛ فهي أساس اللقاء وأساس العلم وأساس العمل وأساس تحصيل كل ما سكتت عنه القصة من تفاصيل؛ لندور حول ألفاظها ونتأمّل في كلامه – سبحانه وتعالى –؛ لنَفيد ونُفيد؛ بحثًا عن العلم وطلبًا للجدّ والعمل والاجتهاد والمسارعة إلى التدبّر في القرآن الكريم، عملًا بقوله – سبحانه –:(أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها): [محمد، آية: 24].

كما أطلق القرآن الكريم "النسيان" في قوله – تعالى –: (فإنّي نسيت الحوت)، والظاهر أن ذلك النسيان معجزة لسيدنا موسى – عليه السلام – في ذلك التوقيت بالذات، قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى؛ لكونه أمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها". [1]

وهذا معناه أن النسيان كان ضمن العوامل والأسباب الأساسية في التقاء موسى بالخضر دون ذِكر تفاصيل تصرّح ببيان ذلك النسيان، إلا أننا علمنا أنه سبب رئيس في القصة والوصول غلى المكان المبتَغَى والمرجُوّ في قوله تعالى: (ذلك ما كنا نبغ). والله أعلم بأسرار كتابه.

(3) قال – تعالى–: (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا). [الكهف: 66]

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 732/2، 733.

التحليل:

ثمة سؤال هنا: أين ذهب فتى موسى – عليه السلام – بعد لقائه بالخضر؟

لقد سكت القرآن الكريم عن مرجع ذلك الفتى ومأواه في هذه اللحظات، فيرى بعض المفسرين أنه لم يُذْكر؛ لكونه تبعًا لموسى – عليه السلام –؛ ولأن القصة بأسبابها ونتائجها مبنيّة على ذِكر هذين البَطَلين (موسى والخضر)، قال أبو حيان: "... ولم يضم الفتى؛ لأنه في حُكم التبع، وقيل: ردّه موسى – عليه السلام – إلى بني إسرائيل". [1] وقيل: " إن مهمة الفتى قد انتهت، ومن ثَم ذ لم يعد له ذِكر؛ لأن موسى – عليه السلام – قد صرفه لشأنه؛ لأن المقام يستدعي ألَّا يستكمل معهما الرحلة، فإذا كان الخضر قد قَبِل صُحبة موسى بعد عهدٍ وميثاقٍ – وهو كليم الله – فمِن باب أوْلَى ألَّا يقبلَ صُحبة مَن هو دونه بمراحل بعيدة في العلم والعمل". [2]

7.4.4.2 سابعًا: المسكوت عنه في قصة سورة "طه":

قال تعالى:(واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بيْضاءَ...): [طه: 22].

التحليل:

استغنى القرآن الكريم هنا عن كيفية إدخال اليد وإخراجها، واكتفى بما يدل على المسكوت عنه من خلال قوله:"واضمم" ثم أتبعها بكلمة "بيضاء"، وكأن الله تعالى أراد أن يعلّم سيدنا موسى الممارسة على هذا الأمر أوّلًا؛ معجزةً له وتعجيزًا لفرعون وقومه، ونفهم من ذلك أن اليد حين يدخلها تكون غير

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 206/7.

(2) ينظر: عماد محمود عبد الكريم، قصة موسى والخضر –عليهما السلام– دراسة بلاغية تربوية (القاهرة: جامعة الأزهر، دون تاريخ)، ص 432.

بيضاء، وإذا أخرجها تكون بيضاء، وكأن تقدير الكلام: أدخلها غير بيضاء بعد ضمك لها واخرجها بيضاء، وفيه استرعاء نظر إلى المقصود من المشهد، وهو بيان قدرة الله – تعالى- وخَلْقه أسباب المعجزات الخارقة للعادات، مما يدلّ على كمال أُلوهيته - سبحانه وتعالى- التي كان يدّعيها فرعون ويأمر بها قومه للتصديق بها والعمل بمقتضاها على حدّ زعمه؛ خوفًا منه.

ونلحظ أن هذه القصة في هذه السورة وشبهها في سورة "النمل" في قوله – تعالى -:(وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء...): آية 12، وقوله في سورة "القصص": (اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء...): آية 32 جاء في ملخص تفسيرها جميعا ما دار بين سحرة فرعون وبين سيدنا موسى – عليه السلام -، وما آل إليه حال السحرة بعد ذلك من إيمان بالله – تعالى- وسجود له – سبحانه وتعالى-؛ لما رأوه من معجزات واضحات أيّد الله بها نبيَّه موسى -عليه السلام- ورؤى ومشاهد أثبتت لهم كذب فرعون واستخفافه بعقولهم، وقد سجّل القرآن الكريم ذلك على لسانهم فقال -جلّ شأنه- حكاية عنهم:(آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون): [الأعراف: 121،122]، وقوله تعالى:(قالوا آمنا برب هارون وموسى): طه، 70، وقوله: (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) [طه: 73]، وقوله: (قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون) [الشعراء: 47،48].

ونلحظ أن ما سكت عنه القرآن من تفاصيل الإدخال والإخراج لليد كان لعلة؛ لتكون اليد غير بيضاء مرّة، وبيضاء مرّة أخرى من غير أن يصيبها مرض أو سوء، وهذا إعجاز بلاغي في كتاب الله – عزّ وجلّ – أعربته وأظهرته لنا صورة المقابلة بين الدخول والخروج؛ لدلالة أحدهما على الآخر؛ احتراسًا من الإيهام الذي قد يحمل في نفس السامع خلاف المقصود؛ لذا كُنّي بالمقابلة بالخروج عن الدخول بما يدفع هذا الخلاف والإيهام، فضلًا عن الإيجاز.

والسبب في المسكوت عنه هنا شيء آخر هو "الاحتباك" الذي دلّت عليه المقابلة في قوله: "تخرج"، وقد ذَكَر بعضُ العلماء ان المسكوت عنه هو غير الصريح في القرآن الكريم، وهو أن يسكت عن شيء ثم يثبته في شيء آخر عن طريق الإجمال يدل عليه بالمثل، أو المتشابه، أو المتناظر، أو المثبت، أو المنفي، وقد يكون ذلك في نص واحد أو في جُمَل متقابلة او بين كلمتين متقابلتين [1]. وهذا ممّا علمناه في سورتي: (طه، والنمل).

8.4.4.2 ثامنًا: المسكوت عنه في قصة سورة "القصص":

(1) قال – تعالى-:(**وأَوحَيْنا إلى أمِّ مُوسَى**...): من آية 7؛ حيث ذَكَر "الأم" فقط.

(2) وقال تعالى:(**وقالَتْ لِأخْتِهِ قُصّيهِ**...): من آية11؛ حيث ذَكَر "الأخت" فقط.

التحليل:

لم يُفصح القرآن الكريم في هذه القصة هنا إلّا عن "أم موسى" و "أخته" من جميع أهله؛ لأن المقام والسياق – بلا ريب – استدعى ذِكرهما دون غيرهما؛ حيث إن السياق في تلك الأوقات واللحظات العصيبة – التي كان يذبح فيها فرعون الأبناء الذكور – استدعى وطلب من كل أُمّ حانية الدفاع والذود عن ابنها فلذة كبدها (خاصّة وأنه طفل ما زال في المهد رضيعًا يحتاج إلى ثدي مَن تقوم برضاعه وتكفله حتى الفطام)، ومعنى ذلك ان سيدنا موسى – عليه السلام –كان في هذه المرحلة صغيرًا لم يبلغ سنّ الفطام، ولاريب أن مرحلة الرضاع مرحلة فسيولوجية للطفل تدفعه إلى التقام ثدي أُمِّه جِبِلَّة وفطرةً؛ لتكسبه من حنانها، وتُعطيه

---

(1) ينظر: عبد الفتاح الحموز، معجم الأفعال التي حُذف مفعولها غير الصريح في القرآن الكريم، (، عمان، الأردن، دار الفيحاء ودار عمار ط 1، 1986م)، ص 18 بتصرّف.

من دفئها، وتُسقيه من لَبَنِها، وتُغذّيه من دمها؛ لذا كانت "أم موسى" هي المرأة المنوط بها في القصة (ذِكرًا وقَصدًا)؛ لبيان قدرة الله ﷻ على إرجاع وليدها الرضيع لها مرّة أخرى؛ لتملأ عينيها بلقائه فرحًا ونورً وسرورًا، ولنتأمّل حكمة الله ﷻ في إرجاع سيدنا موسى إلى أمه بعد أن رفض الرضاعَ من الموجودات من النساء وقتئذٍ؛ ليلتقي بحنان أمه – عليه السلام – وحبّها وأمومتها وعطفها وشفقتها، وتلك صفات لا تجتمع إلا في أم ذات خوف وتقوى ورعاية لأولادها، وكذا صفات لا تجتمع في أي أُمّ تحل محلها أو تكون بدلا عنها في مهمة التربية والكفالة والرضاع مهما بلغت منزلتها في الشفقة والحب والعطاء، وتلك حكمة ربّ الأرض والسماء، وقد بان هذا الخوف، وهذه الرعاية والتقوى وتنفيذ أمر الله تعالى فيما أوحى إلى "أم موسى" في قوله: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني): القصص من آية 7، وهنا نلحظ أن القرآن الكريم سكت عن إجابتها لهذا الوحي، لكنه أفهمنا من جانب آخر ما يؤيّد إجابتها وتلبية أمر الله – تعالى– فيما أمرها به من نواح عدّة: الناحية الأولى: مكافأة الله – عزّ وجلّ – لها بتحقيق ما وعدها به من إرجاع سيدنا موسى إليها مرّة أخرى سالما غانمًا دون أن تصيبه شوكة من فرعون وجنده، فقال – سبحانه –:(إنا رادّوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين): القصص، من آية 7. والناحية الثانية: فزع قلبها على وليدها؛ خوفًا من أن يصيبه أذًى من فرعون وقومه، حتى كادت أن تبدي فزعها هذا وتفصح عن أمر ابنها لولا أن ربط الله – تعالى – على قلبها بالصبر والثبات والتماسك، فقال – سبحانه –:(وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغًا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين): القصص، آية 10. والناحية الثالثة: ما ذكرته آية سورة "طه" من قول الله – تعالى–:(أَنِ اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمِ فليلقه اليمُّ بالساحل): من آية29. والناحية الرابعة: ما جاء في سورة "طه" أيضا من قوله تعالى: (فرجعناكَ إلى أُمّك كي تقرّ عينُها ولا تحزن) من آية 40. فكل تلك الأحداث المذكورة في القصّة دلالات

على أن "أم موسى" استجابت لأمر ربها في تنفيذ طلبه، إلا أن المهمة كانت صعبة وشاقّة على نفس أم سيدنا موسى ومِن ثَمّ عوّضها اللهُ خيرًا في الإرجاع من ناحيةٍ، وفي جَعله مِن المرسَلين من ناحيةٍ أخرى.

وأما استعمال القرآن للفظ "الأخت" فقط وسكوته عن سواها ممّن يستطيعون إبصار موسى عن بُعدٍ؛ فلأن القرآن ــبلا ريبــ رآها أَقْدر من غيرها على تنفيذ المهمة في خُفية تامة، كما قال سبحانه: (فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون): القصص، من آية 11، كما أن اختيار الأم وابنتها من بيتٍ واحدٍ دالّ على الاتّحاد والشعور بالمسؤولية أكثر من غيرهما؛ فهذه أمّه، وتلك أخته، ومِن ثَمّ فلا تستطيعان الإفصاح عن أمر موسى لأحدٍ مهما كلّفهما الأمر من جُهد وتعبٍ ومشقّةٍ، بدليل قوله تعالى عن أم موسى: (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا...)، وهذا معناه أنها كانت في بداية الأمر قلقة فزعة على ابنها، لدرجة أنها لم تر في حياتها إلا هو أمامها فأصبح همَّها وشغلها الشاغل إلى أَن مَنَّ الله على قلبها بالثبات والقوّة والصبر.

وأما أخته عليه السلام فقامت بدورها في تنفيذ المهمة أيضا على أكمل وجه مع الأخذ بالأسباب، والحيطة والحذر من فرعون وقومه؛ لئلّا يشعروا بها، فقال تعالى: (فبَصُرتْ به عن جُنُبٍ وهُم لا يشعُرون)، وهذا كله إن دلّ فإنما يدلّ على العناية الإلهية والرعاية الرّبّانية لموسى – عليه السلام – بترتيب دقيق وتخطيط مُحكَم؛ لتجتمع الألفة والمودّة، ويجتمع الحبّ والعطاء والوئام بين الأهل مرّة أخرى بإذن الله تعالى الذي إذا أراد أمرًا بقدرته وكمال علمه وعظيم سلطانه وجلال وجهه أن يقول له كن فيكون، ولذلك يقول بعض العلماء:" استعمل القرآن لفظ "الأم" و"الأخت" وترك ما عداهما؛ لأنهما أَقْدَرُ على جلب العطاء وإحداث الأُلفة في الرجوع، وتنفيذ المطلوب بسرعة وبأقصى جهد؛ حتى لا يبعد عنهما موسى ولا تبعدا عنه...".(1)

(1) ينظر: محمد حسين محمد ياقوت حسين، ظواهر الآيات وبواطنها في قصة موسى – عليه السلام – (بيروت: دار الحكمة، ط 2، سنة2000م)، صـ 205 بتصرّف.

(3) قال تعالى:( ) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)): [القصص: 14].

التحليل:

في قوله ﷻ: "بلغ أشده واستوى" سكوت عن الإفصاح بالسن التي يبدأ العمر فيها أقوى وهو ما بعد الثلاثين، وتمامه عند الأربعين، والمراد: "حتى وصل من العمر أكمله في القوة ومظنة الأشدّ". [1]

(4) قال ﷻ: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)): [القصص: 25].

التحليل:

نلحظ هنا سكوت القرآن الكريم عن كيفية مشي إحدى الفتاتين واكتفى فقط بذِكر قوله: "تمشي على استحياء"؛ لأن المهم هو إفهامنا أن المشي كان على "استحياء" ؛ تناسبًا مع أدبهما الجمّ وما علّمهما إيّاه أبوهما من الخُلُق العظيم والسلوك القويم ولا ريب ان من كانت هذه أخلاقه وصفاته اجتمعت فيه محاسن الأخلاق كلها وعلى رأسها خُلُق الحياء والعفة والطهارة؛ لذا لم تُذكَر كيفية المشي هنا؛ اكتفاءً بذِكر الصفة وهي "استحياء"، ومَن كانت على استحياءٍ فالأَوْلَى لها أن تتبع مستلزمات الوصف وتطبيقه على الطّريق، ولا ريب أن الاستحياء من لوازم المرأة بصفة خاصّة ومن لوازم الرّجال بصفة عامّة؛ وهو من حقوق الطريق

---

(1) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 33/26 بتصرّف.

الواجبة علينا في ديننا الإسلاميّ الحنيف، والتي رغّبنا فيها وعلّمنا إيّاها نبيُّنا – صلَّى اللهُ عليه وسلَّم –، فضلًا عن أنه دليل الإيمان فقال – عليه الصلاة والسلام –: "إن الحياء من الإيمان".[1]

ومن استحياء المرأة: عدم الزينة والتبرّج والإغواء والإغراء والتهييج وإثارة النفس، وألّا تتكلم إلّا عند الحاجة والضرورة، وألّا تُعلي من صوتها، وأن تغض طرفها عن الرجال الغرباء، وألا تمشي أمامهم في طريقٍ، حتى لو كان على سبيل الوصيف والإعلام بتضاريس هذا الطريق.

وهكذا كانت الفتاتان على خُلُقٍ شافٍ كافٍ من الاستحياء المطلق العام الذي لا ينقص من شأنهما وقَدْرهما في تربيتهما وصحّة وسلامة صدرهما ونقاء سريرتهما وصفاء نيتهما مثقال ذرّة؛ لذا جاء التعبير بكلمة "استحياء" بالسين والتاء للمبالغة في وصف الحياء والتأكيد عليه، وكأنه حياء يعلوه حياء وأدب فوق أدب، ولذلك جاء الحرف "على" متوسّطًا بين "تمشي" الدّالّة على الوقار والخجل والسكينة في المشي وبين "استحياء"، مما يدلّ على تمكن الفتاتين من الاستحياء، وخلوّهما من كل آفةٍ ومرضٍ، ولذلك انظر إلى قولهما "وأبونا شيخ كبير"، وهذا معناه أن القرآن الكريم سوّى بين الفتاتين في القول في نَفَسٍ واحدٍ ووقتٍ واحدٍ في مكان واحدٍ، كأنهما شخص واحد، كلٌّ منهما تتكلم بلسان أختها، ومما يدل على تلك الوَحدة في القول والعدل في التربية والاستحياء دون تفرقة بينهما تصدير قولهما هذا بكلمة "قالتا"، قال ابن كثير: "هذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبًا مطلَقًا؛ لئلّا يوهم ريبة".[2] ولعلّ هذا ما ذَكَرَه ابن كثير يُفصح لنا عمّا فهمناه من عدم تجزئة الوصف في الاستحياء، وذكر الصفة والاكتفاء بها والاستغناء عما سواها من

---

(1) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256 هـ)، صحيح البخاري، تحقيق/محمد زهير ابن ناصر الناصر، (بيروت: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان (14/1).

(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير، 205/6.

كيفية وتفصيل يبعدنا عن الغرض المنوط به الوصف للفتاتين وهو الاستحياء المطلَق؛ لإزالة الريب والشبهة عن النفس من ناحية موسى – عليه السلام – ثم من ناحية الفتاتين، فلا يكون هناك مجال لتتحدّث كلّ نفسٍ مريضة عما بدر من الفتاتين الكريمتين من قول وطلب للمساعدة، والذي دعا الفتاتين إلى ذلك ليس جرأتهما، وإنما مما رأتاه من سيدنا موسى من حُسن خُلُقه وعظيم صفاته ومكارم أخلاقه – عليه السلام – ، ولذلك نرى في القصة ما يدلنا على أدبهما المطلَق واستحيائهما الجمّ من خلال عدّة عناصر:

(1) "تذودان".

(2) عدم سؤالهما سيدنا موسى السّقي، لكنه هو الذي سأل فقال: "ما خطبكما"؟

(3) قولهما: "لا نسقي حتى يُصدر الرّعاء".

(4) قولهما: "وأبونا شيخ كبير".

وإن دلّ هذا فإنّما يدلّ على التقوى والتعاون مع أبيهما؛ جزاء تربيتهما الصالحة؛ إذ إن تقوى الأصول تنفع الفروع، وصلاح الآباء ينفع الأبناء، كما قال – تعالى –: (والبَلَدُ الطَّيّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّه): سورة الأعراف، من آية 58.

ولاحظ هنا أن مما سُكِت عنه في القصة تحديد إحدى الفتاتين بعينها في قوله – تعالى –:"فجاءته إحداهما" وقوله مؤكِّدًا على ما سبق في اللفظ "إحداهما": "قالت إن أبي يدعوك"، وهذا يُعدّ من باب الإبهام في اسمها وسنّها – من حيث الصغر والكبر–، وهنا نقول: إن القرآن الكريم لا يهتمّ بذِكر التفاصيل في القصة، وإنما الأَوْلَى ما جاء في السياق وما تبعه من دلالاتٍ ومعانٍ؛ إذ لا يهتمّ موسى – عليه السلام – بمعرفة اسمها أكثر مما قامت عليه القصّة من أحداث ومشاهد نأخذ منها العظة والعبرة والدروس المستفادة

والتي من أهمها: التعاون على البرّ والتقوى، وتقديم يد العون والمساعدة، والتّخلُّق بفضائل الأخلاق والتّحلّي بمحاسن الصفات.

(5) قال تعالى: (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)): [القصص: 28].

التحليل:

عندما نقرأ هذه الآية الكريمة نطرح سؤالًا ظاهرًا: هل قضى سيدنا موسى عليه السلام الأجلين أم أحدهما؟؛ لأننا نرى أن الآية سكتت عن أي الأجلين قضى موسى؟ وهنا نجد المسكوت عنه ذكَرَه ابن كثير في تفسيره فقال: "وقد دلّ الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما"[1]. والدليل ما جاء في رواية البخاري بسنده عن سعيد بن جبير، قال: "سألني يهوديّ من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلتُ: لا أدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله، فقدمتُ فسألتُ ابن عباس فقال: "قضى أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قال فعل". [2]

9.4.4.2 تاسعًا: المسكوت عنه في قصّة سورة "غافر":

قال تعالى:(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)): [غافر: 35].

التحليل:

---

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير، 231/6.

(2) المراد بالرسول هنا سيدنا موسى؛ إذ إنه أوْلى بالمقصود من السياق: صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، 181/3.

المسكوت عنه هنا جاء مدلولًا عليه من مدلولات كلمة "يطبع" في الآية الكريمة؛ إذ إن الطبع يكون على القلب وعلى غيره من الجوارح، لكن القلب ذُكِرَ هنا؛ لأنه الأساس في التوجيه والتحريك، وأنه القبلة التي يتوجّه إليها الإنسان نحو الشيء من حركة أو سكون، أو إيمان أو كفر، أو هدًى أو ضلال، أو شُكر أو جحود، وهكذا...، فكأن لفظة "يطبع" هنا أغلقت الباب أمام هؤلاء الكافرين من بني إسرائيل؛ لأن الله – تعالى – كتب في علمه أنهم ضالون، فكأن قلوبهم صدأت وانكسرت، فلم يعد لديهم بصر أو بصيرة، فعموا وصمّوا عن رؤية الحق والإيمان؛ فقلوبهم قلوب جاحدة لا تحمل إلّا الضلال والإعراض عن الله وتوحيده – عياذًا بالله تعالى –.

والطبع في حقيقته: الختم، وأصله من الوسخ والدّنس يغشيان السيف، ثمّ استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح... والطبع ملؤك السقاء حتى لا مزيد فيه من شدّة ملئه. (1)

فالطبع ذو إيحاءات سكت عنها اللفظ تفصيلًا، لكنه أوسع إيحاءً من الختم، قال الراغب: "الطبع هو أعمّ من الختم". (2)

إذَن: فالكلمة تحمل في طيّاتها كثيرًا من المعاني والدلالات والإيحاءات بما كان عليه هؤلاء وما سيصيرون عليه من حالٍ ومآلٍ بعد ذلك؛ حيث إن القرآن في هذه الآية ذَكَر "الطبع" وهو المسبَّب وسكت عن السبب الذي فهمناه من فحوى القصّة قبلها، وهو إعراض قلوبهم عن الحقّ؛ " لما في قلوبهم من ميل

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، صـ 449.

إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت صحّة القلب وسلامته في نقائض ذلك". (1)

خلاصة المسكوت عنه في قصّة سيدنا موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم

بعد هذا التطواف المتواضع للجوانب المسكوت عنها في قصّة سيدنا موسى - عليه السلام — في القرآن الكريم أستطيع عرض النتائج التي توصّلتُ إليها، وهي كالآتي:

أولًا: تبين لي أن المسكوت عنه قد يدلّ عليه السياق دلالة واضحة، ومن ثَمّ كان تحليلي في هذا الجانب قائمًا — فقط - على المواضع التي كان المسكوت عنه فيها خفيًّا يحتاج إلى تأمّل ورويّة وإنعام نظرٍ، ثم الربط بين المسكوت عنه وبين المنطوق أو المقروء من خلال ما أشارت إليه المقامات والسياقات في القصّة.

ثانيًا: النظر إلى الكلمة القرآنية وحروفها وإبراز الأثر البياني فيها وانعكاساتها على نفس السامع من حيث اختيار الكلمة ذات الألفاظ واسعة المعاني والدلالات.

ثالثًا: النظر إلى الآيات جملةً وإلى السياق تفصيلًا؛ لأن هذا السياق هو الذي يتمّ من خلاله أثر التتبع إلى وجود المعنى الرابط بين المسكوت عنه وبين المقروء.

رابعًا: النظر إلى جوانب الإيجاز والاكتفاء ببعض الألفاظ التي لها دلالات متعلقة بالمعنى داخل السياق في القصّة.

---

(1) ينظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق/محمد عبد الغني حسن، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط 1، القاهرة، 1374 هـ = 1995م)، ص 113.

خامسًا: النظر إلى المقصود من الآيات أو القصّة عمومًا؛ لأن فيها بيانًا لإبراز الغرض من الكلمة أو الجملة القرآنية وتتبع مفرداتها وأثرها على السياق وقيمتها في الإيجاز البياني بالنسبة للقرآن الكريم.

سادسًا: إن في النظر إلى المسكوت عنه في القرآن الكريم إفادة عظيمة تدلّنا على الإيجاز بنوعيْه [إيجاز بالحذف، وإيجاز بالقصر]، والإحكام الإلهيّ العالي في بلاغته وفصاحته التي لا تضاهيها بلاغة ولا تباريها فصاحة، كما أن للقرآن الكريم لمحات بارزة في التوجيه إلى بلاغته في المسكوت عنه والربط بينه وبين المقروء والمنطوق وهذا أمر يدعونا إلى التعجب والانبهار والتفكر والتدبّر في حروفه وكلماته وجُمله إلى يوم القيامة؛ لأن قدرة الله في كلامه أمر مُعجز، ويوضّح الإمام عبد القاهر الجرّجانيّ فضل المسكوت عنه (غير المنطوق) وأنه نوع من الإيجاز والحذف المفيد، وأنه من الإعجاز وتتبع السياق بمكان؛ فإن فيه قدرًا كبيرًا من الإفادة تلو الإفادة فيقول: "إنه باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر... إنك ترى به ترك الذِّكر أفصح من الذِّكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبن".(1)

وهذا الكلام من الشيخ عبد القاهر يعني أن القرآن في أساسه ما ترك لك شيئًا وسكت عنه إلا لغاية وحكمة، وأن ما نطق به لفظًا ودلّ عليه السياق ما كان إلا لأجل أن يزيدك إفادةً فوق إفادة وعجبًا فوق عجب، وهذا المقصود الرّبّانيّ إنما كان ليُعمل البشر عقولهم في تدبّر كتاب الله – عزّ وجلّ –، وإبراز صوره البلاغية في أدق معانيها وأجلّ أساليبها وألطف ألوانها وأسمق بيانها وأعذب مراميها وأسمى أهدافها وأرقى أغراضها.

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، صـ 146.

سابعًا: جاء المسكوت عنه في حرف وفي كلمة وفي أكثر من كلمة، كما مرّ في التحليل.

ثامنًا: لاحظتُ مع كلّ لفظة استخدمها القرآن الكريم وسكت عن تفاصيلها أن لها وجودًا وأساسًا مقاميًّا ورَحِمًا نابعة من السياق دلّت على صحة تقدير المسكوت عنه.

تاسعًا: أن من فوائد المسكوت عنه التفخيم والإعظام لما فيه الإبهام، والتشويق واللهفة إلى تقدير المحذوف من الكلام والبحث عن الصلة بين المذكور والمقدّر، ولذلك أطلق القرآن المقروء والمنطوق وترك لنا الاجتهاد في الوصول إلى التفاصيل؛ لتذهب نفس السامع والقارئ والمتلقّي فيه كل مذهب دالّ على التأمّل وإعمال العقل والتدبّر ومراجعة كلام العلماء في كتب علوم القرآن وكتب التفاسير؛ حيث إن كل كلمة متعلّقة بكتاب الله – تعالى – هي معين لا ينضب ولا ينفد إلى يوم القيامة.

عاشرًا: السكوت عن بعض التفاصيل في القصّة تدع مجالًا للتفكر في هذا المسكوت عنه ونقل العقل من حدث إلى حدث ومشهد إلى مشهد بترتيب دقيق ولهفة إلى المعرفة وتشوّق إلى الغرض المنوط به السياق في القصّة، فضلا عن أن هذا المسكوت عنه يجعل النفس سابحة في عالم التخيل الوجداني والإدراك المعرفي الصادق الذي له صلة وعلاقة بالعالم الخارجي في كل زمان ومكان مهما اختلفت الدور والدهور، "ومن أبرز معالم هذا البيان الرائع التنقل بين المشاهد وحذف بعض الأحداث فيها التي تسبح النفس في تخيلها الواقع الملموس، ووجدانها الصادق المحسوس".[1]

(1) عبد الله علي عبد الرحمن أبو السعود، الإيجاز وأثره في بيان إعجاز القرآن الكريم دراسة تأصيلية، (عمان: جامعة العلوم الإسلامية العالمية، 2011م)، صـ 87، بتصرّف.

حادي عشر: لاحظتُ أنّ فَهم المسكوت عنه يكون من خلال التنوّع والاختلاف في السياق، لكنه يُفهم – غالبًا – من السياق وقرائن الأحوال.

ثاني عشر: أن السبب الرئيس فيما سُكِت عنه هو وضوحه ووضوح ما يُغني عنه في السياق وفحوى الكلام، وفي ذلك نوع من الإيجاز والمبالغة.

ثالث عشر: جاء المسكوت عنه في القرآن الكريم؛ لحِكَمٍ إلهيّة وأغراض نبيلة ومقاصد جليلة، منها الاجتهاد والسؤال والبحث والتيسير على البشر والرحمة وعدم التشديد عليهم وحُسن التدبّر والفَهم لكتاب الله – عزّ وجلّ –، "ولقد جعل الله هذا الدّين يسرًا لا عسرًا فبيّن ما نهى عنه بيانًا واضحًا وسكت عن أشياء لم يبيّن فيها بيانًا – لا عن نسيان، ولكن عن حكمة وتيسير – ونَهَى عن السؤال عمّا سكت عنه؛ لئلّا ينتهي السؤال إلى التشديد". [1]

رابع عشر: أن المسكوت عنه فرع من الإعجاز البلاغيّ والبياني في القرآن الكريم؛ "لأنه إذا ظهر مقصود الشرع في المسكوت عنه والمنطوق به استوى الكلّ في الاعتبار". [2]

خامس عشر: أن المسكوت عنه نوع من القياس الجليّ، ويسميه الإمام الشافعي – رحمه الله – "القياس في معنى الأصل"، [3] وهذا دالّ على أن للمنطوق به أثرًا في المسكوت عنه حتى وإن ظهرت الفوارق بينهما إلّا أن المسكوت عنه ليس عن هوًى، وإنما عن مفهوم واضح الدلالة من خلال السياق وفحوى

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 1722/3.

(2) الكيا هراسي، أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي/عزت عبده عطية، (بيروت: نشر دار الكتب العلمية، ط2، 1405هـ) 435/2.

(3) ينظر ذلك في: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي (ت 1393 هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ = 1995م)، 147/3.

الكلام وقرائن الأحوال، ومن ثَمَّ كان للسياق أثره في تتبع المعاني وفهمها وتدبّر وفَهم ما بينها وبين الألفاظ من دلالات وتراكيب، والله أعلم.

سادس عشر: للقرآن الكريم طرائقه الأسلوبية في الاختصار وترك بعض الأمور لفهمها من السياق أو لذكرها في مواطن أخرى من القرآن الكريم.

وهناك علاقة وثيقة بين المسكوت عنه في القصص القرآني ونزول القرآن منجما مفرقا، ومن هذه العلاقة ما يلي:

ـ تشجيع المسلم على التفكير والبحث: فقد ترك القرآن الكريم بعض التفاصيل عن القصص القرآني لتشجيع المسلم على التفكير والبحث، ومحاولة فهم هذه القصص وتفسيرها، وهذا يتناسب مع نزول القرآن منجما مفرقا، فقد كان القرآن الكريم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بشكل تدريجي، ويتطلب من المسلمين أن يتعلموا ويتفهموا ما ينزل عليهم من الوحي.

ـ احترام عقل المسلم: فقد ترك القرآن الكريم بعض التفاصيل عن القصص القرآني احتراما لعقل المسلم وإيمانا منه بأن المسلم قادر على فهم هذه القصص وتفسيرها. وهذا يتناسب مع نزول القرآن منجما مفرقا، فقد كان القرآن الكريم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بشكل مناسب لمراحل الدعوة الإسلامية ويتناول الأمور التي تهم المسلمين في زمانهم ومكانهم.

ـ التركيز على الجوانب التربوية والأخلاقية: فقد ركز القرآن الكريم في القصص القرآني على الجوانب التربوية والأخلاقية، وترك بعض التفاصيل التي لا تخدم هذه الأهداف. وهذا يتناسب مع نزول القرآن منجما

مفرقا، فقد كان القرآن الكريم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بشكل يربي المسلمين ويهديهم إلى الحق، ويعالج مشاكلهم ويحل معضلاتهم.

الخاتمة والنتائج

وبعد هذه الجولة الماتعة في رحاب القرآن الكريم وإعجازه البياني، لابدّ من خاتمة تلخصُ أبرز النتائج التي توصلتُ إليها:

1- التنجيم هو تنزيل القصة أو الآية بتدريج وتفريع وتناسب مع الأحداث والمواقف التي واجهها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وقصة موسى عليه السلام هي من أكثر القصص التي استخدم فيها الله تعالى التنجيم.

2- التنجيم القصصي من شأنه أن يرد على افتراءات المتقوّلين بالطعن في تعدد ورود القصة الواحدة.

3- التنجيم القصصي يدخل بقوة في موضوعات التكرار والمتشابه، ويجب تدريسه ضمن كليات القرآن، للمفسرين تجاه علم تنجيم القصة الواحدة؛ مواقف وطرق ومناهج جديرة بعناية الباحثين.

4- إن التنجيم القصصي وجه من وجوه الإعجاز البياني في كتاب الله ﷻ.

5- دراسةُ التنجيم القصصي في القرآن الكريم يمكن أن تساعدنا على فهم القصة القرآنية بشكل أعمق، والكشف عن أسرارها ودلالاتها.

6- التنجيم له دور مهم في تحديد سياق القصص القرآني؛ فالسور القرآنية مرتبة ترتيبا دقيقا، يعتمد على التنجيم، سواء كان تنجيم السور نفسه، أو تنجيم القصص التي وردت فيها.

7- التنجيم هو الذي جعل السور القرآنية مترابطة مع بعضها البعض، على الرغم من أنها نزلت في فترات زمنية مختلفة، فالتنجيم يربط بين السور من خلال سياقها العام، ومراميها الشرعية، ومضامينها القصصية، وعلى هذا أرى أن علم التسوير أساسه التنجيم السوري.

8- التنجيم يظهر تدبير الله تعالى ورحمته بنبيه وأمته، فهو ينزل القصة أو الآية بما يناسب حالهم وحاجتهم، ويعطيهم العبرة والموعظة والتسلية والتثبيت والتبشير والتحذير، ويجعل القرآن ربيع قلوبهم ونور صدورهم وشفاء لما في النفوس.

9- التنجيم يظهر تناسق القرآن وترابطه وتوافقه، فهو يربط القصة بالسورة التي وردت فيها، ويبرز المقصد الذي أريد به، ويوجه المخاطب إلى العبرة والفائدة منها، ويجعل القرآن متنوعاً ومتجدداً، ومتعلقاً بالزمان، والمكان، والحال.

10- التنجيم يظهر إعجاز القرآن وبلاغته وفصاحته، فهو يستخدم القصة أو الآية بأساليب مختلفة، وبصياغات متنوعة، وبألفاظ متباينة، على نحو يشد القارئ ويجذبه، ولا يسبب له الملل من التكرار، فهو يكرر في كل مرة بذكر جزء منها متوافق مع السياق والمقصد والمخاطب.

11- قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، هي أطول وأشمل القصص القرآنية، وهي تتناول حياة موسى ومواجهته لفرعون، أشد الطغاة ظلماً في التاريخ، ويعالج القرآن هذه القصة بأسلوب متنوع ومتجدد، يتناسب مع كل موقف ومناسبة.

12- لكل قصة غرضها الخاص بها حتى وإن تكررت في بعض المواضع، والفيْصل والمعين على ذلك هو السياق، تبعًا لما جاء في السورة من أغراض ومفاهيم وتراكيب وموضوعات دالة عليها.

13- الوصول إلى الغرض ليس بالأمر الهيّن، بل هو أمر يحتاج إلى قراءة الآيات مرات ومرات، وهذه الأغراض منها ما هو واضح وفيها ما هو خفى يحتاج إلى تأمل في المراد وبحث في كتب التفاسير والرجوع إلى المصادر والمراجع، فضلًا عن التتبع لقراءة السورة الواردة فيها القصة؛ كي نمسك بالخيط الجامع بين القصة والسورة وما بينهما من معانٍ ووشائج قد توضح لنا الغرض من القصة.

14- اتفاق واختلاف بعض القصص من حيث الحجم (الطول والقصر، الإجمال والتفصيل وهكذا)، وهذا الاختلاف في الحجم نجده راجعًا إلى سياق السورة نفسها من حيث الأغراض المتعددة فيها.

15- إنّ بين القصص تشابهًا كبيرًا من حيث الألفاظ ـ بصفة خاصة ـ ولا ريب أن هذا دال على أمريْن:

- **الأول**: إنّ هذا التشابه وجه من وجوه الإعجاز القرآني البلاغي الرَّبّاني، وفيه كثير من الأساليب البيانية الحافلة بشتى الصور والأسرار العالية ودلائل الإعجاز في النظم، هذه الأساليب البيانية التي يقف عندها القارئ متأملاً في كلام الله ﷻ أمام هذا الإعجاز؛ لاستخراج المعنى والغرض بصورة تقريبيّة؛ لأن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ المعجز، ولا يستطيع بشر أن يقف عند حدّ على إعجازه المبهر، أو أن يقف على المقصود النهائي منه؛ فالله ـ سبحانه ـ أعلم بأسرار كتابه.
- **الثاني**: إنّ إعادة بعض القصص في سور مختلفة لا يدل على التكرار؛ إذ ليس في القرآن تكرار، بل هو أمر في ظاهره التكرار، وفي باطنه الحكمة والإعجاز، ولعل السرّ الواضح لنا في ذلك راجع إلى

استدعاء الحاجة إلى التناسب بين ألفاظ كل قصة وبين السياق العام في السورة، وهذا هو المراد من الإعجاز، مما يدل على أن إعادة بعض القصص في القرآن دليل إعجاز وليس دليل تكرار.

16- إنّ قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكرًا في القرآن الكريم حيث نجد اسم موسى عليه السلام ذكر 136 مرة موزعًا على 34 سورة من القرآن من سور للقرآن الكريم بوجوه وأساليب متنوعة، وقد أخذت القصة الحيز الأكبر في القرآن من سوره المكية، وتظهر العلاقة التي كانت بين موسى _عليه السلام_ وفرعون وهذا يتماشى مع الواقع الذي كان يعيشه النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه، أما غالب ورودها في السور المدنية فكان الحديث عن علاقة موسى مع بني إسرائيل.

17- إن تنوع القصة دليل على الإعجاز اللفظي والدلالي، والحَكَم بينهما هو السياق الذي إذا تأملناه وبدقة وجدنا أنفسنا أمام أسلوب معجز فريد، ونسق عجيب، وترتيب حكيم، وصورة شافية كافية وافية مكتملة الأركان والبناء.

18- إن سبب الأسرار البيانية هو ترتيب النجوم داخل السورة الواحدة ثم داخل جميع القرآن، وذلك من خلال استعراض مواضع هذه النجوم القصصية داخل كل سورة أولا، ثم دراسة بيانية على مستوى ترتيب السور عامة حسب الترتيب المصحفي المعهود.

19- تختلف كل قصّة باختلاف سياقات السّورة جملة وتفصيلًا تبعًا للمواقف وتسلسل الأحداث وتاريخها _ الزماني والحيوي _ وتنوّع المقامات من تأنيس وتسليّة، وتهديد ووعد وعيد، ووعظ، وقوّة، وعون ومدد... إلخ.

20- في هذه الرسالة بحثت عن كيفية تحديد معنى الكلمات التي تشترك في اللفظ، ولكن تختلف في المعنى بحسب السياق الذي ترد فيه، واتخذت من قصة موسى عليه السلام، وهي من أوسع وأشهر القصص القرآنية، مثالًا لتوضيح هذه الظاهرة، وارتكزت في ذلك إلى مفهوم السياق القرآني، وهو ما يشمل كل ما يرتبط بالنص القرآني من عوامل داخلية أو خارجية تساعد على فهمه، مثل ما يسبقه أو يتبعه من الآيات، أو حال المخاطب أو المخاطب به، أو المخاطب فيه، أو تتابع الكلام لأجله.

21- إنّ قصة موسى عليه السلام هي قصة إنسانية خالدة، حيث تخاطب جميع العصور والأجناس.

وأما عن سبب تكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن، فقد ذكر بعض العلماء أنه لأن قصته تشبه قصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مواجهة الطغاة والمشركين، ولأنها تحتوي على عبر ومواعظ ودروس للمسلمين في كل زمان ومكان.

22- لا تَكرار في رسم المشاهد المتعلّقة بالقصص القرآني، وإنّما هو البيان القرآني المتفرّد الذي يعرض القصّة الواحدة والمشهد الواحد في أثواب تعبيريّة متنوّعة وجذّابة وبديعة، تتناغم وتتناسب مع السياق الذي وردت فيه، وأنّ هذا الصنيع هو ضرب من ضروب الإعجاز البياني في نصوص التّنزيل.

23- لم يخرج القرآن الكريم في إيراده الأساليب المتنوعة في عرض القصة القرآنية عن منهج العرب وسننهم قبل نزول القرآن شعرًا ونثرًا، وهذا أدعى للإعجاز البياني واللغوي.

24- القرآن الكريم يحمل في آياته الدلالاتِ السياقيّة التي تُظهر العلاقة الرائعة بين ترتيب النزول وترتيب المصحف، وهذه العلاقة تعتبر من عجائب الإعجاز القرآني، فكل قصة قرآنية -ولو

توزعت في سور متعددة – ترتبط ببعضها بخيط رفيع من التناسق والتجانس، حتى تكون وحدة واحدة متماسكة.

25- قصة موسى الطَّيِّلاً في القرآن الكريم تأتي بأشكال متعددة وأساليب متنوعة وألفاظ مختلفة، وهذا يدل على ثلاثة أمور: البلاغة والإعجاز والبيان. فأما البلاغة فهي إظهار المعنى بأجمل وأبهى الصور، وأما الإعجاز فهو تحدي العرب الفصحاء الذين لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل واحد من هذه الصور، وأما البيان فهو ترسيخ المعنى في النفس وتنبيهها إلى أهميته وقيمته، وذلك بتكراره بطرق مختلفة، وهذه هي سمة القرآن الكريم التي تجعله معجزاً لغوياً، متناسبًا مع السياقات البلاغية والمقاصد المتباينة، وقد ارتبط مصطلح التكرار مع مصطلح المتشابه في القرآن الكريم، لما فيه من تعدد في الدلالات والتأويلات.

26- إنّ المتشابهات اللفظية تحمل الدلالات والمعاني والحكم التي تناسب السياق والمقصد والمستمع، وتبرز الموازنات والاختلافات بين الشخصيات والأحداث والمواقف في القصة القرآنية.

27- إن مراعاة السياق القرآني قاعدة مهمة من قواعد التفسير القرآني وقد استعمل المفسرون هذه القاعدة في جوانب مختلفة في التفسير واهتموا بها اهتماما كبيرا ومن هذه الجوانب المتشابه اللفظي في قصص القرآن الكريم.

28- الحذف هو أسلوب بلاغي يتميز به القرآن الكريم، وهو أن يحذف القرآن الكريم بعض الكلمات أو الحروف من نصه، ويجعلها مفهومة من السياق، ولهذا الحذف في القرآن دوافع بيانية، مثل الإيجاز، أو التشويق، أو التنويع، أو التفرد. ويظهر الحذف في القرآن بصور مختلفة، مثل حذف حرف، أو فعل، أو اسم.

29- للحذف علاقة بلاغية متداخلة مع غيرها من العلاقات، ولا يمكن فهمها بمعزل عن الذكر، أو عن العلاقات الأخرى التي تساهم في تشكيل المعنى، فليس من الضروري أن يكون الذكر والحذف متضادين، بل قد يجتمعان في سياق واحد، حسب الحاجة.

30- القرآن الكريم يستخدم الذكر والحذف في سرده للقصص القرآنية، وأن هذا السرد يتوافق مع نزول القرآن الكريم مفرقا ومنجما، أي أن القرآن الكريم يذكر من القصص ما يناسب الموقف والمقام والمخاطب إليه، ويحذف منها ما لا يناسبها أو ما لا حاجة إليه أو ما يعلمه المخاطبون.

31- في المرحلة الأولى من الدعوة، استخدم القرآن الكريم أسلوب الإجمال في ذكر القصص، وهو أن يذكر الحقائق والمواقف بشكل موجز وعام، دون التفصيل والتوضيح، وهذا يتناسب مع الدعوة، وأجملت القصة في ست سور قبل أن تفصل، وهذه السور هي: المزمل – الفجر – النجم – ق – القمر.

32- إن أول ما نزل من القصة في القرآن المكي يشبه آخر ما نزل منها في القرآن المكي، فأول نزولها كان مجملا كليّا في سورة المزمل، ويركز على تهديد الكفار، وآخر ما نزل منها في مكة في سورة النازعات، وكان كذلك مجملًا كليّا ويركز على تهديد الكفار.

33- إن أول ما نزل من القصة في العهد المدني يشبه كذلك آخر ما نزل منها العهد المدني، فكان أولُ نزولها المدني في سورة البقرة؛ حيث ذكرت بعد قصة آدم عليه السلام، وآخر نزولها المدني كان في المائدة، وذكرت بعدها قصة ابني آدم عليه السلام.

34- تقدّمَ إجمال القصة على تفصيلِها في سياق الترتيب الزمني لنزول القرآن، بينما تقدم التفصيل على الإجمال في سياق الترتيب النظمي للقرآن الكريم.

35- السياق والمسكوت عنه يتكاملان في تفسير القرآن، ويجب على المفسر أن ينظر إلى السياق قبل أن يحدد المسكوت عنه، وأن يراعي القرائن اللغوية والبلاغية والعقلية والشرعية في ذلك.

36- القرآن الكريم يحمل في طياته المسكوت عنه، وهو ما لم يذكره القرآن صراحة، ولكنه مفهوم من خلال السياق أو القرائن، وهذا من الحكمة والرحمة، فهو يدعونا إلى التفكير والتدبر في كلام الله تعالى، ويحفزنا على البحث عن المعنى والمقصد من وراء الإجمال، ولهذا، أنزل الله تعالى القرآن مقروءا ومنطوقا، وترك لنا الاجتهاد في تحديد التفاصيل؛ لننهل من كل كلمة في كتابه الكريم، ونسترشد بكتب علوم القرآن وكتب التفاسير، التي تبين لنا أن كلام الله هو معين لا يجف ولا يزول إلى يوم الحساب.

37- المسكوت عنه في القصص القرآني يتناسب مع نزول القرآن منجما مفرقا، ويحقق أهدافا تربوية وأخلاقية، ويثير التفكير والبحث، ويحترم عقل المسلم.

التوصيات

ـ أرى هنا تقديم نصيحة للباحثين بأن تنجيم القصة القرآنية موضوع كبير خطير، يلزمه عكوفًا جادًّا على مثل تفسير الظلال لأنه -بحق- قد وجدته يتفاعل مع منطق التنجيم تفاعلا حركيا ذا فائدة كبيرة لبيان وجه إعجاز التنجيم القصصي، حيث إنه يعيش مع بيان السياق ولا يتجاوز من نجوم القصة الواحدة إلا ما يكشف عن مراد المقام والسياق.

ـ إن تصريف القول في قصة موسى عليه السلام يبرز جمال القرآن وإعجازه، ويخدم الدلالة والتوجيه والتأثير في السامع والقارئ، ويجعل القصة حية ومتجددة ومتناسبة مع السياق والمخاطب؛ لذلك أوصي بمزيد من الدراسات البلاغية للقصص القرآنية، وبالاستفادة منها في الدعوة والتربية والتعليم.

ـ المسكوت عنه في القرآن الكريم يصلح عنوانا لدراسة مفصلة لكثرة فوائده وغزارة شواهده ودراسته تحتاج إلى زيادة تعمق وتفصيل وتمحيص وتأصيل ودقة ربط الدلالة والتأويل.

ـ يجب أن يدرس الإجمال والتفصيل في إطار السياق الزمني والسياق النظمي للسورة، وهو باب واسع غزير لمن أراد البحث.

وفي الختام: فإني أعلمُ أن هذا البحث لا يتجاوزُ كونه محاولةً متواضعةً لا تسلمُ من النَّقص والزَّلل، فأرجو من الله أن يتجاوز عن سقطاتي وأخطائي، وأن يتقبَّله مني بقبولٍ حسنٍ، وأن ينفعَني به في الدارين، وأن يجعله مفتاحًا للخير وسببًا للهداية، وأن يجعله في موازين حسناتي يوم القيامة، وأن يجعلني وإيَّاكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصَّته، وأن يجمعنا به في الجنَّة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب) هود: ٨٨.

قائمة الجداول

جدول 1 السياق الزمني لإجمال القصة وتفصيلها في القرآن الكريم 258

قائمة الأشكال

الشكل 1 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف................................. 273

الشكل 2 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة طه 274

الشكل 3 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء................................ 279

الشكل 4 فصول قصة موسى عليه السلام في سورة القصص................................ 281

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، نصر الله بن محمد. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ابن جماعة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله. **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**. المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع،1984هـ.
- ابن فارس، أحمد بن زكرياء. **معجم مقاييس اللغة**. بيروت: دار الفكر، 1979.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. **تأويل مشكل القرآن**. شرح أحمد صقر. القاهرة: دار التراث، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. **تفسير القرآن العظيم**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، دون تاريخ.
- أبو السعود، عبد الله علي عبد الرحمن. **الإيجاز وأثره في بيان إعجاز القرآن الكريم دراسة تأصيلية**. عمان: رسالة دكتوراة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، 2011.

- أبو موسى، محمد محمد. **خصائص التراكيب**: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. القاهرة: مكتبة وهبة، 1996م.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- أثير الدين الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان. **البحر المحيط**. بيروت: دار الفكر، 1420هـ.
- أخوان الصفا. **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**. بيروت: مطبعة تراث العرب، 1975م.
- الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن**. دمشق: دار القلم، 2002.
- الألوسي، شهاب الدين محمود. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ.
- الألوسي، محمود شكري. **بلوغ الأرب في أحوال العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. **إعجاز القرآن الكريم**. مصر: دار المعارف، 1997م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله. **صحيح البخاري**: بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ.
- البغوي، الحسين بن مسعود. **تفسير البغوي**. الرياض: طيبة للنشر والتوزيع، 1997.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**. الرياض: مكتبة المعارف،1408هـ/1987م.

- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.
- الجاحظ. **البيان والتبيين**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الجاحظ. **الحيوان**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
- الجبالي، محمد عبد الحميد. **التفسير الموضوعي لسورة الأعراف**. القاهرة: دار الفكر العربي، 1424هـ/2003م.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. **أسرار البلاغة**. القاهرة: مطبعة المدني، بدون تاريخ.
- الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ.
- الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد. **البرهان في أصول الفقه**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- حجازي، محمد محمود. **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**. القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1970م.
- حسين، محمد حسين محمد ياقوت. **ظواهر الآيات وبواطنها في قصة موسى – عليه السلام –**. دمشق: دار الحكمة، 2000.
- حقي، إسماعيل بن مصطفى. **روح البيان في تفسير القرآن**. بيروت: المطبعة العثمانية، 1911-1928.

- الحموز، عبد الفتاح. معجم الأفعال التي حذف مفعولها غير الصريح في القرآن الكريم. عمان: دار الفيحاء ودار عمار، 1986.
- حوبه، محمد عمر. **نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلّق به.** المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، 2000.
- الخطيب الإسكافي، أبو الفتح عثمان بن علي. **درّة التنزيل وغرة التأويل**. جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- دبور، محمد عبد الله. **أسس بناء القصة من القرآن الكريم دراسة أدبية ونقدية.** المنوفية: جامعة الأزهر. كلية اللغة العربية بالمنوفية. قسم الأدب والنقد. رسالة دكتوراة مطبوعة 1417هـ/1996م.
- دراز، محمد عبد الله. **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**. بيروت: دار القلم، 2005.
- الذهبي، محمد حسين. **التفسير والمفسرون**. مكة المكرمة: أم القرى للطباعة والنشر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- الراجحي، عبد الغني عوض. **النهج القويم في دراسة علوم القرآن**. القاهرة: طبعة البابي الحلبي، بدون تاريخ.
- الرازي، فخر الدين. **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988م.
- الرافعي، مصطفى صادق. **تاريخ آداب العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية، 200م.
- الرضي، الشريف. **تلخيص البيان في مجازات القرآن**. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1995.

- الزّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي. **تاج العروس من جواهر القاموس**. الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ١٩٦٥-٢٠٠١م.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم. **مناهل العرفان في علوم القرآن**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- الزركشي، محمد بن عبد الله. **البرهان في علوم القرآن**. بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957.
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. **الكشاف**. بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ/1986م.
- السامرائي. فاضل صالح. **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل- محاضرات**. مرقم آليا في الشاملة.
- السبكي، بهاء الدين. **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- سعد، محمود توفيق محمد. **شذرات الذهب: دراسة في البلاغة القرآنية**. القاهرة: دار الفكر العربي، 1422هـ/2001م.
- سعد، محمود توفيق. العزف على أنوار الذكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1424هـ.
- السيد علي، السيد حامد. **من روائع البيان في القرآن**. القاهرة: مطابع الولاء الحديثة. 1971م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **الإتقان في علوم القرآن**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1394هـ/1974م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **معترك الأقران في إعجاز القرآن**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1408هـ/1988م.

- شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله. **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب وهو حاشية الطيبي على الكشاف**. دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 1434هـ/2014م.

- الشعراوي، محمد متولي. **تفسير الشعراوي**. القاهرة: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧.

- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.

- الشيرازي، ناصر مكارم. **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**. بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٧ م.

- الصابوني، محمد علي. **صفوة التفاسير**. بيروت: دار القرآن الكريم، 1981.

- الصايل، محمد بن علي. **من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم**. الرياض: دار إشبيليا للنشر والتوزيع. 2001م.

- الصعيدي، عبد المتعال. **النظم الفني في القرآن**. القاهرة: مكتبة الآداب،1998م.

- الصعيدي، عبد المتعال. **بغية الإيضاح لتخليص المفتاح في علوم البلاغة**. القاهرة: مكتبة الآداب، 2005م.
- صمود، حمادي. التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس. تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1981.
- الطبري، محمد بن جرير. **تفسير الطبري**. القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر، 1422هـ/2001م.
- طنطاوي، محمد سيد. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**. القاهرة: دار النهضة مصر للطباعة، 1998.
- عبد الغفار، أحمد. **ظاهرة التأويل وصلتها باللغة**. القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦م.
- عبد الفتاح محمد، هاني. **من بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن اليتامى في السور المكيّة**، (أيتاي البارود: مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، 1440هـ/2019م).
- عبد الكريم، عماد محمود محمود. **قصة موسى والخضر عليهما السلام: دراسة بلاغية تربوية**. مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان، 2018.
- عبد ربه، السيد عبد الحافظ. **بحوث في قصص القرآن الكريم**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972.
- العدوي، محمد خير محمود. معالم القصة في القرآن الكريم: دراسة تحليلية للقصة القرآنية. عمان: دار العدوي، 1988م.
- عشراتي، سليمان. **الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمال السرد الإعجازي**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1988م.

- عطا الله السيد، حسام. الكلمات المفتاحية في القرآن دراسة تحليلية في ضوء دلالة المطالع على المقاصد. القاهرة: جامعة الأزهر. بحث مخطوط.
- الغرناطي، ابن الزبير الثقفي. **البرهان في تناسب سور القرآن**. تحقيق محمد شعباني. المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1990.
- القرطبي، محمد بن أحمد. **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م.
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي. **الإيضاح في علوم البلاغة**، بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ.
- القطان، مناع. **مباحث في علوم القرآن**. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م.
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق، دون تاريخ.
- الكواز، محمد كريم. **القصص القرآني محاضرات جامعية**. بغداد: مطبعة شفيق، 2014.
- محمد، السيد فاروق محمد. **القصص القرآني ودفع ما أثير حوله من شبهات**. المنوفية: حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية. العدد 33، 1435هـ/2014م.
- محمد، هاني عبد الفتاح. **القصر أساليبه وأغراضه البلاغية**. إيتاي البارود: منشورات جامعة إيتاي البارود. 2018م.

- موسى، السيد أحمد. **دلالة (إمرًا . ونكرًا) في قصة موسى والخضر من سورة الكهف دراسة بلاغية**. الزقازيق: حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق 1983م.
- الميداني، عبد الرحمن بن حسن حبنكة. **البلاغة العربية**. دمشق: دار القلم، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- النحاس، أبو جعفر. **إعراب القرآن**. بيروت: دار الكتب العلمي، 1421هـ/2000م.
- نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، القاهرة: مجمع اللغة العربية في القاهرة، 1972م.
- النسائي، أحمد بن شعيب. **فضائل القرآن**. بيروت – الدار البيضاء: دار إحياء العلوم/دار الثقافة، 1992م.
- الهدهد، إبراهيم صلاح. **علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية تطبيقية**. جامعة الأزهر: كلية اللغة العربية بالقاهرة. رسالة دكتوراه مطبوعة، 1432هـ/2011م.
- هراسي، الكيا. **أحكام القرآن**: بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ.
- الهلال، محمد. **تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي**. دمشق، القاهرة: دار المعراج، دار جوامع الكلم، 2015م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله. **معجم البلدان**. بيروت: دار الفكر، 2000م.

الملحقات

الترتيب الزمني (التنجيمي) للسور التي وردت فيها قصة سيدنا موسى عليه السلام

مسلسل	السورة والآيات	ملاحظات
1.	المزمل: 15-16	في وسط السورة إجمالا
2.	الفجر: 10-14	في مقدمة السورة إجمالا
3.	القمر: 41-42	في خواتيم السورة إجمالا
4.	الأعراف: 103 - 157	في ختام عدد من قصص الأنبياء تفصيلا
5.	الفرقان: 35 - 36	في وسط السورة إجمالا
6.	مريم: 51 – 53	في وسط السورة إجمالا
7.	طه: 9 – 98	بعد مقدمة السورة تفصيلا
8.	الشعراء: 10 – 68	بعد مقدمة السورة تفصيلا
9.	النمل: 7 – 14	بعد مقدمة السورة إجمالا
10.	القصص: 3 – 50	في أول السورة تفصيلا
11.	الإسراء: 2 – 101/8 - 104	إجمالا وعقب بذكر القرآن بعد الموضعين
12.	يونس: 75 - 94	تعقيب بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل من قبله ممن يتلون الكتب
13.	هود: 96 - 99	إجمالا في أخر السورة وعقب بما يصلح أن يكون عبرة عامة لكل القصص القرآني
14.	غافر	في وسط السورة تفصيلا
15.	الأنعام: 92 و154	فيها دلالة على شهرة قصة موسى لدى العرب وفيها تعقيب بذكر القرآن
16.	الصافات: 114 – 120	في وسط السورة إجمالا
17.	السجدة: 23، 24	في خواتيم السورة إجمالا
18.	الزخرف: 46 – 56	في وسط السورة إجمالا
19.	الدخان: 17- 33	بعد مقدمة السورة إجمالا
20.	الذاريات: 38 – 40	في وسط السورة إجمالا
21.	الكهف: 60 – 82	في خواتيم السورة تفصيلا
22.	إبراهيم: 6 - 17	موسى عليه السلام ينذر قومه مصائر السابقين

.23	المؤمنون: 45 – 49	في وسط السورة إجمالا
.24	الحاقة: 9 – 12	بعد مقدمة السورة إجمالا
.25	النازعات: 15 – 26	بعد مقدمة السورة إجمالا
.26	البقرة: 40 – 101	بعد مقدمة السورة تفصيلا وبعد قصة آدم عليه السلام
.27	النساء: 153 – 161	في خواتيم السورة إجمالا
.28	الحج: 42 – 44	في وسط السورة إجمالا مع الالتفات " وَكُذِّبَ موسى)
.29	الصف: 5	بعد مقدمة السورة وتفسرها الأحزاب.
.30	المائدة: 19 - 26	بعد مقدمة السورة وذكرت بعدها قصة ابني آدم.

السيرة الذاتية

أحمد اليوسف هو باحث وأكاديمي وكاتب متخصص في مجال الدراسات القرآنية والبلاغية. تخرج في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب، وحصل على درجة الماجستير في الدراسات اللغوية من جامعة حلب في سوريا، شارك في العديد من المؤتمرات منها أدب الوباء في جامعة كيليس، والتكامل المعرفي بين العلوم الشرعية واللغوية في جامعة كارابوك، وعمل معيدًا في جامعة حلب، ومدرسا في جامعة الزهراء في مدينة غازي عينتاب، يعمل حاليا مدرسًا في قسم اللغة العربية للطلاب الأجانب في دولة قيرغيزستان.

MUSA (A.S.) KISSASI BAĞLAMINDA KUR'ÂN KISSALARININ PARÇA PARÇA OLARAK İNDIRILMESINDEKI BEYÂNÎ SIRLAR

2024
DOKTORA TEZİ
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ

Ahmad ALYOUSEF

Tez Danışmanı
Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ